
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

التَّشِّظي

رواية

عائشة عبد العزيز الحشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1430 هـ - 2009 م

ردمك 978-9953-87-810-2


الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص. ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

لتنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

الإهداء

إلى ذكـــرى والدي الذي احترقتْ قلبَهُ رصاصة.. فسقط جسده بـــين الكعبة والمقام وظلت نجوم رتبته العسكرية تلمع فوق كتفيه تحت شمس ظهيرة يوم الثلاثاء الموافق 15 محرم 1400هـــ..

تـــركتني حينها طفلة يا أبـــي.. أبكي وأنظر إلى الأعلى.. أنتظر هـــبوطك المظلـــي مـــن الـــسماء بمظلتك التي كنت تهبط بها حياً من الطائرة..

زلـــزلني غيابك.. فصرت أقسم لرفيقاتي في المدرسة بأن انتظاري لك ليس عبثاً.. إذ إنك لم تمت. و لم يتداعَ يقيني إلا بعد سنوات..

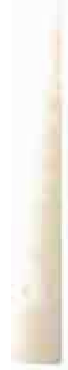
كـــنت طفلةً أرفضُ العزاء ممن التفوا حولنا مفجوعين.. وأعزي نفـــسي حينها بترديد: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾..

ابنتك عائشة

2008/10/13

اعتراف

مهما بدا حجم امتناني عظيماً فلن تستطيع كلماتي أن تُظْهِر فضل أمي عليَّ بعد أن امتد ذلك الفضل إلى ما أكتب.. إذ استعنتُ بها كثيراً لكي أتيقنَ مما جرى لأناسٍ سجلتُ هنا تاريخهم القريب.. أناس عرفتهم وعــشت واقعهم عندما كنت صغيرة.. ولا زالت صورهم وأحاديث بعــضهم في ذاكرتي.. وإذا كنت قد تعمدتُ تغيير أسمائهم واختلقت أسمــاء القرى التي سكنوها.. فقد ظل تاريخ الرواية وأحداثها وظروفها مشابهة لما جرى في الواقع إن لم تطابقه..



— 1 —

هلعٌ ينهشُ قلبَ طفلة

غيوم تناثرت في السماء، أشجار هنا وهناك، وصوت ضجيج يـثيره محـرك سـيارة الجيب على دروبٍ ترابية ممهدة فوق جبالٍ شاهقات.

تلـك الـدروب الطويلة التي تربط وطن "آل وادِح" بمدينة أبها ليـست سوى طرقات متعرجة لم يكتمل تزفيتها بعد، تتلوى بانحناءات مخـيفة في عرض الجبال أمام ناظري الطفلة "آمنة" في رحلةٍ طويلة للتو بدأتْها دون إرادة منها.

طفلـةٌ تـرتجف مع رجل صامت متجهم لا تدري من هو، على طريقٍ يبتعد بها شيئاً فشيئاً عن أهلها وقريتها التي لا تعرف سواها.

أمـا وطن آل وادِح فهو مجرد قرية في أقصى الجنوب إذا تحدث عنها سكّانُها قالوا (إم وطن)[1] ككلِ القرى المتناثرةِ حول مدينة أبها، حـين كانـت المفردات غير المفردات والحياة غير الحياة، وحتى أحلام الناس وأمانيهم ومشكلاتهم وأفراحهم وأحزانهم وكل ما يعيشونه كان مخـتلفاً في ذلك الزمن. زمن كانوا فيه يحبون حياتهم وأرضهم إلى الحد الـذي يجعلـهم لا يرون الأشياء بعيونهم بل بقلوبهم، فلا تكون الغيمة غيمةً وحسب إذا نظروا إليها.. وليس البئر بئراً ولا الوادي وادياً، حتى

---

(1) إم وطـن: تعني الوطن. حيث تُستبدل أل التعريف بالألف والميم في كثير من قرى جـنوب المملكـة العـربية الـسعودية. وسوف يرد استخدام (إم) كأداة تعريف في الحوارات التي بين سكان القرية لأنهم ينطقونها بذلك الشكل.

الأمطـــار والأحجـــار وكل الأشياء حولهم ليست مجرد أشياء.. كلها لفرط ابتهاجهم تكاد أن تدب فيها الحياة.

أولــئك هم سكّان "وطن صغير"، إذا خرجوا من بيوتهم كل صباح فسيمشون بين الغيوم، لأن قريتهم تلك تتربع على قمم تطل من جهتها الغربية على السفوح التهامية الشديدة الانحدار والموازية للبحـــر الأحمر. قريةٌ يغلّفُها ضبابٌ خفيف صيفاً وتكاد تنعدم فيها الرؤية شتاءً.

في تلك القرية يتعلمون الحب أولاً، ويودون لو استطاعوا مكافأة الأزهـــار على ما تنشره من عبير، وطيور "اللَقَا" على ما تشدو به من ألحـــان. تكـــاد شـــفاههم أن تُقبِّل السنابل قبل أن يهموا بحصادها إذ يؤمـــنون بـــأن الحب النضّاح من قلوبهم ليطوِّقَ كل شيء هو ما يميز الإنسان عن الحجر.

تغـــيرت القرية ككل القرى التي حولها. وكان تغيرُها تقهقراً. لم تعـــد كمـــا تركتها آمنة. ولا أحد ممن كرهوا ذلك التغيير يجرؤ على كـــشط الذاكـــرة لكي يستعيد الناس بعضاً من مزاياهم.. إنسانيتهم.. عذوبـــتهم. لم يعد لدى أيهم القدرة على جرّ بعض خيوط الذكريات ليحكـــي شـــيئاً عن تاريخ قريب. حينما كان كل الناس ناساً. وقيمة الإنـــسان ســـواء كان أنثى أو ذكر تحضر في الأذهان من خلال عمله وطيبـــته وإنـــسانيته، وليس من خلال جنسه. أما الآن وبعد أن جرى تغـــييرهم عُـــنوة، أصبح الناسُ مقسومين إلى نصفين: نصف لهم الدنيا والآخـــرة لأنهم رجال، ونصف آخر ليس له شيء في الدنيا وتمتلئ بهم النار في الآخرة لأنهم مجرد "حريم".

قـــبل هـــذا التغيير، كانت آمنة ذات التسع سنوات متكومةً فوق المقعـــد الخلفي لسيارة الجيب التي غادرت قرية آل وادح للتو. جلست

تـــرتعد هلعاً كأرنبٍ مذعور مشدود من أذنيه في كفِ أنسيٍ متوحش. وبكاؤها الصامت يحفر أخدوداً من الألم في قلبها الصغير.

قـــبل ســـاعات من رحلتها تلك كانت في قريتها، مغروسة على التلال كالشتلة الصغيرة. معجونة باخضرار أشجارها وأفراح ساكنيها وأغنياتهم وحكاياتهم الشعبية. وها هي الآن في مقعد خلفي تثني فخذيها حـــتى التصقتا بصدرها وتحيط ساقيها القصيرتين بذراعيها وتجعل عنقها إلى الأمام لتدفن وجهها بين ركبتيها.

ظلت على حالها تلك تبكي بعد أن غاب أهلها وغاب "وطن آل وادح" كلـــه عـــن نظرها بكل بيوته السامقة، وحقوله الممتدة كنور الشمس.

مـــرت ثـــلاث ساعات متواصلة منذ أن أخذها هذا الغريب معه وهـــي في رعـــب يكاد يقتلها. ثلاث ساعات ترتعد فيها آمنة صامتةً وســـيارة الجيب تهبط بها وتعلو على الجبال. وهذا الرجل العابس يقود سيارته ولا يقول شيئاً.

سمعـــت بعض نسوة "إم وطن" هذا الصباح يقلن لأمها عن هذا الـــرجل الـــذي هي معه الآن بأنه: "لا ينفت ولا ينقرش"[1]. لكنها لم تتـــصور بأنها ستكون معه بعد وقتٍ قصير من تجمعهن وحديثهن عنه بطريقة تصوره لها سليلاً للشياطين.

رفعـــت رأســـها عندما رمى عليها الغريبُ عباءةً سوداء وقال لها آمراً:

- البسي هذه، اقتربنا من أبها.

أمسكت الصغيرة بالقماش الأسود العريض وتأملته بذهول، إذ لا تدري كيف يُلبس. أدار الغريب إليها رأسه مرةً أخرى ورمقها بنظرته

---

(1) مثل يقال عمن تبدو عليه ملامح القسوة.

الحـــادة ثم قال بحزمٍ لم تعتد عليه، بل لم تعرفه قبل تلك اللحظة، حزم أضاف مزيداً من الرعب في أعماقها:

- غطي بها وجهك.

بكت هلعاً أثناء امتثالها لأمره. اختبأت تحت العباءة بكاملها وهي على وضعية الجلوس ذاتها.. تساءلتْ روحها الشقيةُ بصمت عما يحدث لها الآن.

لقد كانت صباح هذا اليوم مع صديقتها هدباء ترعيان أغنامهما في الجهـــة الأخرى من سفوح جبال تطوّقُ قريتها وتنتهي السفوح بوادٍ غدق وافر الماء تسبح فيه كائنات عديدة، وتقف بين الحين والآخر على جنـــباته أنواع كثيرة من الطيور والحيوانات المستأنسة والبرية لتشرب وتأكل من أشجارٍ وحشائش تنمو على امتداده.

وادي (عَــبَبْ) يـــشق طريقه بين قرىً تناثرت حوله، وتداخلت حقولها حيناً للحد الذي يظن معه من لا يعرف تلك الأرض أن قريتين ليست سوى قريةٍ واحدة لشدة القرب، وتباعدت أحياناً إلى أن تتجاوز المسافة بين القرى بضعة كيلومترات.

أغـــرب ما في ذلك الوادي الجميل هو أن هواءَهُ في الجزء المتحدِّر نحو الغرب يعبق برائحة حبق ينمو بكثافة عجيبة على ضفافه وبارتفاعٍ يقارب المتر ويتجاوزه أحياناً. أما نصف الوادي المتجه شرقاً فالنسمات هـــناك تحمـــل رائحـــةً مختلطة لأنواع لا تحصى من الزهور والأشجار والفواكه.

يبقـــى جريان السيول غزيراً إلا إذا مرت أشهر الخريف من كل عـــام ونشرت رياحها ذات الأزيز الصاخب، حيث ينخفض الماء إلى الحد الذي يجعل الأمهات لا يخشين على صغارهن من اجتياز الوادي، وتـــذوي فيه حياةُ كثيرٍ من الكائنات بسبب قلة مياهه. لكن.. ما أن

ينتهي الخريف حتى تعود الحياة نضرةً إلى كل شيء في عمق الماء وحول جريانه وكأنما أفاقت من غفوة قصيرة. حينها يقف بعضهم في سكون ليتأمل أسراباً من الطيور وأنواعاً من الحيوانات في مساحات خضراء في كل الفصول إلا الخريف إذ تصفرُّ أوراق الشجر، ما عدا شجر العرعر، فهو دائم الخضرة.

كانـــت آمنة هناك.. فنهار القرية لا يستثني أحداً، حتى الأطفال. علـــى الجمـــيع أن يدركوا قدومه ويستعدوا للاحتفاء بكل ما فيه دون تغافـــل أو تخاذل أو نسيان، وعلى المتعبِ منهم أن يجرجرَ جسدَه ليقوم بمـــا يجـــب علـــيه القيام به في أغلب أيام السنة. لديهم أعمال كثيرة ومتواصـــلة، تـــستمر في أوقات الصحو حيث الشمس تدفئ عظامهم وحقـــولهم وأوقات المطر التي يبتهجون فيها حتى وإن تكاثر عليهم الماء وجرّت السيول بعض مواشيهم.

بـــيوتهم حصينة تشبه القلاع العتيقة. راسخة كجبالٍ فوق الجبال فـــلا يقلقهم أن يستمر هطول المطر وأن يطول وقت "إمْ سَبْرَة". وإم سبرة تعني ألا يروا الشمس لعدةِ أيامٍ متواصلة.

يتحقق لهم في تلك الأرضِ اكتفاء ذاتي، إذ يستهلكون ما ينتجون ويـــصنعون ما يحتاجون إلا النادر اليسير مما قد يصلهم عبر ميناء جيزان أو غيره من الموانئ الصغيرة القريبة نسبياً.

ظـــل وطنهم بعيداً عما يدور في العالم من نـــزاعات وحروب وتغـــيرات باستثناء بعض أحداث قديمة، كدخول جيوش تركية إلى حـــدودهم قبل عقود من الزمان. رويت لهم تلك الأحداث من قبل الأجـــداد الـــذين سمعـــوها من أجداد سابقين. تختفي تلك الجيوش سنوات وسنوات إلى أن يظن الناس أن لا رجعة لها ثم تعاود الظهور فجأة.

تقول إحدى عجائز تلك القرية وينادونها "ومّا[1] رحمة":

- جدي يقول إن جيوش إم ترك يرحلون عن أرضنا ثم يعود بعضهم إليها ومعه زوجته وعواله. فيسكنون معنا. آل "إبر شاوش" مثلاً أتوا من "إسطنبول" قبل مئتين أو ثلاث مئة عام أو أكثر، أتوا آباءً وأمهات وعوالهم. وأيضاً آل "إبر سربة" أتوا مثلهم من بلادٍ بعيدة. لا أحد يدري أين هي. ولا أحد يدري لِمَ كانوا يهربون حتى وصلوا إلينا. وغدوا منا.. صاروا من جماعتنا لأنهم تمكنوا من حرث جبالٍ لمْ يكن فيها إلا إم سباع. زرعوها وابتنوا بيوتهم فيها. وتعلموا من أجدادنا كل عاداتنا وساروا عليها. وتعلموا من نساء أرضنا كيف يصهرون ويخضرون بيوتهم وكيف يزينون حجراتها بإم قط[2]. وفي أوطانٍ أخرى كثيرة مجاورة لوطننا استقرت عوائل أتت من أماكن أخرى بعيدةً. وبتقادم إم سنين صاروا تماماً مثلنا.

وتواصل العجوز رحمة حكاياتها فتقول:

- أما آخر عهدنا بإم جيوش إم تركية فقد كان في صباح يوم كنت فيه لم أتجاوز إم خامسة من عمري. استيقظنا على صوت جلبة عارمة، ولمحت أمي تهرول فوق إم درج لتصعد إلى إم دفه[3] فلحقت بها لأرى معها من فوق دفة بيتنا ما لم نستطع أن نراه من إم كترة[4]. وقد رأينا عدداً لا يحصى من إم رجال

(1) ومًا، ومي: تعني أمي..

(2) يصهرون البيوت أي يدهنونها من الداخل باللون الأبيض.. ثم يخضرونها أي يجعلون النصف الأسفل من الجدار أخضر بواسطة البرسيم والنصف الأعلى يبقى أبيض.. ثم يرسمون أشكالاً بديعة وألواناً زاهية في منتصف الجدار بين الأخضر والأبيض يسمى إم قط.

(3) إم دفة: سطح البيت.

(4) كترة: نافذة.

ليسوا من أهل أرضنا يرتدون سراويل وقمصاناً قاتمة ويعتمرون قــباعاً[1] متطاولة حمراء على رؤوسهم ويمشون بانتظام ويأمر بعضهم بعضاً. لقد أفزعتني كثرتهم لأني أعرف أنهم يأخذون ما يحتاجونه عنوة. حتى "إم حثى"[2] يأخذون منه لخيولهم وبغالهم بقدر ما يريدون. خافت أمي في ذلك اليوم من صيحاتهم عندما يأمرهم قائدهم بإم سير أو إم وقوف، ومنذ ذلك الحين صارت إذا أردت أن تحلف بالله تتذكر أشد شيء هالتها كثرته و لم يكن سوى تلك القبعات الحمراء، لذلك كانت تقول عندما تحلف: (والله عــدد قباع إم ترك). لكنهم لم يمكثوا عندنا كثيراً. لقد طــووا خيامهم من فوق سفوحنا ورحلوا. وكانت تلك الأيام هي آخر عهد وطننا بهم.

ومما تذكره العجوز رحمة عن تاريخ قريتها انقطاع السكر لأسابيع دون أن يدركــوا سبباً لذلك. إذ إنه من السلع القليلة التي لا ينتجونها. أما حين تساءلوا عن سبب انقطاعه سمعوا من بعض الجمَّالة الذين يمرون بقــريتهم على الجمال المحملة بالبضائع ليصلوا بها إلى سوق الثلاثاء أو الأســواق الأخــرى، أن حرباً في دنيا بعيدة يقال لها "الحرب العالمية الثانية" هي سبب تأخر وصول البضائع.

فــيما عدا هذا لم يطرأ ما يقلقهم جيلاً بعد جيل إلى أن تغيرت حياتهم بفعل فاعل. وشاء ذلك الفاعل ألا يكونوا هم هم. بل أصبحوا غيرهم خلال بضع سنين.

---

(1) قباع: جمع قَبعَة. والقبعة هي الطاقية وما شابهها مما يلبس على الرأس. وما تحدثت عنه رحمة هو الطربوش الأحمر.

(2) إم حثــى: الحثى: أعواد السنابل بعد أن يأخذ منها القمح وتبقى فارغة تصبح طعاماً للمواشي.

قبل أن تنقلب حالهم نشأت آمنة على تلك الجبال. طفلة لا تعرف من هذا العالم إلا قريتها الصغيرة. أخذت عن الضأن الوداعة والمرح وحب السفوح، وأخذت عن الطيور حب هذا الفضاء الرحيب. تقفز كضفدعة مرحة من مكانٍ لآخر.. وتلهو كفراشة بيضاء لا يعنيها شيء في هذه الدنيا إلا الضوء. تجيد العد حتى المئة، إذ لم تتجاوز أغنامها هذا الرقم منذ أن بدأت ترعاها. وتحفظ من القرآن الكريم سورة الفاتحة وأربع سورٍ قصيرة تستنفذها كلها أثناء صلاة بأربع ركعات.

لا زالت تتهاون في أداء الصلاة ما لم يتابعها والداها. وتتهاون في إسباغ الوضوء كل فجر، لعل النوم يبقى في جفنيها لتعود إليه عند أداء السجدة الأولى في صلاة الصبح. وكثيراً ما تنام في وضعية السجود إلى أن يتنبه أحد والديها إلى تأخرها عن إخراج الأغنام إلى المراعي.

قبل الشروق أحياناً وأحياناً بعده، تخرج مع صديقتها هدباء بأغنامهما، تمران معاً من الأزقة الضيقة المرصوفة بالحجارة والعشب بين البيوت، تمشان على الأغنام التي تُمَأْمِئُ وتتراكضُ أمامهما في طريقها إلى السفوح. وهناك تحتفل بمقدمهما كل الحياة، فتحلّق الطيور على ارتفاعات قريبة، ثم تتقافز من فوقهما لتتنقل ما بين الشجر، أو تغادرهما إلى سنابل الذرة البيضاء متجاهلةً الفزاعات الكثيرة التي ينصبها الناس وسط الحقول.

آمنة وهدباء تتحدثان عن العيد الذي انقضى قبل أيام وعن رمضان وأي منهما صامت أكثر. تكرران الحديث ذاته وتحلف كل واحدة بأنها أقدر من رفيقتها على احتمال الجوع والعطش، وتتواعدان على صوم رمضان القادم كله وليس بعضه. تجريان.. تلعبان بعرائسهما ككل الفتيات الصغيرات اللواتي تصنع لهن أمهاتهن

العرائس من بقايا الثياب القديمة ويضعن الحشى في داخلها إن لم يجدن القطن الكافي لحشوها.

لا أحــــد يدري بأن انقضاءَ العيد كان نذيراً بقدوم الألم. وأن الألم يخـــتار دائمـــاً أقل الناس قدرةً على صده. وأي النفوس أشد هشاشة من طفلة تواصل المرح مع رفيقتها لاهيةً على التلال والأغنام حولهما..!؟

طفلة لا تجيد الحذر، ولا يمكنها إلا أن تهب كل من في قريتها كل مساحات الثقة البيضاء التي بداخلها بكل طهر. وتواصل اللعب. ليست في حاجة إلى إحضار طعامٍ من المنـــزل في هذا الوقت من السنة، مثلها مـــثل كـــل الرعاة المنتشرين في سفوح الجبال. إذ تشوي مع رفيقتها أعذاق الذرة أو البطاطس. وتأكلان الحماط من الأشجار المتناثرة على امـــتداد الوادي. أشجار مثمرة وكثيرة لم يزرعها أحد فكانت مشاعاً للجمـــيع. تقطفـــان ثمر البرشوم بطريقة محترفة تعلّمتاها ككل من في القـــرية مـــتفاديات وخز أشواكه. وتتجرأ إحداهما أحياناً على قطف الـــرمان والعنب والتفاح الأخضر الصغير وثمار الفركس[1] من البساتين المجاورة.

قالت هدباء فجأة:

- "أصه".. هناك من ينادي.

صـــمتت آمنة والتفتت إلى أعالي الجبال لكنها لم تسمع نداءً بل صـــوت مـــزمارِ أحد الرعاة على سفحٍ قريب، ربما يود ذلك الراعي إرســـال رسالة شفوية إلى حبيبته، يود إخبارها بلحنه الهادئ عن مكانه لعلها تلحق به. وما أكثر ما عزف الرعاة بمزاميرهم ألحاناً تنسكب بين الجـــبال كالحـــزن المعتَّق. إذ لا تخلو القمم من راعٍ هنا وعاشق هناك،

(1) الفركس: الدراق.

يجلسون تحت أشجار يتخللها الضباب طوال العام وعلى طرف فم كل واحـــد مـــنهم مـــزمار أجاد صنعه من "إم جراع"[1] ليرسل ألحانه في الفضاء فتستقبلها قلوب تغرد طرباً بما تسمعه.

عادت الطفلتان للعب، ثم تكرر إصرار هدباء على أنها تسمع نداءً فـــصمتتا مـــن جديد وأرسلتا النظر إلى أعالي الجبال المقابلة لهما، وإذا بأخوي آمنة الصغيرين، فاطمة وإبراهيم ينادياها. وبأعلى صوتها قالت لهما:

- ماذا تريدان؟

تردد بين الجبال الشاهقة رجع صدى الأصوات حين أجاباها:

- تقول ومي دعي إم غنم مع هدباء وتعالي بسرعة.

الـــتقطت آمنة طَفَشَتَها[2] من فوق العشب ووضعتها على رأسها برغم اختفاء الشمس خلف الغيوم ثم حملتْ لعبتها وراحت تركض نحو أخويها تاركةً خرافها المتناثرة على السفح في عهدة هدباء وكلبها الوفي "صميع".

اجـــتازت الـــوادي بالقفز فوق الصخور الكبيرة المتناثرة بالعرض كطـــريق مـــرتفع يقطـــع جـــريان الماء حيث لم يغطها السيل بسبب ضخامتها. والقفز فوق الصخور هي عادة أهل القرى في اجتياز الأودية إذا لم تكن السيول قوية.

صـــعدت آمنة الجبل من ذات الطريق التي اعتاد الناس السير فيها حـــيث تـــتلوى طـــرقات ضيقة على الجبال لأنهم يتخذون دائما أقل الأماكن خطورة ووعورة طريقاً لهم للصعود وللهبوط، ويقلد الأطفال أهاليهم في ذلك.

---

(1) الجراع: نبات مجوف الساق يشبه سنابل الذرة لكنه أكبر وأقسى.

(2) الطفشة: قبّعة كبيرة يرتديها الناس لتحميهم ما أمكن من الأمطار أو الشمس.

سارت الطفلة آمنة بوثبات سريعة إلى أن نزلت من الجهة الأخرى، ثم هرولت هي والصغيران فاطمة وإبراهيم بعد ذلك على تلال عديدة وطرقات متعرجة بين حقول شاسعة لم يبدد الخريفُ كل اخضرارها برغم أنه يشارف على الانتهاء. مرّت بكل النساء والرجال الذين يعملون في حقولهم ويرددون أغنياتهم الشعبية الرقيقة، فالغناء في الحقول وسيلتهم لمقاومة التعب المتواصل وطول الوقت. سلمتْ على هذا ولوحت بيدها لذاك، إلى أن وصلت إلى منزلها.

لم تكترث لوجود سيارتين أمام المنزل برغم ندرة السيارات في القرية. أدركت أن في منزل والديها ضيوفاً.. ولكن الأمر لا يعني لها شيئاً. صعدت إلى الطابق الثاني. والدتها في (إم ملْهَب)[1] تعد طعاماً للضيوف حيث يشتعل الحطب في عدد من الميافي[2] وبعض نساء القرية معها يساعدنها ويتجاذبن أطراف حديثٍ يبدو أن فيه شيء من الحدة. سمعت آمنة إحداهن تقول بألم:

- لم تزل صغيرة ولن تسكن بقربكم. لِمَ تفعلون بها هذا؟

ردتْ سعدى والدة آمنة:

- ستكبر في بيت زوجها، هذا خير لها. ثم إن صالح لا يُرد. إنه رجل مناسب.

كانت أكثر النساء الحاضرات استياءً وثرثرة في أمر هذا الزواج هي غالية أخت سعدى التي ترى أن ابنة أختها لا زالت دون سن الزواج.

---

(1) إم ملهب: المطبخ.

(2) الميفا: تنور كالعامود المجوف مصنوع من الفخار طوله متر تقريباً وقطره ربما أقل من المتر. يوضع بداخله الحطب وتوقد فيه النار إلى أن يصير الحطب جمراً ثم يخبز في داخله البر والذرة والشعير على شكل أقراص طويلة. وعلى فوهته توضع القدور لطهو الطعام وغلي الماء. وعادة يكون في الملهب الواحد عدد من الميافي.

فهمـــت آمـــنة الواقفة بالقرب من باب الملهب أن هناك عُرس.. لكـــنها لا تعلم بعد مَن هي العروس مِن بنات القرية. حدثت نفسها: "لماذا يجلسون هكذا؟ لماذا لا يوجد شعراء وطبول ورقص في وطننا!؟".

تعلـــم آمنة أن الناس في الأعراس يجتمعون ليتحول النهار إلى عيد وتتشابك الأيدي ويتمايل الجميع في انسجام مع ألحانهم العذبة.

ولأن الجميع في قرية "آل وادح" قد تعلموا كيف يفرحون وكيف يغـــنون ويمـــرحون فقـــد اضـــمحلت قدرتهم على الأذى، لم يعد في مقـــدورهم ابتداع طرائق مبتكرة لإيلام أحد. بل وليس في مقدورهم تذكر ما اعتاد الإنسان فعله لكي يؤلم آخرين. إلا هذه المرة.. هذه المرة فقط لم يقف أحد للتصدي لأيامٍ قادمة ستحزن فيها الصغيرة آمنة.

جاء والدها يحيى ليلقي التحية على النساء المتجمعات حول زوجته في "إم ملـــهب" يساعدنها في طهو الطعام. وقفت غالية من بين النسوة واقتربت من يحيى زوج أختها سعدى تسلم عليه وتعاتبه. قبَّل يحيى رأس غالـــية وقبَّلتْ رأسه كما هي عادة السلام بين الأرحام والأقارب، و لم يرد على عتابها وغضبها إلا بقوله:

- الله يكتب لها خير يا غالية.

نظـــر إلى ابنـــته الواقفة بالباب دون أن يقول شيئاً. خاف من أن يكتـــشف كـــم لا تـــزال طفلته طفلة إن هو تحدث معها أو عنها مع خالـــتها.. لـــذا مـــضى بسرعة. وظلت آمنة تنظر إلى القدور الممتلئة بالطعام، وإلى النساء المعاتبات، وإلى خالتها الغاضبة حتى انتبهت والدتها إلى وجودها.

- أنتِ هنا يا ابنتي؟

اتجهـــت سعدى إلى ابنتها وأخذتها بصمتٍ إلى الحجرة المجاورة. أخرجت ثياباً ناولتها إياها قائلة لها:

- اغتسلي ثم البسي هذه بسرعة.

ابتـــسمت آمنة بسعادة طفولية لأنها ستحصل على ثياب جديدة. لـــيس هذا وحسب لكنها ثياب مختلفة في شكلها عن الثوب العسيري المطرز الذي اعتادت النساء على لبسه. الثوب الذي يستغرق شهراً أو عـــدة أشـــهرٍ في بعض الأحيان لكي ينتهي منه الحائك. والحائك هو الـــرجل الـــذي يتقن حياكة الثياب النسائية وتطريزها، فالحياكة مهنة للـــرجال في ذلك الوقت، وليست للنساء. وشيئاً فشيئاً دخلت أشكال مختلفة للثياب النسائية إلى القرية. ومن ضمنها ما قدمته سعدى لطفلتها آمنة.

ألقـــت الطفلـــة بلعبتها على الأرض وتناولت الثوب بفرح جعل عينيها ترمشان بسرعة متزايدة وفمها مفتوح أكثر مما يتطلبه الكلام.. ثم قالت:

- ثـــوب جديـــد! لي أنا! ليس ثوباً عسيرياً يا أمي.. إنها "كُرته"[1]، تماماً كتا[2] عند صفية. من أين جئتِ بها؟

لم تجبها أمها على السؤال لكنها كررت أمرها لابنتها بأن تذهب لتـــستحم. هـــرولت آمنة إلى المغتسل ولم يكن سوى زاوية ضيقة في الطابـــق الـــثالث من البيت، عُلِّقَ على بابها بطانية قديمة لتكون ستارةً تحجب من يستحم. إذ إن عادات الاستحمام قد غدت ضمن عقيدتهم مـــنذ أزمـــنة سحيقة. فلا صلاة ولا صوم إلا بعد الاغتسال من الجنابة والحـــيض. يـــضاف إلى هذا وجوب تعهد الناس - نساءً ورجالاً - لأجسادهم بالاغتسال كل أسبوع لأداء صلاة الجمعة. لذا كان في كل

---

(1) الكرتة: فستان.

(2) كـــتا: كالتي - تا تعني التي وذا تعني الذي. وسيرد استخدامها في الحوار بين سكان آل وادح.

بـــيت مـــن بيوت آل وادح مغتسل للاستحمام، و لم يستثنَ من ذلك منــــزل الطفلة آمنة.

حــــين اغتسلت الصغيرة خرج الماء من مِيزاب يصبُ خلف المنــــزل في أرض مملــــوءة بالأعــــشاب والشجيرات الصغيرة وإلى جوار الشجيرات تــــضع والـــــدة آمنة حطبها عندما تحتطب. إذ من عادة نساء "إم وطن" أن ترتب كل امرأة منهن ما تجمعه من حطب في حِزَمٍ كثيرة وكبيرة، متناسقة بجـــوار المنــــزل وليس في داخله. وتأخذ منه كل يوم بقدر حاجتها. فإذا شارف الحطب على الانتهاء حملت المرأة فأسها وحبلها واتجهت إلى حيث الغابــــات تحتطب وتعود وعلى ظهرها حزمة يتجاوز وزنها قدرة شاب من سكان المدن على حملها حتى وإن كان معافى البدن.

خرجت آمنة من المغتسل بثوبها البرَّاق الجديد وقد استحمَّت بالماء الـــساخن وأوراق الـــسدر الجافة المطحونة. خرجت والماء يتقاطر من شــــعرها المتناثر. نــــزلت على درج البيت من الدور الثالث إلى الثاني دون أن يخبرها أحد بأنها تستعد للنــــزول إلى غياهب التعاسة. ووالدتها في انــــتظارها ومعها حلي الفضة والمشط وأعشاب عطرية توضع على الشعر عند تمشيطه.

- اسمعي يا آمنة.. كل بنات إم وطن أعرسن و لم يبقَ إلا أنت وهدباء وصالحة وموزة وغامية وعطرة، صحيح كلهن أكبر منش[1]، لكن كل فتاة سوف تعرس.

ردت آمنة ببراءة:

- وثريا إبرة[2] عمي غازي. وكثيرات لم يعرسن يا أمي.

---

(1) مــنش: مــنك. وحرف الشين في اللهجة العسيرية يحل محل كاف الخطاب للمؤنث فقط. وتبقى كاف الخطاب للمذكر كما هي.

(2) إبر وإبرة في اللهجة العسيرية تعني ابن وابنة.

- نعـــم وثريا إبرة عمش وغيرها. لكني أقصد إم قريبات من عمرش ويلعبن معش. كلهن سيتزوجن يوماً ما. وكما قلت لش كل فتاة ستتزوج.

باندفاع وعفوية قالت الطفلة لأمها:

- أنا أريد أن أتزوج أحمد إبر أبـــي موسى.

غرست الأم المشط في شعر ابنتها المبتل وسألتها بحزم:

- متى رأيت أحمد إبر موسى؟ ومن قال إنش ستتزوجينه؟

أدركت الطفلة أنها أخطأت بالحديث عن أحمد فقالت بارتباك:

- رأيـــته ذا اليوم في إم جرين[1]. أحمد لم يقل شيئاً والله. فقط يبتسم عندما يراني، أنا أمزح يا أمي.. أنا أمزح.

وقـــبل أن تـــسمع جواباً من والدها دخل يحيى والد آمنة عليهما ليـــستعجل زوجـــته في تجهيز الصغيرة والطعام لأن العريس ينوي أخذ زوجته والرحيل بعد الغداء مباشرة.

نظرت إليه سعدى و لم تتكلم ففهم يحيى نظرات الغضب في عينيها إذ إنها كانت تريد عرساً لابنتها كأعراس بنات أهل القرية حيث يرقص الجمـــيع ويتمايلون في صفوف متقابلة كعادتهم في المناسبات، وهذا ما جعلـــها تـــنوي الدخول على الضيوف محتجةً على رغبتهم في زواجٍ صامت لولا رجاء زوجها لها بأن لا تفعل فقد وافق وانتهى الأمر.

برر والد آمنة لزوجته الموقف قائلاً:

- يـــا ســـعدى إم رجل "مطوع" وكان شرطه ألا يسمع طبولاً ولا شعراء ولا قصائد غزل. هو لا يريد في عرسه شيئاً من هذا.

---

(1) إم جـــرين: البيدر. وهو مكان دوس السنابل لاستخلاص الحبوب منها. ثم يُعبأ الحب فـــي أكياس ليطحن على الرحى. أما السنابل الفارغة فهي الحثى الذي سيتحول إلى طعام للحيوانات.

كانت كلمة مطوع جديدة على قريتهم، سمعوها لأول مرة عندما عـــاد "عوضـــة إم خبل" إلى القرية يحمل الكثير من المفردات والأفكار الغـــريبة. ظلت الكلمة غير واضحة الدلالة إلى أن تكاثر إم "مطاوعة" فاتضح معناها لآل وادح لاحقاً.

قالت سعدى:

- لو أنك أخبرتني قبل أن نعقد له لما رضينا به.
- أترفضين ولد آل إبر محيي؟ أنسيتِ أن جده شيخ جليل؟
- أرفضه يا يحيى حتى لو أنه نـــزل من إم سماء ما دام يحوِّل إم عرس إلى عزاء في ميت.

صمت يحيى يفكر في أخويه اللذين يكبرانه (غازي وعلي) ويتذكر كيف أقنعاه بألا يرفض هذا الرجل فمصاهرته فرصة قد لا تتكرر، لأنه درس الدين الإسلامي في "أم جامعة". لا زالت كلمات غازي حاضرةً في ذهنه حين قال له:

- مـــن ممـــن نعرف درس إم دين في إم جامعة؟ كل الذين نعرفهم درسوا علوماً تنفعهم في دنياهم فقط. أما هذا الرجل فقد درس إم إسلام. زوِّجها يا أخي ولن تندم.

فقال يحيى:

- لكنها صغيرة يا أخي وأخاف عليها من إم غربة.

قال غازي:

- في الـــرياض كثير من جماعتنا. وكل من عاد منهم إلينا قال إن إم عيش فيها مريح. ثم إنها ستكون في رعاية رجل يعرف ربه ودرس ديـــنه فكـــيف تخاف عليها؟ ليته خطب ثريا ابنتي، والله لما كنت متردداً مثلك ولأتممت إم زواج بأسرع مما يريد هو.

فتساءل يحيى موجِّهاً حديثه إلى أخيه علي:

- ما رأيك يا علي. ألا تراها صغيرة؟

قال علي:

- في إم شهور إم قادمة ستصبح صبية. وستسعَد مع صالح. لا تنسَ أن له راتب، لقد تعسكر منذ سنين ودرس "إم إسلام" في "إم جامعة" فكيف تفوت على نفسك فرصة مصاهرة رجل كهذا بحجة أنها صغيرة.

كان علي كالصدى الذي يردد صوت غازي. وكان يحيى محتاراً لا يدري ما الفائدة التي ستحصل عليها طفلته من دراسة رجل سيتزوجها في مكانٍ لم يره ولا يعرف ما هو، يسمونه "إم جامعة". لكنه طاوعهما وهو غير راضٍ ولا رافض. ولولا غازي وعلي لرفض، واستبقى طفلته إلى أن تكبر قليلاً. لكن ها هي ترحل مع ذلك الرجل بعد صلاة العصر.

رفعت آمنة رأسها من فوق ركبتيها عندما أدار الرجل الذي يقود السيارة مؤشر المذياع يبحث عن إحدى المحطات. نظرتْ من النافذة وإذا بالمساء قد حل عليهما.

حلكة دامسة ورجل غريب يخيفها وجوده، ووحشة تعتصر روحها، ولا تعرف تفسيراً لكل ما يجري لها. لقد انتزعها هذا الرجل من قريتها كالإعصار الذي يقوى على نباتات طرية لم تتجذر في أرضها بما يكفي لتقاوم اجتثاثه.

ثبّتَ المؤشر على إذاعة الرياض. أنصتت معه إلى المذيع وهو يقول:

"... فقد وقفت المملكة العربية السعودية موقفاً مشرفاً، ليس بقطع إمدادات البترول عن الدول المؤيدة لإسرائيل وحسب إنما أيضاً بالمشاركة العسكرية للدول العربية التي دخلت حرباً مع العدو، إذ إن

جنودنا البواسل لا زالوا يقفون جنباً إلى جنب مع أشقائهم العرب مما أسهم كثيراً فيما تحققه تلك الجيوش مجتمعة من انتصارات. إن هذه الحرب الدائرة الآن، والتي سمِّيت بحرب العاشر من رمضان 1393 هـ/السادس من أكتوبر 1973م قد تضامن فيها الأشقاء ولقنوا العدوَ...".

لم تفهم آمنة شيئاً و لم تفكر حتى في معنى ما سمعته. أغلق الرجل المذياع وبدأ ينحرف عن الطريق الترابي الممهد ويدخل بين الأشجار على الجانب الأيمن للطريق وبعد أن توغل قليلاً في تلك المنطقة أوقف سيارته عند صخرة كبيرة، أطفأ الأنوار وأضاء المصباح الداخلي ليتمكن من الرؤية، بينما تتابعه آمنة بعينين حذرتين. فتح درج السيارة ليخرج منه مسدساً تأكد أولاً من حشوه بالرصاص ثم التفتَ إلى الطفلة التي تجمد الدم في عروقها ومسدسه لا يزال في يده وسألها:

- هل تريدين الخلاء؟

لم يكن يعلم أنها ولشدة الوجل قد بللتْ ثيابَها الجديدة وعباءَتها السوداء والمقعد الخلفي الذي تتكوم فوقه، و لم تنتظر إلى أن تنزل من السيارة لتقضي حاجتها. كاد الهلع أن يقتلها لولا أن هذا الرجل قد ابتعد. ابتعد لأنه لم يسمع إجابة. خرج من سيارته وأغلق عليها الباب ثم عاد بعد وقت قصير.

شعرت بالتعب من جلستها تلك كما بدأ النعاس يداعب جفنيها فتمددت مكانها وراحت تستعرض صوراً عديدة لكل ما في قريتها من بشر وشجر وبيوت وتلال وطرقات وآبار وينابيع وحقول وجبال ومواشي.

تذكرت أن بنات قريتها عندما يتحدثن عن شباب القرية أو شباب القرى المجاورة لا يذكرن الفتى باسمه الحقيقي بل يخترن له اسم

أحد الطيور، فصار لكل شاب أعزب لقب تطلقه عليه الصبية التي تحبه. ولا يعلم أحد من هو صاحب اللقب إلا صديقاتها المقربات. وبعضهن تشذ عن التسمية بالطيور كـ "تركية" التي فضلت أن تطلق على حبيبها لقب "تمر بيشة".

تضاحكت الفتيات عندما أخبرتهن تركية أن اسم حبيبها تمر بيشة وقالت لها صديقتها ثريا:

- كنتِ جائعة حين فكرتِ في اختيار اسم لصاحبش.

قالت تركية:

- بل كنتُ قد تذوقت خده وكان لذيذاً كتمرة نضجت على نخلة من نخيل بيشة.

أما الشباب فيختار الواحد منهم اسم زهرة أو شجرة ليسمي به حبيبته. وقد يشذ بعضهم أيضاً فلا يسمي حبيبته بأي اسم من أسماء الزهور أو الشجر كمهدي الذي أطلق على حبيبة تركية لقب (بَرَد إم مطر).

سألته يوماً عن سبب اختياره لهذا الاسم الذي لقّبها به فقال:

- لأني أفرح بلقائك كما يفرح أهل أرضنا بهطول إم مطر.. ولأني أراك نقية كمن يهبط من السماء.. عذبةً كعذوبة إم برد عندما نمسك به إذا سقط على أيدينا لنُذيبه في أفواهنا.

شذ مهدي واختار لقباً لحبيبته ليس من أسماء الزهور، وشذت هي إذ اختارت له لقباً ليس من أسماء الطيور. أما أغلب العشاق فألقابهم تدل على أنهم من تلك الأرض التي أحبوا زهورها وطيورها. ودائماً بين الطيور والزهور في الجبال العالية يكبر الحبُ بهدوء كانسياب الماء في الجداول الصغيرة ليتجمع في غدير واسع يتزايد فيه الماء كلما هطلت الأمطار أكثر، ثم يُتوج الحب غالباً بالزواج. ودائماً بين الأطفال من

يُوثق به ليحمل الأخبار ويبلغ عن مواعيد اللقاء. وكم كانت آمنة مرسالاً بين الحبيبين مهدي وتركية، تظل صامتةً إلى أن تنفرد بتركية ثم تخبرها أين يريد حبيبها أن يراها. ودائما يلتقيان حيث تنقل آمنة بينهما مواعيد الزمان والمكان.

قبَّل مهدي آمنة على خدها بامتنان بالغ عندما جاءته مهرولة لتأخذ منه بطاريات أحضرها لتركية وتخبره عن موعد ومكان اللقاء بينهما. ودائماً يشتري لحبيبته البطاريات لكي تستخدمها في تشغيل المذياع الخاص بها.

مهدي (أو تمر بيشة) كما تسمِّيه حبيبته لا يتردد في إحضار الأشياء الممكن إحضارها لتركية (أو بَرَد إم مطر) كما يحب أن يسميها حبيبها، فهو الذي اشترى لها المذياع منذ شهور عديدة، ثم صار يمدها بالبطاريات كلما احتاجت إلى ذلك. يأتي بها من أنها لتقضي جزءاً من الليل بين الإذاعات قبل أن تنام. على أن المذياع قد دخل كثيراً من بيوت القرى في الجنوب منذ زمن سابق وكثيرون غيرها يستمعون إلى إذاعات مختلفة.

لم يسألها أحد عن مذياعها لأن أحداً لم يره. فهي معهم في الحقول معظم وقتها ولا تنصت إلى المذياع إلا قبل نومها بساعة على الأكثر. ثم تخبئه بين فراشها الذي تطويه وتضعه في ركن الحجرة ولا تفرده من جديد إلا في الليل. وإذا مدت الفراش غطت مذياعها بالأغطية الكثيرة الكثيفة وأطفأت الفتيلة المشتعلة في مصباح صغير، ثم تنتظر إلى أن تتيقن من نوم أخواتها لتلصق أذنها مستمتعة بما تسمع.

أعطى مهدي آمنة البطاريات لتعطيها بدورها لتركية ثم قال لها:

- لا زلت صغيرة يا آمنة، هيَّا اكبري بسرعة ليتزوجش أحمد إبر أبـــي موسى. لقد أخبرني بأنه يحبش.

تلعثمت الكلمات في فم الطفلة التي لم تتجاوز بعد التاسعة من عمرها لكنها أخيراً نطقتها بوضوح برغم خجلها:

- قل لأحمد إني أنا أيضا أحبه.

تماماً كما يرسلها مهدي لتخبر حبيبته بما يريد طلبت آمنة من مهدي أن يخبر أحمد بجوابها على ما قال. هل صار لها حبيب؟ وصار مهدي رسولها إلى من تحب؟ هل كانت تعي ما قالته وتدرك معنى الحب.. أم أنها تتعلم الحب من تركية ومهدي وتود أن تطبق ما تعلمته؟

أسرعت آمنة بعد ذلك إلى صديقتها هدباء لتخبرها بالسِّرِ الجديد. هدباء التي ترافقها قبل شروق كل شمسٍ إلى سفوح الجبال خلف القرية مع أغنامهما وتعودان عند الغروب وقد عدّت كل واحدة غنمها وتأكدت من أن الذئب لم يأكل أياً منها برغم انشغالهما بالأحاديث والضحك وتسلق الأشجار. وهذا الانشغال باللعب مردّه إلى اعتمادهما على "صميع" كلب هدباء الأمين. ذلك الكلب قادر على مراقبة القطيع وحراسته من الذئاب، وقبل الغروب يركض في الوادي وفي السفوح وينبح هنا وهناك إلى أن يجمع الأغنام ثم يسير بينها في الطريق إلى القرية.

قالت هدباء محذرةً صديقتها بعد ثرثرتهما عن أحمد إبر أبـــي موسى ذلك الفتى العاشق الذي باح بسره لمهدى:

- لا تسمحي لأحمد بأن يختلي بش مهما حاول ذلك.

تساءلت آمنة بعد أن استعرضت في خيالها صورة تركية ومهدي حيث يختليان ولا يعلم أحد إلا بعض الصديقات:

- ولَمْهْ..؟

قالت هدباء:

- ومِّي أطلعتني على سر. تقول ومي إن بين فخذي كل رجل عَظاية تهجم على من تقترب كثيراً من إم رجل ثم تندس بين فخذيها وتعضها إلى أن تسيل منها إم دماء.

ارتعبت آمنة، وتساءلت:

- مهدي يقترب مني دائماً. لقد قبَّلني أمس و لم ينطلق منه شيء.

شعرت هدباء بخبرتها وسعة معلوماتها حين قالت:

- يا خَبَلة.. مهدي يراش[1] أخته إم صغيرة، وإم عَظايا لا تنطلق على إم أخوات أو من في مقامهن.
- وتركية! هل انطلقت عظاية من بين رجلي مهدي عليها وعضتها؟
- لا أدري.. علينا أن نسألها حين نراها.

وصلت كل فتاة إلى بيت أهلها. وبدأت آمنة في إدخال خرافها إلى "إم سفلي"[2]. عدّتها واحداً تلو آخر أثناء تدافعها إلى الداخل.. وحين وصلت إلى النعجة السابعة قالت: "سمحة" بدلاً من سبعة كما تعلمت من أهل قريتها حيث يتجنب الناس نطق هذا الرقم الذي يعني "عصبة من الجن" ربما يحضرون إن نطق أحدهم الرقم الخاص بهم.

"سبعة" يقولها المنــــزعج لمن أزعجه كي يحضر فريق الجن ويأخذون المزعج بعيداً. صاروا يقولون: "سبعة" فقط دون إكمال الجملة إن أرادوا شتم أحدهم. فنطق الرقم دون المزيد من الكلمات كفيل في ظنهم بإلحاق الأذى به. أما أثناء عد الأغنام أو أي شيء يعدونه فإن "سمحة" هي الكلمة المناسبة.

---

(1) يراش: يراك أخته الصغيرة.

(2) يخـــصص الطابـــق الأرضـــي (الطابـــق السفلي) من البيوت في قرى الجنوب (في الماضي) للمواشي وله باب مستقل يكون عادة من الجهة الخلفية أو الجانبية للبيت.

أنهت آمنة عد أغنامها وأغلقت باب "إم سفلي"، ثم أسرعت إلى والدتها تسألها بتردد:

- ومّاه.. هل عند إم صبيان شيء بين أرجلهم يعض إم صبايا؟

خافت الأم على ابنتها من أن تكون قد رأت أحدهم متجرداً من ثيابه أو تعرضت لشيء آذاها فسألتها حازمة:

- أخبريني بما حدث...؟

ارتبكت آمنة لكنها مضطرة للإجابة وقد بدأت الحديث:

- هدباء تقول إن ومّها أخبرتها بألا نقترب من إم صبيان لأن لدى كل صبـــي عَظاية تؤذينا.

ارتاحت سعدى أم آمنة إلى ما قالته ابنتها ونوت في أعماقها أن تشكر جارتها وصديقتها أم هدباء على هذه الفكرة التي تنفع لجعل الصغيرات أكثر حرصاً على أنفسهن إلى أن يذهبن إلى بيوت أزواجهن. قبلت الأم ابنتها وهي تقول:

- ومّ هدباء صادقة.. لكن إن ظلت إم صبية بعيدة عن إم صبيان فلن يصيبها مكروه.

- وماذا إذا مر إم صبـــي في طريقٍ أنا فيه يا ومًّا. هل أهرب؟

- لا تهربـــي.. لكن لا تسمحي له أن يلمسش. ردي عليه إم سلام وتابعي طريقش. "إم مَرَة تقع مرة" يا ابنتي. وتحرص على نفسها. والتي تفرط في ذاتها ستكون وضيعة وإن عرف إم عرب[1] بأمرها فسيعاقبها الشرع أو يقتلها أبوها.

تعلمت الطفلة ماذا عليها أن تفعل ووعت أن معنى "إم مَرَة تقع مرة" هو أن على المرأة أن تكون امرأة حقيقية، ذات صلابة وثقة بالنفس تجعلها قادرة على البعد عن الخطأ والخطيئة أينما كانت، فيكون

(1) تُستخدم كلمة إم عرب بمعنى الناس.

لها رقيباً عليها من داخل ذاتها وليس أحداً غيرها. ومع هذا ظلت الصغيرة تلح في الأسئلة.

- ومّاه.. هل أهرب أيضاً من إم رجال الذين أصبحوا رجالاً وليسوا صبياناً.
- لا تهربــي من أحد أبداً. لا أحد ينوي بش إلا كل خير. لكن كلامي لش تحسباً فقط. كوني حذرة إذا كنتِ لحالش[1] واقترب فتىً وأنتِ في إم مراعي. أما إم رجال فكلهم في مقام أبوش. ألسنا نادي إم كبار دوماً بقولنا "أبــي فلان".
- نعم يا ومًّا. كل رجال وطننا في مقام أبــي. وكل نسوة وطننا في مقامش.

فاجأها صوت الرجل الذي يقود سيارته وأعادها من حضن أمها في القرية إلى الطريق الموحش حين قال لها:

- اجلسي على المقعد وغطي وجهك جيداً، أمامنا نقطة تفتيش.

وضعت آمنة العباءة السوداء على وجهها من جديد كيفما اتفق فهي لا تعلم بعد كيف تلبسها، وشعرت بأنها تختنق.

هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها عباءةً في حياتها. كل نساء القرية والقرى المجاورة لقريتها التي رأتهن حتى الآن لا يرتدينها على الإطلاق ولا يغطين وجوههن. بل لا يعلمن حتى عن وجود عباءات للنساء. كلهن يخرجن من المنازل متى أردن ذلك سافرات، ولا يضعن فوق ثيابهن المطرزة بالألوان الزاهية شيئاً يخفيها.

أوقف صالح سيارته أمام رجل المرور وتمنّت آمنة أن تصرخ وتستنجد به لأنه أول إنسان تراه بعد مغادرتها القرية. أن تقول له إنها مع هذا الرجل لأنه خطفها من بين أغنامها. أن تكون صادقة أكثر

(1) لحالش: وحدك.

وتخبره بأن أهلها كانوا ينظرون إليها حين أخذها، بل هم من شيَّعوها إلى سيارته ليأخذها معه. وبينما هي غارقة في ترددها وخوفها كان رجل المرور قد رأى الأوراق الثبوتية ثم انطلق صالح من جديد متجهاً نحو الشرق لتعبر سيارته كل تلك الصحارى الشاسعة وتصل بآمنة إلى الرياض.

أثناء الرحلة التي استغرقت يوماً كاملاً بنهاره الحار الصامت وليله الموحش المفزع كانت آمنة تغفو وتصحو وتأكل أحياناً بعض ما يناولها هذا الرجل من خبز وماء وبعض العسل والجبن بالإضافة إلى أنواع لا تعرفها من الأطعمة كالبسكويت والعصيرات المعلبة.

وافقت على النـــزول إلى الخلاء حين أوقف صالح السيارة على جانب الطريق لبعض الوقت وأدركت أنه لا ينوي بها شراً حين يحمل مسدسه بل يريد أن يحتمي به من أشرارٍ لا تعلم أين هم.

تعتقد آمنة أن هذا المكان الذي يقطعانه لن ينتهي أبداً وسيستمران عمرها كله يسيران ولا يصلان إلى شيء. كانت تغمض عينيها إلى أن تغفو ثم تصحو لتجد أن الصحراء تتوسع كل ثانية وتضيف إلى مساحتها الشاسعة مساحات أخرى تبعدها عن أهلها في القرية. لا أحد هنا سواهما، لا بشر ولا شجر ولا طيور ولا حتى سباع في هذا الطريق الموحش الممتد كأفعى سوداء فوق رمالٍ ذهبية. فقط شمس حارة وقفرٌ بلا نهاية.

صار اهتزاز السيارة المتواصل والرتيب على الطريق الطويل سبباً في شعور آمنة بالخدر والنعاس. وما بين اليقظة والنوم رأت كثيراً من الصور التي اعتادت عليها في قريتها. تذكرتْ تلك الليلة التي غاب فيها القمر والتقى الحبيبان تركية ومهدي بعد صلاة المغرب. لقد رتبت لهما اللقاء منذ الصباح، وفي المساء تسللتْ خلف تركية بهدوء برغم تأنيب

تركية لها بصوت هامس ورجائها المتواصل بأن لا تصحبها مؤكدة لها أن مهدي يريد أن يخبرها سراً لا يود أن يعرفه أحد.

قالت آمنة:

- أي سر.. أنا أعرف كل ما بينكما لكثرة ما أنقل لكل واحد منكما أخبار الآخر.

تذمرت تركية من هذه الصغيرة اللجوجة وسارت في طريقها حيث ينتظرها حبيبها. استمرت الفتاتان تمشيان في الظلام وحين وصلتا "قبر إم خاين" هرولتا مبتعدتين هلعاً كعادة كل من مرَّ بالقرب من هذا المكان. و لم يكن "قبر إم خاين" هذا سوى صخرة كبيرة. سماها الناس بهذا الاسم لأن الروايات القديمة تقول إن رجلاً فيما مضى من الزمان كان جالساً أسفل الجبل حين تحركت الصخرة الكبيرة من أعلاه و لم يسمع صوت تدحرجها السريع لأن الله أفقده سمعه في تلك اللحظة، وأفقد قدميه القدرة على السير ليظل جالساً مكانه إلى أن هوت على صدره وهشمت ضلوعه فمات في حينه. وكان هذا هو انتقام السماء منه لأنه غرر بفتاة بلهاء ليس لها أهل، ويشفق عليها كل الناس.

انتبه أهل القرية إلى بطن تلك المسكينة البلهاء وقد تكور أمامها فسألوها عمن جرّدها من ثيابها، و لم تتردد في إخبارهم بأن ذاك الرجل يأخذها إلى بيته ليعطيها خبزاً مدهوناً بالعسل مقابل أن تمكنه من جسدها. أنكر الرجل كلامها وعاتب أهل قريته على تصديق فتاة مجنونة وتكذيبه، فطلبوا منه أن يضع يده على المصحف ليحلف بالله أنه صادق. وافق دون تردد وأقسم على كتاب الله أمامهم بأنه لم يدخلها بيته و لم يقترب منها في أي مكان.

خرج الرجل بعد ذلك إلى أطراف القرية مبتعداً عن الجميع وجلس أسفل الجبل وحيداً، فهوت الصخرة الكبيرة متدحرجةً من

الأعلى وسقطت على صدره فقتلته. و لم يعلم أحد بما حصل له إلا بعد أيام، حيث لاحظوا تجمع الطيور الجارحة في السماء فوق تلك الناحية. أسرع الناس إليه يحاولون تحريك الصخرة لكي يكفنوه ويصلوا عليه ويقبروه في (إم مجنَّة)[1]. لكن الله أراد أن يجعله عبرة لكل من رآه أو سمع بقصته حيث كانت الطير تهوي وتلتقط منه عيناً أو أذناً أو خداً إلى أن أصبح وجهه دماءً بلا لحم. وأكملت السباع ما بقي منه حتى صارت أطراف جسده التي لم تغطها الصخرة عظاماً في فم نمر هنا وذئب هناك. وهكذا نـــزلت العقوبة بمن خان الأمانة، وصار اسم تلك الصخرة الضخمة "قبر إم خاين".

تلك الرواية لم يعاصرها أحد، و لم يتساءلوا يوماً ما إذا كانت قد حدثت فعلاً أم أنها مختلقة. إنهم يسمعونها من بعضهم البعض، يحكيها الآباء للأبناء جيل بعد آخر منذ عهود بعيدة ليدرك الجميع أن الأمانة واجبة وأن الله بالمرصاد لكل من خان، ثم يتلون الآية التي ذكر القرآن الكريم فيها بأن الله عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، أما الإنسان فقد قبل حملها وعليه أن يحافظ عليها. وهكذا صار المرور بالقرب من تلك الصخرة مخيفاً ويحرص الناس هناك على الإسراع في السير.

وصلت آمنة وتركية إلى الأشجار التي تلي الصخرة وقبل أن تقولا شيئاً كان مهدي يتساءل بصوت خافت:

- ماذا أتى بش يا آمنة؟ عودي قبل أن تكتشف ومِّش غيابش.

---

(1) إم مجـــنّة: المقبـــرة. هكذا كان اسمها. وسميت بهذا الاسم اشتقاقاً من الجنة لأن من يُقبر فيها سيكون ممن آمنوا بالله وحده وبالتالي فهو من أهل الجنة. كان هذا التفكير قبل أن تُملأ عقولهم بالترهيب فيصبح الخوف أكبر من الرجاء والنار أولى بخلق الله من الجنة.

هزت الصغيرة رأسها وابتعدت مستاءة. تركتهما آمنة ومشت في طريقها إلى منـــزلها. وبقي الحبيبان هادئين يلفهما الظلام وتتواطأ معهما السحب فتخفي ضوء القمر الشحيح خلفها كي يزدادا اطمئناناً. تلتصق تركية بحبيبها وتدفن وجهها في صدره متظاهرةً بأن شعورها بالبرد هو سبب اقترابها منه. يضحك مهدي من تبريراتها المكشوفة ويهمس بالقرب من أذنيها:

- نحمد الله أن جبالنا باردة في إم شتاء وإم صيف.

هما لا يلتقيان بشكل يومي كباقي العشاق. وقد يمر أسبوع كامل أو أكثر قبل أن يرى أحدهما الآخر، إذ إن مهدي من قرية مجاورة وليس من آل وادح. جاء ذات ضحىً من ضمن وفد يزيد على عشرين رجلاً. كلهم أتوا لكي "يتروّحوا"[1] عروساً من بنات آل وادح تزوجها أحد أقربائه.

أُطلقت الأعيرة النارية في الهواء ورقص رجال آل وادح بـــ "جنبياتهم" وبنادقهم في "عرضة"[2] جميلة ابتهاجاً بمقدم الضيوف. وبعد الاستقبال الحافل شارك الضيوفُ مضيفيهم في لعب "إم خطوة" إلى أن حان موعد الغداء.

من عادات القرى أن يأتي مع العريس القادم من قرية أخرى عدد من الرجال قد يصل إلى العشرين أو أكثر. لذا على أهلٍ القرية أن يتقاسموا الضيوف فيما بينهم. وأن ينـــزل كل أربعة أو خمسة رجال في بيت، ليتعاون الجميع على إكرام ضيوفهم ما دام عددهم كبيراً.

---

(1) يتـــروحون في اللهجة العسيرية: يأتي العريس وأهله وجماعته لكي يأخذوا العروس معهم إلى قريتهم حيث بيتها الجديد.

(2) العرضة والخطوة: رقصات الشعبية جنوبية.

كان مهدي مع المجموعة التي دخلت منـــزل "محمد إبر علي" والد تركية، لتناول طعام الغداء يوم العرس. و لم تكن تركية حينها إلا مراهقةً في الرابعة عشرة، ينضح جسدها أنوثة فياضة.. أما هو فكان فتيّاً في الثامنة عشرة. تبدو عليه وفرة العافية. ليس مزهواً بنفسه برغم ما كان عليه من وسامة وقوة، قوة تجعل من يراه يتصور أن عظامه العريضة صُبَّتْ من الفولاذ.

رنتْ إليه تركية بعينين رحبتين هادئتين عند دخوله منـــزل والديها مع الداخلين، ثم كررت النظر لكن بشيء من التحديق. كانت مبهوتةً به، مشدودة إليه. وتمكنت عيناه من احتضان نظرتها لتتسرب إلى روحه حين تسمرت الفتاة أمامه في ذهول. هل كانت تلك الدهشة التي أصابتها هي الانفعال الذي يسبق الحب؟ لقد سكبت من بين أهدابها شيئاً من روحها في أعماقه. وأغمض مهدي عينيه لحظات ليستبقي ما صدر عن عينيها إليه. لكيلا يخرج منه. أراد أن تبقى تلك النظرة فيه، أن تتغلغل إلى سويداء قلبه. وقد كان له ما أراد. وكأنما غُمر في حلم. إذ ها هو بين الحاضرين تتراقص جوانحه وتبتسم شفتاه ولا يدري أحد بخلجاته.

الجميع منشغلون بالتراحيب والسلام على بعضهم. أما تركية فقد تاهت دلالاً وهي تشعر باقتحامها قلبه متسللةً عبر عينيه. تركته واقفاً أمام مجلس الضيوف واستدارت تمشي متأودةً إلى حجرتها.

في تلك اللحظة لم تكن تعرف عنه شيئاً، إنها تجهله تماماً. ما تعرفه وعلى يقينٍ تام منه هو أنها تتمنى أن تتحدث إليه، أن تسأله عن اسمه على الأقل. أما هو فخمَّن بأنها لا بد ابنة صاحب الدار التي دخلها الآن مع عدد من رجال قريته. وخمَّن أيضاً أن هذه الحجرة التي دخلتها ربما تكون هي ذات الحجرة التي تنام فيها.

في القرية لا يرى الناس أن الحب قرار تتخذه الصبايا والصبيان ليصبحوا عشاقاً. بل يؤمنون بأنه قدَرٌ كُتب في السماوات، ينتقي لكل صبية رجلها المناسب ويرمي به في طريقها ثم يضرم بينهما نار العشق لتحميهما من صقيع الشتاء وضجر الأيام الرتيبة. الحب في أعرافهم ليس مجرد علاقة طارئة أو اندفاع تأججه الغرائز، الحب هو رحلة الحياة كما كُتبت لهم. يؤمنون بأنه إن أصابهم لم يكن ليخطئهم، وإن أخطأهم لم يكن ليصيبهم. ذلك الإيمان هو ما دعا تركية إلى التفكير ملياً في معنى نظرات هذا الفتى المتوهج إشراقاً وتبسماً.

في صباح ذلك اليوم كانت تركية تنتظر قدرها دون أن تدرك مالذي تنتظر. شعور غريب يلفها، تفاؤل وترقب وأمل يجعلها تشعر كأن شموساً كثيرة أشرقت بالقرب منها وملأت حجرتها ضياءً أخّاذا. وشيء في أعماقها يأمرها أن تتهيأ أكثر مما تفعل كل مرة تذهب فيها إلى عرس أو مناسبة اجتماعية. لذا كانت قبل أن يأتي الضيوف قد استحمت وارتدت أفخر ثيابها، ثم مررت مرود الكحل بين جفنيها عدة مرات، وهصرت بتيلات زهرةٍ حمراء بأصابعها ثم مسحت بها خديها وشفتيها. فأضاف اللون الأحمر الزاهي إلى نضارتها توردا يضج حيوية وجمالا. جمعت بعد ذلك أغصانا صغيرة من الريحان والبرك، ومشطت شعرها ثم رتبت الأغصان بين ضفائرها كعادة العسيريات في تمشيط شعورهن. لكنها بالغت في عدد الأغصان الصغيرة التي بين شعرها والتي تُسمى "مكعس". ثم رشت على منديلها وعنقها بعض قطرات من "طيب"[1] تعلمت من جداتها كيف تصنعه بنفسها من بعض أنواع الزهور وبعض أوراق الشجر. رتّبت أدوات زينتها في صندوقها الصغير المصنوع من الخصف والمخصص لحفظ أدوات النساء، وجلست بعد

(1) يُسمي الناسُ في ذلك الوقت العطر طيباً.

ذلك تتأمل ذاها في مرآها الصغيرة. وتسأل صديقاها اللواتي اعتنين أيضاً بزينتهن استعداداً لحضور العرس في بيت أهل العروس:

- كيف يبدو مُكْعَسي[1]؟

تضاحكن من سؤالها، وكثُرت تعليقاتهن عليها. قلن لها:

- لست أنتِ إم عروس يا تركية فلا قمبينها ضيعة[2].

خرجت الفتيات من عند تركية إلى بيوتهن قبل الذهاب إلى بيت العروس ليساعدن أمهاتهن في تقديم الطعام للضيوف الذين ملأوا بيوت القرية، وبقيت تركية تتهيأ للخروج وتستكمل زينتها.

تساءلت في اللحظات التي أعقبت لقاء نظرها بنظرة ذلك الشاب الذي رأته قبل قليل: "لماذا جاء إلى منـــزلنا تحديداً؟ لماذا لم يكن مع مجموعةٍ أخرى في بيتٍ آخر؟ ربما هو القدر، رسم لي أمراً لا أتبينه حتى الآن".

بعد تلك اللحظات القليلة التي التقت نظراهما، تَركتْهُ تُركية أمام باب المجلس الذي همَّ بدخوله مع الداخلين لولا نظرها، وقد ظن الجميع به خيراً إذ إن تأخره عن دخول المجلس يعني عدم مزاحمة الأكبر سناً في دخولهم وهذا ما ينتظره الكبار دوماً ممن يصغرونهم. سمع هذا الشاب تعليقات الكبار حوله وثناءهم عليه لأن تهذيبه الشديد جعله واقفاً إلى أن دخلوا كلهم.

جميلٌ حسن الظن هذا. أعطاه ثوانٍ عديدة يتأمل خلالها بهاء هذه الفاتنة دون أن ينتبه أحد.

---

(1) المكعـــس: هـــو ما تضعه المرأة على رأسها من أغصان الريحان وغيره ثم يُغطى بالمـــنديل الأصفر والشيلة لكي تكون رائحتها عَطِرة ولكي يكون شكل الرأس مرتفع الهامة كاللواتي يقمن بعمل الشعر شنيون في الوقت الحاضر.

(2) يهبها ضيعة: أي يبالغ في أمرٍ ما.

دخلت تركية غرفتها المقابلة للمجلس وهو واقف في مكانه يتأملها. هل اجتاحه إعصار العشق فجأة؟ ما أكثر الجميلات في قريته وفي قرىً كثيرة حوله. فلماذا لم يأبه لأيهن من قبل؟ لمَ تغلغلتْ فيه نظرات هذه الفتاة بالذات؟ لن يقف أكثر.. لذا دخل مضطراً مع الرجال. وبعد أن صار مع أقربائه في المجلس عادت تركية إلى والدتها التي تناديها لتعاونها في إعداد طعامٍ هؤلاء الضيوف.

قدمت يد العون لوالدتها وهي شاردة الذهن باسمة الثغر، ثم اتجهت إلى منـــزل العروس حيث تتجمع نسوة القرية لينافسن الطيور عند تغريدهن بقصائد الحب الرقيقة. متمايلات كالسنابل، متشابكات الأيدي أثناء رقصاتهن الجماعية إلى أن تغادرهن العروس مع زوجها والوفد القادم معه.

في صباح العرس كانت آمنة مجرد طفلة لم تكمل الثامنة بعد، تلعب مع هدباء بين البيوت وتدخل هنا وهناك. وحين خرج الرجال في صحبة العريس وزوجته قبل صلاة العصر بقليل عائدين إلى قريتهم، ربَّتَ مهدي على رأس آمنة، وتمهل في خطواته ليتجاوزه الآخرون إلى أن استطاع أن يسألها عن اسمها، ولم يدرِ كيف يصوغ السؤال عن اسم تلك التي يريد أن يعرف من هي.

- أين بيتكم يا آمنة؟

أشارت بيدها:

- هناك.

- عندش أخت أكبر منش؟

أصدرت آمنة صوتاً مبللاً يخرج برفع اللسان والضغط به على الأضراس العليا في إحدى الجهتين. ذلك الصوت الذي يعني عند أهل قريتها كلهم الموافقة على ما يُقال.

اضطر مهدي إلى السؤال من جديد طالما أن هذه الصغيرة لا تثرثر من تلقاء نفسها.

- إم صبية إم تحيفة تا[1] كانت هِم بيت وختش؟

وأشار بيده إلى بيت تركية. فقالت آمنة:

- لا.. وختي إم صغيرة مع ومي. و.. وختي إم كبيرة "عَسَلَة" في بيتها مع عوالها وبعلها.

مهدي مضطر لإسراع الخطى ليلحق بجماعته العائدين إلى قريتهم. وفي الطريق اقتطف ثمرةَ تفاحٍ خضراء صغيرة متدلية من خلف جدارٍ حجري قصير يحيط بأحد البساتين. لم يقطف التفاحةَ ليأكلها بل ليرمي بها في الهواء إلى الأعلى ثم يلتقطها. يرمي بها ويصفّق قبل أن تسقط التفاحة في كفّيه من جديد. ظل يفعل ذلك بجذل وحبور طوال الطريق إلى أن وصل إلى قريته وفي نيته العودة إلى آل وادح ليرى تلك الجميلة التي تعمدت إنفاذ نظراتها إلى قلبه.

أما آمنة، وبعد أن تركها مهدي تلعب بين البيوت فقد عادت إلى والدتها تثرثر معها عن شوقها لأختها "عَسَلَة" التي تسكن في قرية بعيدة بعض الشيء مع زوجها وأبنائها. وتسأل ببراءة:

- لِمَ تذهب إم صبايا مع أزواجهن؟ لماذا لا يأتي إم أزواج ليسكنوا إلى زوجاتهم؟

قالت الأم:

- قد يحدث هذا يا آمنة لكنه قليل.
- إذاً قولي لوختي[2] وزوجها وعوالها أن يسكنوا معنا.

---

(1) تـا: التـي. هِم: في. تحيفة: أي جميلة. ومعنى ما قاله (هل الفتاة الجميلة التي كانت في البيت أختك؟).

(2) وختي: أختي.

زمجر الرجل الذي يقود السيارة فجأة بقوله "لا إله إلا الله". فأعادها صوته من منـــزلها في القرية إلى حيث هي في سيارته.

لا تعرف آمنة سبباً لترديد الشهادتين بتلك الطريقة الاستعراضية المخيفة بصوته العالي الأجش سوى رغبته في تذكيرها بوجوده كخاطف أخذها لا تدري إلى أين. لكنها اكتشفت أنها للتو أصبحت في مدينة كبيرة.

أخذت تحدق من خلال النافذة في كل شيء بانبهار. لا تدري ما هذا المكان. و لم يخبرها أحد بأن الرياض ليست كآل وادح. وأول ما هالها هو عدد السيارات في الشوارع. قارنتها مع ما كانت ترعاه من الغنم وبدأت تَعُدها واحدة واحدة ثم توقفت عند المئة، مدركةً أن عدد السيارات يفوق بكثير ما كان لديها من الأغنام. فغرت فاها دون أن تنتبه وهي تتأمل الواجهات الزجاجية لبعض المحلات التجارية ورفعت رأسها أثناء المرور بجوار بنايات عالية في طرقات مرصوفة ومعبدة. ظلت ترفع رأسها أكثر لكي ترى من نافذة السيارة إلى أي حد ترتفع تلك البنايات. كل شيء مختلف.. كل شيء مذهل. و لم يطل انبهارها إذ زجرها صالح آمراً إياها من جديد بأن تغطي وجهها. غطت وجهها وهي تقول في أعماقها: "غريب هذا المكان.. وجميل"

— 2 —

الجدران تتحرك نحوها. والمكان يضيق.. ويضيق.. إلى أن تهشمتْ ضلوعها

الأبرياء فقط يمكن اغتيالهم أكثر من سواهم، أو اغتيال شيء منهم. وتلك الطفلة آمنة كانت أكثر براءة وضعفاً وسذاجة وجبناً ووجلاً مما قد يتصوره الناس عن طفلة لم تغادر قريتها إلا إلى نُزُلِها الجديد.

قبل صلاة العصر بساعتين من اليوم الثاني لانطلاقهما من القرية في الجنوب. أوقف صالح سيارته عند باب بيت شعبـــي صغير في حي متواضع بعيداً جداً عن الأحياء الراقية في الرياض. نـــزل من السيارة وأمرها بالنـــزول.

فتح باب البيت وعاد إلى السيارة يحضر ما بها من أغراض. دخلت آمنة تتبعه ولم تدرِ ما هذا الذي دخلت إليه. إذ لم يكن بيتاً حسبما تعرف.

البيوت في قريتها مسقوفة بدءاً من الباب الخارجي بكل الممرات والسلالم والموزعات الداخلية وإلى آخر ركن فيها. كما أن كل البيوت متعددة الطوابق. الصُفَّة التي بجوار المسجد فقط هي التي مجرد حجرة من طابق واحد.

هذا المكان الذي دخلته ليس صفة وليس بيتاً. إنه أربعة جدران تحيط بمساحة صغيرة ليس لها سقف، كأنه غرفة مربعة غير مسقوفة، وفي كل جدار من الجدران الأربعة باب لا تدري ماذا خلفه، أحدها

يؤدي إلى الشارع وهو الباب الذي دخلت منه إلى هذا المكان الفارغ.

وقفت في صحن الدار تنظر إلى السماء عندما أدخل صالح كل الأغراض التي كانت معه في السيارة وكان من بينها ثيابه وثيابها وبعض الأواني والأطعَمة ثم أشار بيده إلى الأبواب حولها واحداً تلو الآخر وهو يقول:

- هذا مجلس الرجال وهذا حمام الرجال.

لم تفهم آمنة كيف يكون للرجال مجلسهم والناس في قريتها يجلسون في ذات المكان نساءً ورجالاً. لكنها لم تبدِ أي تساؤل. وتابع صالح:

- أما الباب الثالث هذا فإنه يدخلنا إلى الحوش الداخلي وهو بحجم هذا الحوش. وفيه مطبخ وغرفة وحمام.

مشى أمامها ودخل من الباب الذي أشار إليه فمشتْ خلفه وانتقلت إلى مساحة مماثلة وهي تردد في داخلها كلمة "حوش" باستغراب شديد، إذ إن الحوش في قريتها لا تعني أبداً مساحة غير مسقوفة بين الغرف داخل البيت. أشار صالح من جديد وقال:

- هذه غرفة وهذا حمام وهذا مطبخ.

نظرت آمنة إلى الغرفة فرأت فيها سريراً حديدياً قديماً وعدداً من المخدات والمساند المحشوة بنجارة الخشب وبساطاً متواضعاً يقصر عن تغطية كامل الأرض الإسمنتية. وعلى الجدار بعض المسامير التي علّق صالح عليها ثيابه وبدلته العسكرية. أما المطبخ فليس سوى حجرةٍ صغيرة بها صنبور مياه أمام حوض متواضع بالإضافة إلى أرفف خشبية على أحد جدرانه تناثرت فوقها أدوات الشاي والقهوة وبعض الأطباق والقدور وملعقة واحدة وسكين كبيرة.

شعور بالانقباض لو خرج لملأ تلك الحجرات، لكنه ظل حبيساً في قلب طفلة تقارن بين بيت يرسو على جبال محاطة بالسحب والضباب كانت تسكنه، وبيت كأنه قد نبت وسط الرمال وأحاطت به ريح السموم من كل جهاته. ودون أن تعرف السبب أدركت أن صالحاً قد تجاوز بسيارته كل تلك البيوت الكبيرة والشوارع الواسعة والواجهات الزجاجية وكل أولئك البشر بحياتهم وضجيجهم ليقذف بها في هذا المكان الموحش الغريب الذي يسميه بيتاً.

هلعٌ في قلب آمنة كذلك الذي يربك نعجةً انفرد بها ذئبٌ جائع.. وما عسى النعجة فاعلة أمامه غير الاستسلام!؟ تستسلم مدركةً أنها ستموت إن هاجمها الذئب لأن أحداً لم يقل أبداً أن الذئاب ندمت على شراستها يوماً وقررت أن تصبح وديعةً وطيبة.

كان صالح متعباً من طول الطريق لذا دخل إلى الحجرة وقبل أن يرتمي فوق السرير الحديدي الوحيد في المنـــزل سمع طرقاً على الباب فخرج ليرى من الطارق وإذا بآمنة قد سبقته إلى فتح الباب ووقفت أمام رجل نحيل القامة بلحية طويلة مبعثرة يرتدي ثوباً أبيضاً وغترة بيضاء قائلة بصوتها الرقيق:

- إرحب.. مرحباً ألف.

أدار الرجل الواقف بالباب ظهره لآمنة والتزم الصمت. وتسمّر صالح في مكانه للحظات ثم انقضَّ كالذئب الذي للتو كانت تتخيله، ذئب لم تعتد آمنة على مواجهته إلا ومعها كلب صديقتها الضخم "صميع" يحميها دائماً.. قبضتْ كف صالح على كتفها بعنف ثم سحبها وهو يصرخ بها ويدفعها بقوة:

- ادخلي.. ادخلي..

هدأت نبرة صوته عندما استدار إلى الباب وقال:

- تفضل يا أبو ناصر.. تفضل.

هرولت آمنة إلى الداخل تبكي وارتمت على السرير الذي أصدر هسيساً حين تقلبت عليه في ركن الغرفة المتواضعة. لم تجد آمنة تفسيراً لما حدث. كان الأحرى حسبما تفهمه أن يغضب منها إن لم تفتح الباب للضيف وتبدي بشاشةً في وجهه. لماذا فعل بها هذا وهي لم تخطيء؟ و لم تجد جواباً لسؤالها.

بكت كثيراً على السرير المفرد الوحيد في هذا المنـــزل الموحش. بكت خوفها وشوقها وغربتها إلى أن أتعبها البكاء كما وقد أتعبها السفر.

وحشة قاتلة، وخوف من المكان لا تدري كيف تصرفه بدد لها بعضه عواء كلب في الحارة التي لا تخلو أزقتها من بعض الكلاب والقطط. عواء أعاد "صميعاً" إلى ذاكرتها من جديد، وأعادها إلى التلال والغنم، تتذكر تلك الحياة إلى أن نامت وبعض الدموع تبلل مخدتها.

دخل الضيف أبو ناصر وبقي عند صالح في مجلس الرجال ما يقارب النصف ساعة ليطمئن على صديقه بعد سفره ويبارك له زواجه ويحدثه عن أمور استجدت ولا يعلم عنها أحد من أفراد جماعة يُعدُّ صالح من أهم أعضائها. جماعة سترسم طريقَ مستقبله مع من صار يحبهم كحبه لذاته.

سأل صالح ضيفه:

- ما أخبار الشيخ جهيمان؟
- بخير إلى الآن.. حماه الله يا صالح. الأنباء تقول بأنه في خطر. هو في ضواحي المدينة المنورة.
- ألم يقل لك متى سنلتقي به. هناك ما نريد أن نطلعه عليه.

- قريباً سنراه.. أرسل إلينا يأمر باستقبال مطبوعات جديدة وتوزيعها في الرياض وما حولها. لكنه سيزور "ساجر"[1] في الأيام المقبلة. سنكون في استقباله إن شاء الله.
- أخبرني قبل موعد قدومه بوقت كافٍ لأتمكن من الاستئذان من العمل والذهاب إلى ساجر للقائه.
- ستلتقي به بإذن الله، فالشيخ جهيمان نفسه حريص على رؤيتك ولديه دائماً ما يود إطلاعك عليه.

خرج الضيف، ولشدة تعب صالح بعد رحلته الطويلة، لم يدخل إلى الغرفة الداخلية حيث اعتاد أن ينام، بل تمدد مكانه في مجلس الرجال وغفا.

استيقظ بعد ساعة جائعاً. توضأ وخرج ليصلي العصر ويشتري بعض الطعام. عاد ليجد آمنة نائمة على السرير. أيقظها لتأكل فجلست على الأرض فوق البساط حيث يجلس صالح. ابتلعت القليل من اللقيمات ثم ارتمت على السرير لتنام من جديد ويدها ملطخة ببقايا ما أكلته. أما ثيابها فلا تزال قذرة وكريهة الرائحة بعدما بالت عليها أثناء الرحلة وهي متكومة على المقعد الخلفي في السيارة.

تابع صالح ازدراد الطعام وهو يتأمل جسدها الصغير الممدد أمامه. ثم لم تدرِ آمنة أكانت مستيقظة أم أنها ترى كابوساً رهيباً أثناء نومها عندما أحست بألمٍ شديد بين فخذيها. صرخت وحاولت النهوض لكن أنفاساً تتسارع بالقرب من وجهها وسقفٌ يهبط فوقها ويعلو ويمنعها من النهوض. استمر صراخها ومحاولاتها وشيء كحجر الرحى يطحنها ويمزق أحشاءها.

---

(1) مديـــنة صغيرة تقع في الشمال الغربـــي لمدينة الرياض وكانت هجرة لتوطين البدو في الستينات والسبعينات الميلادية.

توقف صالح فجأة وارتمى على صدرها ثم انقلب مباشرة على السرير إلى جوارها وتمدد على ظهره وتركها بينه وبين الجدار.. ونام.

قفزت آمنة من فوقه لتصل إلى الأرض.. وقفت تنظر إليه مذهولة للحظات.. ثم خرجت من الغرفة لا تدري إلى أين.

لم تعرف تلك الطفلة مهانة وألماً كما عرفته في تلك الدقائق، ولم يحطمها شعورٌ بالإذلال كما حطمها في ذلك الوقت. إذلال يترافق مع أوجاع رهيبة بين فخذيها تبكيها إلى حد الصراخ. ثم كاد الفزع يقتلها حين رأت دماءها تسيل منها. والرجل الذي فعل بها ما فعل نائم حيث تركته على السرير. دارت في أرجاء البيت تبكي مبتلة الوجه والفخذين، وظلت تبحث عن شيء لا تدري ما هو. اتجهت إلى الباب الخارجي تريد أن تهرب فوجدته مقفولا بالمفتاح. رأت بعض الأغراض في الحوش. فتحت كيسا كبيراً به بعض ثياب صالح. نثرتها على الأرض الإسمنتية التي لا تزال حارة برغم ميلان الشمس إلى الغروب. وقفت فوق ثيابه تدوسها بقدميها الصغيرتين.. ركلتها بكل قوتها الضعيفة.. بصقت عليها.. ثم تناولت أحدها وحاولت تمزيقه، لكنه لم يتمزق.. رمت الثوب واتجهت إلى المطبخ.. تناولت السكين وتقدمت نحو صالح النائم.. نوت قتله.. نظرت إليه باشمئزاز.. فكرت في أن تغرس السكين في صدره.. أو تحز بها رقبته.. تخيلت الدماء تنبعث من عنقه كدماء الخراف التي يذبحها والدها لضيوفه.. ظلت واقفةً ترفع سكينها أمام وجهه وتلوح بها في الهواء.. ثم تركته وعادت إلى الثوب تحاول تمزيقه وتبكي.

— 3 —

الفئران والخفافيش تفضل الأماكن المعتمة

بعـــد أعـــوام من التتلمذ وثني الركبتين في مجالس عدد من رجال الدين. وبعد أن نهل الكثير في نهاية المطاف من مجلس الشيخ "عبد العزيز بن باز" بمنـــزله المفتوح لطلاب الـ "علم" في المدينة المنورة، استطاع "جهيمان" أن يحظى بإعجاب شيوخه وثقتهم الكاملة لما وجدوه فيه من حرص على طاعة الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه، إضافة إلى ما لديه مـــن إصـــرار على التحصيل ورغبة جامحة في دفع الناس ولو بالقوة إلى طريق يراه جهيمان كما يرى كثير من رجال الدين أنه طريق الحق. لذا قَـــرُبَ وعلتْ منـــزلتُه شيئاً فشيئاً. ثم صار له تلامذةً بعد ذلك يلتفون حوله ويتعلمون منه ويأتمرون بأمره.

شيء ما - غير التفقه في الدين أو الحرص على رضا الله - يجعل رجـــلاً مـــن رجال الدين أكثر حضوراً وألقاً في أعين العوام من غيره. شيء ضمن تكوين بعض الأشخاص دون سواهم يجعل الانجذاب إليهم أقوى والثقة بهم أكبر وأعمق. وذلك ما كان لجهيمان، لكنه وبرغم ما حققـــه من بريق لافت وسط التلامذة ورجال الدين، استمر في بذل ما بوســـعه لـــيعوِّض مـــا لم يدركه من الـ "علم" بعد أن ترك المدارس النظامـــية مـــنذ أمد بعيد. فصار يقرأ ويحفظ، وينشب أظافره في كل صخرة يريد أن يعتليها أملاً في أن يبقى فوق الجميع.

استعاض عن الندم على ما فاته من التعليم بالسخط المتواصل على كل ما ليس من عادات سكان الصحراء. مؤكداً أن لا خير في المدارس

ذات العلـــوم الدنيوية، باذلاً ما في وسعه لحث الناس على تركها، ليس هـــذا وحـــسب بل صار يطمح إلى أن ينصاع الشعب والحكومة إلى أوامره ليرجع بالأمة كلها إلى الوراء ألف عامٍ أو أكثر.

رضـــا الإنـــسان عما يعرفه وما يألفه وبغضه لما لا يعرف وما لم يألف يجعله دائم التمسك بما هو عليه مهما كان سيئاً. وجهيمان كان فـــرحاً بجهله متمسكاً به، ظاناً أن الانتظام في المدارس والجامعات يضر الـــناس ويدمر حياتهم. لذا لم يكتف بحمد الله وشكره على عدم إتمام تعليمه، بل صار يود أن تصيب الناس عدواه فيتركون التعليم كما تركه ويكـــتفون بقراءة ذات الكتب التي يقرأها مراراً وتكراراً. وها هو صار شيخاً يُعتد برأيه لعلمه التام بتلك الكتب وجهله التام أيضاً بما سواها. يُسأل من قِبَل مريديه الذين ترتعد فرائصهم في حضوره إجلالا ومهابة. فيحرّم ويحلل ويأمر وينهى.

كانـــت أحاديث جهيمان لأولئك الملتفين حوله كترانيم سحرية آتـــية مـــن المجهول، ترانيم تأسر أرواحهم حتى ليشعر بعضهم بنشوة تجعلهم محلقين بين السماوات، وآخرون يشعرون بوهنٍ يكاد يوصلهم حـــد الإغماء. ذلك هو حال المريدين دائماً.. أغلالهم لا تُرى، لأنها لا تكبل أجساداً بل عقولاً.. وخنوعهم لا يُلاحظ، لأنهم يبررونه لأنفسهم وللآخـــرين علـــى أنه حب واحترام وولاء واعتراف بفضل شيخهم ومعلمهـــم. أما من كان منهم ذا فطنة تحميه من الانضواء تحت جناح شـــيخه فلـــن يستمر في تبجيل أحد للحد الذي يصبح معه مجرد أداة تستجيب لمن يحركها.

لم يكـــن هذا الأسر الذي يدخله هؤلاء الصغار راضين مرضيين بـــسبب بـــراعة جهيمان في استقطابهم وحسب، بل لأن فراغاً أحاط بـــأرواحهم وعقـــولهم و لم يجـــدوا ما يشغله ومن يشغله إلا ذاك الـــ

"مطوع" جهيمان. فالأوقات كلها مساء عند معصوب العينين حتى ولو جلس تحت الشمس.

- سمعتم يا شيخ بفِرَقٍ تنادي بما يسمى "حقوق الإنسان" فما هي وما حكمها؟

هكذا تساءل أحد صغار المتتلمذين عند جهيمان. ولن يُطرح سؤال عن حقوق الإنسان لولا أن هناك من نادى بها. فذات الصحراء التي أخرجت جهيمان وتلامذته ومعلميه، أخرجت أيضاً أناساً يجاهدون من أجل حق الآخرين في الحياة الكريمة، ينادون بالحرية باذلين ما يمكنهم بذله ليدرك كل إنسان ما له وما عليه.

تلك الصحارى وإن بدت جافةً قاسية إلا أنها أيضاً رحبةٌ.. صافيةٌ.. ومشرقة.. نقية. أنبتتْ حنظلاً، لكنها ذاتها التي تُنبت الخزامى والنخيل. وإذا كان جهيمان وبعض أعوانه من الصحراء، فإن من سكانها أيضاً أناسٌ نبلاء يذودون بحياتهم عن حقوق الناس. وإذا كان الجهيمانيون قد اجتمعوا من أجل الموت، فبالمقابل هناك ومن ذات البيئة من يجاهد من أجل الحياة. وهذا ما دفع السائل إلى طرح سؤاله مستفسراً عن أولئك المنادين بحقوق الإنسان.

أجاب جهيمان تلميذه بعد أن ذكر الله وصلى على رسوله:

- (تدبر الآيات، تجد كيف أنكر الله عز وجل على من لا يفرقون بين من يسعى لإقامة دين الله ونصرته والإيمان والعمل الصالح، وبين من يريد إقامة سلطانه ويسعى في الأرض فساداً، لا شك إن أولئك هم المتقون، والآخرون هم الفجار. وإذا تأملت الحديث، ونظرت في الواقع؛ رأيت أنه قد حصل العمل والنتيجة، فحينما لم يحكم هؤلاء الحكام بكتاب الله ولم يتحروا فيما أنزل الله؛ وقع البأس فيما بين المسلمين، فكثرت الفرقة والاختلاف وأصبح بعضهم

يسعى لإبطال ما عند الآخر وتفرقوا شيعاً وأحزاباً، والله قد نهاهم عن ذلك، ولكن هذا كله من ثمرة تعطيل الحكم بكتاب الله وتحري ما أنـــزل الله)[1].

تظهـــر آنذاك بعض التيارات الفكرية المختلفة في المدن الكبيرة في وســـط البلاد وأطرافها بين حين وآخر بأصوات خافتة، تنادي بالحياة للجمـــيع مـــن خلال تأييدها للحقوق الإنسانية العامة والخاصة كحق التعبير الحر وحرية الصحافة والاحتجاج السلمي... إلخ، وظهورها كان مقلقاً لجهيمان. فإذا بلغته أنباء اعتقال بعضهم هلّل وكبّر وأظهر سروره لكل من حوله.

لم تكن تلك الأصوات المنادية بحقوق الناس تصل إلى كل الناس، لذا لا يشعر العامة بما يجري. ولم يدرك أحد ربما أن هذا يعني ألا يبقى إلا صوتٌ واحد يأمر بهجر الحياة فما هي إلا دار عبور، والتحضير ليوم الـــبعث. ولم يـــدرك إلا القلـــيلون ما يجري من إعداد لتغيير عاداتهم وأفكـــارهم، ليكونوا فيما بعد نسخاً متشابهة. وليس التشابه في طرائق الـــتفكير والعادات وحسب. بل حتى في تراثهم وثقافتهم، ذلك التراث المتـــباين حـــسب تـــباين المناطق، هل تم إلغاؤه؟.. بالإهمال.. والمحو.. والدفن إلى أن يحل محله ما سيظن الجميع أنه لهم.

إذا كانـــت العتمة المتواصلة والاختباء من الشمس يؤديان إلى الـــسقم، فإن التظاهر بالتدين مصل مسكّن، لا يشفي لكنَّهُ يؤجل شـــعور المجـــتمع بما يعاني من أمراض إلى أن يتضاعف الداء وتتزايد العلـــل. وهذا ما جعل الكثيرين لا يدركون الهدف الذي تسعى إليه تلك الجماعة.

---

(1) كـــل ما نُسب إلى جهيمان ووضع بين قوسين سواء كان منثوراً أو منظوماً تم أخذه مما كتبه في رسائله ونقله عنه تلامذته ومؤيدوه.

حينها تأسست جماعة دينية تحت نظر وسمع المسؤولين وبمباركتهم ودعمهـــم، كانت تُسمى "الدعوة المحتسبة". ولم يكن في حسبان أحدٍ أبداً أن يتمكن الذئب من التنكر بارتداء فروة حَمَلٍ كل تلك السنوات ثم يُظهرُ أنيابَهُ فجأة فيما بعد محاولاً التهامهم.

استمرت الجماعة التي أطلقت على نفسها جماعة "الدعوة المحتسبة" ومقرها المدينة المنورة في التوسع شيئاً فشيئاً حتى تضخّمت وتحولت بعد ذلك إلى أخطبوط عملاق تمتد أذرعه لتصل إلى كل مكان في البلاد.

جماعـــة لها تأثيرها وقياداتها وموجهوها، وجمهور عريض من مختلف الـــشرائح. ثم تـــزايدت البـــيوت والمقرات، كما تزايد الخطباء والوعاظ والمشايخ، وانطلقت الجماعة بعدئذ فأسست ما سمَّوه بـــ (بيوت الإخوان) في عـــدد من المدن على طول البلاد وعرضها، للدعوة إلى الدين - حسب مـــا يفهمونه هم - بالدروس اليومية، حيث يجترون خلال تلك الدروس كـــتب المفـــسرين والفقهـــاء التي دُونت قبل ألف عام أو أقل أو أكثر، ويتباحثون في السنة النبوية، إضافة إلى المحاضرات الوعظية المتواصلة.

وبـــرغم الـــتمدد الأخطبوطـــي لجماعة الدعوة المحتسبة وتزايد أعـــدادهم بشكل من المفترض أن يكون مقلقاً لكل مراقب، ظل حسن الظن هو الغالب، واعتقاد قوي في عقل من يحسنون الظنون بأنه لا ضير من تكاثر البيوت وتزايد أعداد المشايخ والمريدين، إذ لا أحد يتصور أن من يقرأ كتاب الله ينوي شراً بالبلاد والعباد، ثم إن الشعوب إذا تدينت زهـــدت. والـــزاهدون لا يطمحون إلا إلى رضى الله. وهذا النوع من الطموح لا يكلف شيئاً.

تلـــك هـــي الصورة التي كانت مرسومة في أذهان الناس وبعض المسؤولين عن كل جهيماني بعد أن انتشر الدعاة في المدن والقرى على طول البلاد وعرضها.

كان مضحكاً في تلك السنوات أن يطلق الرجل على نفسه لقب داعـــية ثم يبقى داخل البلاد. فالدعوة تكون لغير المسلمين لكي يدخلوا في الإســـلام. أما دعوة المسلم إلى الإسلام فهي البدعة التي ظهرت و لم يعترض أحد على ابتداعها بل أكد مبتدعوها أنها لخير البلاد والعباد.

الـــدعاة حينها كانوا يدعون المسلمين إلى نوع آخر من الإسلام. إسلام لم يعرفه الناس من قبل في جزيرة العرب عامة وفي جنوبها بشكل خاص. وانضم إلى أولئك الدعاة كثير من أساتذة العلوم الدينية وطلابهم في الجامعـــات. ثم توسعت الدعوة لتصل إلى المدارس الثانوية والمتوسطة والابتدائـــية. وأخـــذت تتفـــشى بعـــد ذلك في مدارس تعليم البنات وجامعاتهن ومعاهدهن.

في تلـــك الأوقـــات كـــان جهيمان "عالماً" وقائداً يتحلّق حوله كـــثيرون، أفـــنى وقـــته في ترويضهم إلى أن صاروا يدورون في فلكه، ويولونه وجوههم وأفئدتهم حتى أصبح هو العالم والعالم هو.

ما يتعلمه المريدون من جهيمان ليس محصوراً في الكتب. لقد أراد أن يـــنقل ما في صفحاتها إلى الواقع. إذ كيف يقرأ عن الحلال والحرام والحق والباطل والصواب والخطأ ثم يرى الشعب والحكومة في واقعهم خلاف ما يجب أن يكونوا عليه وفقا لتلك الكتب التي حفظها وآمن بما فيها؟

تعلـــم جهيمان من شيوخه أن دين الله حرّم الكثير مما في المجتمع فكيف يسكت أولئك الـــ "علماء" على كل تلك المخالفات الشرعية التي يقترفها الناس حولهم؟ وقد أكّد لكثيرٍ من رجال الدين وقتها بأنهم مخطئون. ثم صار يراهم مداهنين. أوَليست المُداهَنة إظهار الإنسان أموراً عكـــس ما يُضمِر وقوله بغير ما يعتقد. حينها نقل جهيمان ما يراه إلى تلامذتـــه فـــصاروا معه ضد كل الشيء.. وضد أي أحد.. حتى كبار رجال الدين.

لقــد رأى أن عليه إنكار المنكر بكل وسيلة يستطيعها بدءاً بقلبه وانتهاءً بيده وما يمكنها حمله من سلاح. وما دام الله بذاته قد أمر الناس بتغــيير المنكر فكيف يعصى أوامر الله وهو يعلم أن طريقة عيش الناس تعجّل بالغضب الإلهي؟

دبــت الخلافات بين جهيمان وشيوخه شيئاً فشيئاً. لكنه يكسب المــزيد من الأتباع بعد أن جاهر بمراده في التغيير. والخلاف كان لأن كــثير من رجال الدين يرون ما لا يراه جهيمان من وجوب طاعة ولي الأمــر مع الحرص على المناصحة للعودة إلى الصواب. لذا صار يخيفهم إصراره على التغيير حتى وإن اتفقوا معه على أن ما يقول به حق.. أما الصغار فيدفعهم حماسهم وفورة شبابهم للالتفاف حوله والإيمان به.

دبّ الشجار وتزايد، وأدى ذلك إلى القطيعة بينه وبينهم. ولكن.. وبرغم ما بين جهيمان وكبار رجال الدين من خلافات، ظلت أبوابهم مفــتوحة لــه إن أراد وصــالاً. وقلوب بعضهم كذلك. لذا لم يتردد جهــيمان في الطلب من بعض أولئك الـ "علماء" أن يسعوا جاهدين لمعاونــته علــى الــتغلغل في الجيش عن طريق استصدار أمرٍ يمكنه من تكلــيف معاونــيه بإلقــاء دروســه الدينية داخل الثكنات والقواعد العسكرية.

طفــتْ حُــسْنُ الظنون على السطح من جديد، وظن به رجال الــدين خــيراً لــذا سعوا لتحقيق أحلامه. وكان أمر استصدار تلك المــوافقات يسيراً، بل ومحبباً أيضاً. إذ لا شيء أكثر استحساناً من نشر الدين. وإن اختلفت الأهداف من نشره. ولكن.. لم يفطن أحد إلى أن الجهيمانيون يريدون السيطرة على كل شيء باسم الله ورسوله.

تمكــن جهيمان أخيراً من تحقيق رغبته، فصارت الدروس الدينية وفق منهجه تطال عقول كثيرٍ ممن يرتدون الزي العسكري. ثم توسعت

بعد ذلك عبر مَن تتلمذوا على منهجه واعتنقوا قناعاته لتجتاح الأماكن كلها... ثم وصلت إلى البيوت بواسطة الشريط والكتيّب. وتحول كثيرٌ من الناس إلى جهيمانيين.. وامتلأ بعضهم رغبةً في أن يدمِّرَ ويخرب ويقتل، ما دام ذلك هو الجهاد.

هلّل الجهيمانيون وكبّروا حين وصلتهم أنباء صدور الموافقة على بدء نشر الدروس بين العسكريين. ثم أمسى صالح ممن شملهم التكليف بإلقاء تلك الدروس والخطب على الجنود وضباط الصف في القوات المسلحة. وبمجرد أن صالح إمام الصلاة وخطيباً يرتجل الكلام في غير حينه فقد علا شأنه وتوسعت دائرته بشكل غير رسمي بين الجنود خلال تلك السنوات. واستطاع أن يحقق الكثير مما يُخطط له من استمالة الناس وولائهم للجهيمانيين.

استمر هذا التأثير فيما بعد على مدى عقود من الزمان وتوسع كثيراً بخطوات واثقة وراسخة، ليشمل قطاعات مختلفة، عسكرية ومدنية. أما أهم ما أنجزه تلامذة جهيمان من بعده فهو سيطرتهم المحكمة على أجزاء واسعة من التعليم.

— 4 —

يا لتعاسة الشمس.. تريد أن تمنحهن الدفء والضياء فاختبأن منها وصارت الشمس منذ ذلك الحين.. للرجال فقط

لم تكن القرى في جنوب المملكة العربية السعودية بلاداً للمزارعين وحسب. وليست مجرد شيء عكس المدينة الكبيرة. إذ إن الإنسان فيها كان متمدناً بطبعه أكثر مما نجده اليوم في بعض المدن. كان للناس إحساس فائق بالجمال من حولهم، وتناغم مع الطبيعة يجعل أعماقهم ذات ثراء إنساني، بخلاف أولئك الذين خلت أعماقهم من حب الجمال وامتلأتْ بالادعاءات العديدة.. ادعاء التدين.. وادعاء المثالية.. وادعاء الفضيلة.. وادعاء الطهر.. وادعاء القداسة لبعضهم البعض. ادعاءات لا زالوا يمارسونها لأنها ستظل تنطلي على كثيرين.

تخلو القرية من الادعاء، ولا يمكن لأحد أن يدعي شيئاً ليس فيه لأن الناس ستكتشف التلفيق عاجلاً، فهناك لا شيء مخبوء وقليلة هي الأسرار، بل ويكاد يكون كل ما في القرية عاماً ومشتركاً ومكشوفاً ومقبولاً. لذا فالحياة يسيرة تمنح الجميع عيشاً هادئاً خالياً من الأزمات.

لكن هل تتحول القرية بطيبة ساكنيها وبكل ما في قلوبهم من حب لأرضهم ببساتينها وحقولها وزهورها إلى أرضٍ قاحلة فجأة؟ كيف هذا وليس لأحدٍ أن يمنع السماء من أن تمطر، ولا العشب من أن ينبت؟

التحول قادم ما دامت الأصوات المنادية بالحياة تُخنق قبل أن يسمعها الناس ثم يجلجل النعيق. نعيق يدفع الناس إلى إخراج الأرض من أعماقهم لتصبح فقط تحت أقدامهم وليست جزءاً من قلوبهم. والأرض متى ما خرجت من قلوب ساكنيها تحولت إلى صحراء وأصبحت القلوب خاوية.

تلك الأرض التي أحيوها موسماً تلو آخر منذ آلاف السنين، وسقوها مع الماء حُباً ورعايةً حتى كادت حجارتها أن تنطق امتناناً.. أن تحدثهم عن شكرها لهم. لكن ولأنها تعجز عن التعبير بالكلمات، أظهرت لهم حبها بمزيد من الاخضرار في أشجارها والوفرة في ثمارها. لتطعمَ من جاع، وتُظلَّ من أراد ظلاً. وها هو أحمد إبر موسى يسند ظهره إلى جذع شجرة تدلت أغصانها حول رأسه، ويبكي بحرقة.

لا يعلم هذا الفتى شيئاً عمن يحاول تغييره وتغيير الآخرين. وحيدا يجلس تحت شجرة عرعر[1] كبيرة. ولن تفضح الشجرة دموعاً تساقطت بغزارة. لن تحدث أحداً عن نجوى أحمد وشجنه. ستبقى صامتةً ليبكي تحتها من شاء البكاء وهو مطمئنٌ إلى أن من استودع الشجر أمراً ظل أمره سراً إلى الأبد.

بين الأشجار والمستظلين بها يتولّد الحب فيّاضاً صادقاً، إذ كلما التصق الإنسان بجذع الشجرة يتكئ عليها كبرت ومدت غصوناً وارفة أكثر في مواسم قادمة. لذا يتعانق العشّاقُ تحت أغصان الشجر، ويتكئ المنتظرون على جذوعها ويستظل المتعبون بظلالها، ويأكل الجميع من ثمارها فوق قمم الطهر والمطر في ثقة كاملة بأن أمانة الشجر لا حدود لها.

---

(1) العرعر: نوع من الشجر كان ينمو بكثرة في قمم السروات جنوب المملكة العربية السعودية.

بكى المراهق المفجوع أحمد لأنهم قتلوا الحب في قلبه قبل أن يولد. سافرت آمنة قبل أن يخبرها بحبه لها. لم يقل لها حرفاً لأنه كان ينتظرها لتكـــبر. كيف تسافر دون أن يدري؟ كيف ترحل ولا يخبره مهدي أو تركية أو هدباء، ولا حتى أخوها الصغير إبراهيم أو أختها فاطمة؟ هل تآمروا جميعهم ضده؟ لا بد أن يبحث عن إجابة.. يريد أن يعرف لماذا لم يخبروه.

ســـافرت آمنة قبل أن يتبرعم حُسنها، فبكى المحب بحرقة. وليس أكثـــر مـــن دموعه سوى دموع والدهما سعدى التي تكابر أمام الجميع وتتظاهـــر بالرضا عن ذلك الزواج الذي تمنت بعد إتمامه لو أنها رفضته بشكل قاطع و لم ترضخ لإلحاح غازي شقيق زوجها الأكبر.

تتخيل صغيرتها أمامها في كل حين وتتساءل في أعماقها عما تفعله بهـــا الأيام في غربتها. تفز من غفواتها الخاطفة في أول الليل واسم آمنة على لسانها. تصحو مفزوعة تتمتم بالدعوات وتقرأ ما تحفظه من القرآن لتكون صغيرتها في وداعة الله وعنايته.

كابرت سعدى أمام الناس لأنها لا تريد أن تظهر لهم مدى سلطة غـــازي علـــى زوجهـــا وبيتها وعيالها. ولقد رفضت في البداية عندما جـــاءهم رسول من صالح يخبرهم عن رغبة صالح في الزواج من آمنة. استمعت هي وزوجها إلى الرجل ثم سألتْ:

- ولكن قل لنا من أخبره عن ابنتي..؟ لقد سافر صالح قبل أن أحبل بها.

فقال الرسول:

- صـــديقه عوضـــة هو من أخبره. أنتم تعرفون أن عوضة يروح من الرياض ويغدو إليها بين فترة وأخرى.

قالت سعدى بانفعال:

- "عوضة إم خَبَل"...؟!

لم يكن عوضة خبلاً تماماً. لكن هذا اللقب التصق به بعد أن عاد من سفره إلى القرية بأفكار وأخبار لا يتقبلها الناس، وكان قد سافر مع صـــديقه صالح إلى الرياض أول مرة في العام 1384هـــ/1964م وكانا حينها مراهقَين صغيرين. لم يتجاوزا الرابعة عشرة من عمريهما. كذبا حين سألهما الرقيب الذي يسجل أسماء المستجدين عن عمريهما وقالا:

- خمس وعشرون.

نظـــر إليهما الرقيب الذي يدون أسماء القادمين الجدد للالتحاق بالعسكرية نظرات غير مطمئنة عرفا من خلالها بأنه لم يصدقهما. لكنه لم يعلق ولو بكلمةٍ فقد تكرر هذا الموقف عدة مرات. إذ يأتي المراهقون ويـــبالغون في الزيادة فوق أعمارهم الحقيقية لكي يتم قبولهم كمجندين جدد.

شـــعر عوضـــة بأنه أخطأ في تقدير الأمر عندما ترك أهله وأرضه وقريته ليبدأ عملاً شاقاً ويحصل على بعض الريالات آخر كل شهر. لم يطق الغربة، وعذبته أشواقه إلى والديه وإخوته وإلى الأرض والسماء في قريته، وما بينهما من هواء وأمطار وأشجار وحيوانات وطيور.

كـــان يظن أن العمل في فلاحة الأرض أكثر إرهاقا من أي عمل آخر. لكنه وحين مروره بعدد من دورات التدريب اكتشف كم كان مخطـــئاً وظل حلم العودة يراوده كل يوم، ثم صار الحلم شوقاً يجوس في جوانحه ويؤرقه يوما بعد آخر.

لم يطـــق الجـــندية والانصياع لتنفيذ أوامر رجالٍ يرى أنهم ليسوا بأفضل منه في شيء لكنهم سبقوه إلى هذا المكان فصاروا أعلى منه في رتـــبهم العـــسكرية. حثه صالح كثيراً على الصبر والمثابرة وأخذه معه لحـــضور دروس دينية ليحفظا ويتدارسا القرآن والأحاديث عند شيخ

أحـــد المساجد، إلى أن يناما بعد صلاة العشاء. ثم يبدأ يومهما الجديد عند آذان الفجر ليدورا في ذات الدوامة حتى المساء. عمل في أول النهار واستذكار للدروس في آخره.

استمر صالح في عمله وفي حفظ القرآن الكريم في المسجد منذ أن غـــادر أهله وقريته. ثم التحق بالمدارس النظامية الليلية بعد ذلك، عاقداً العـــزم على الوصول إلى الجامعة ودراسة العلوم الشرعية، وظل يلاحق حلمـــه حتى تمكن من تحقيقه. فطارت الأخبار إلى القرية بأن صالح غدا يفقه الدين أكثر لأنه يدرسه في الجامعة.

تـــساءل أهل القرية حول الخبر وفسروا الجملة وشرحوا معناها. قال أحد رجال القرية:

- في الجامعة درس محمد إبر ظافر إم كهرباء. ودرس سعيد إبر علوة إم طب. لكن أن يدرس إم عرب إم دين في إم جامعة.. لماذا؟ هل كبروا وهم يجهلون دينهم لكي يدرسوه؟

ردَّ أحدهم:

- مـــا إم ديـــن ذا يدرسه صالح؟ إم صلاة وإم صوم؟ هل تحتاج إلى دراسة؟ كلنا نصلي ونصوم؟

قال الثالث:

- ألا يعرف صالح كيف يصلي ليدرس إم صلاة وقد غدا رجلاً؟

قال رابع:

- هـــو لا يدرس إم صلاة وإم صوم. إنه يقرأ كتبا لا تعرفونها عن إم إسلام.

فتساءلت إحدى النساء قائلة:

- كـــيف؟ هل في ديننا ما لا نعرفه؟ أنت تتهمنا بإم تقصير فيما بيننا وبـــين الله. إن كـــنت تعني هذا. نحن نصلي ونصوم ونحج ونعتمر

ونـــزكـــي أموالنا دون أن نذهب إلى "إم جامعة" تا يذهب إليها صالح.

ردَّ أحدهم قائلاً:

- أليس لدى إمام مسجدنا أبـــي عبد الرحمن كتباً يقرأ فيها؟
- نعم.
- صالح يقرأ في إم جامعة تلك إم كتب.
- في إم كـــتب تـــا عند إمام مسجدنا شيء عن إم زكاة ومقاديرها وشيء عن إم حج وكيفيته وشروطه وواجباته يقرأها إمام مسجدنا ليجـــيب من سأله قبل أن يحج أو يخرج إم زكاة. فهل ينوي صالح أن يكون فقيها وإماماً يعلم إم عرب أو سيبقى عسكرياً.

كثيرون خرجوا من القرى وسافروا بعيداً جداً للدراسة قبل أن يفعل صـــالح ذلـــك بسنين طوال، ولم يعترض أحد. لأنهم درسوا علوماً مختلفة وليس من بينها دراسة الدين. أما صالح فقد درس الإسلام تحديداً وهذا ما أذهلـــهم. إذ إنهم يرون أن على كل مسلم أن يعرف دينه تمام المعرفة وأن يؤدي فروضه مفرقاً بين حلاله وحرامه قبل أن يصبح رجلاً في سن صالح.

صـــالح لا تعنـــيه اعتراضات أهل القرية وتساؤلاتهم. إنه يسير في طـــريق أرادهـــا دون أن يثنيه شيء عما ينوي. أما صديقه عوضة فقد ضـــاق ذرعاً بالعسكرية وانضباطها منذ بدأ بتسجيل اسمه. ثم أيقن أنه غير قادر على الاحتمال أكثر فقرر بعد مرور ست سنوات على هجر قـــريته أن ينـــصاع لحلـــم العودة. أصرّ على تقديم استقالته، ولم تمنعه كلمات صالح، ولا حتى توبيخاته. إذ جمع أشياءَهُ وركب سيارةً متجهةً إلى الجـــنوب، ثم تنفس بعمق ليملأ رئتيه بهواء يعبق برائحة الأرض بعد المطـــر حـــين وجد نفسه في قريته من جديد، يلفه الضباب وتصطك أسنانه من البرد فيفرك يديه ببعضهما لينال بعض الدفء.

تغـــير عوضة، فقد غادر القرية حين كان في أواخر الثالثة عشرة عام 1384هـــ/1964م وعاد رجلاً في العشرين في العام 1390هـــ/1970م. ثم اكتـــشف بأن الناس إذا تحدثوا عنه قالوا "عوضة إم خَبَل" لأنه أكثر مـــن ترديد ما تعلمه في غربته، فصار حديثه عن بقاء النساء في البيوت وعـــدم جـــواز خروجهن وعذابهن في النار إن لم يستأذنَّ أزواجهن مما يتندر به الناس ليضحكوا منه، وبعد تندرهم وضحكهم اتهموه بالجنون وأطلقوا عليه لقب "إم خبل".

تضاحكت النساء وهن يطرحن تساؤلاتهن:

- أســـتأذن زوجـــي مـــاذا أقول له؟ أقول إئذن لي أن أجلب حطباً لأشـــعله وأطهـــو علـــيه طعامنا وأُدفِئ به بيتنا؟ أو أقول إئذن لي لأجلب ماءً نشربه ونطهو به ونغتسل ونتوضأ منه.

قالت أخرى ساخرة:

- استأذنيه حين تريدين إم خروج لـــ إم خلاء لإفراغ بطنك.

ضحكن كثيراً وتابعن تساؤلاتهن:

- ومـــاذا إذا لم يوافـــق أزواجنا على خروجنا إلى إم خلاء لقضاء إم حاجة؟ ماذا سنفعل..؟ هل نقضي حاجاتنا في إم بيوت..؟
- يقول عوضة إم خبل إن إم نسوة في غير أرضنا يفعلن ذلك.
- لا شك أن بيوتهن قذرة. كيف تترك عاقلة إم خلاء وتنـــزوي في بيتها لتخرج نجاستها فيه؟
- صدق من سماه "إم خَبَل" أنه يقول أيضاً إن الله سيعذب من تخرج دون أن تستأذن زوجها.
- وكيف أخبره الله بذلك؟ هل صار نبياً ونحن لا ندري؟
- وإم رجـــل؟! هـــل ســـيعذبه الله إن خـــرج دون أن يستأذن من زوجته؟؟

اســتمر الناس - نساء ورجالاً - بالضحك مما يقول "عوضة إم خَـبَل"، وبعــد مرور ثلاث سنوات من عودته سافر مرةً أخرى إلى الرياض في منتصف العام 1393هـ. ليستعين بصديقه صالح على اختيار سيارة يشتريها.

عاد بسيارته "الددسن" وبخبر يفيد عن رغبة صالح في الزواج بعد عــيد رمضان من آمنة التي اقترحها عوضة ذاته على صالح حين سأله صــالح عن بنات القرية وهل لا زلن يخرجن سافرات فيراهن الجميع. أجاب عوضة بقوله:

- نعم.. ولم يكترث أحد لحديثي عن إم نار تا تشوي وجوههن يوم إم قيامة.

قال صالح:

- لو أني أستطيع أن أتزوج من هنا لفعلت. لكني أعرف الرجال ولا أعرف إن كان لهم بنات في سن الزواج أم لا. وليس لي قريبة هنا تدلني على من أتقدم لها. وأنا لا أريد الزواج من ديرتنا بفتاة رآها كل رجال القرية، وتحدث وضحك معها وربما جلس إلى جوارها على طعامٍ أو في مجلس.

قال عوضة مقترحاً:

- خذها صغيرة. ودعها تكبر عندك. وبهذا يحين موعد وجوب تغطية وجهها وهي معك فلا يراها غيرك.

انبهر صالح بالفكرة واستغرب أن تصدر عن صديقه عوضة، هذا الــرجل الذي لم يخشوشن من داخله بما يكفي ليكون قادراً على البعد عــن ذويه وظل رقيقاً تعذبه لواعج الشوق إلى قريته وأهله. لكن صالح يحب في صديقه انصياعه لأوامره. أما ما عدا ذلك فليس عوضة في نظر صالح سوى رجل ضعيف الشخصية سهل الانقياد.

عوضة معجب بصديقه صالح الذي لم يعرف الحنين إلى قريته و لم يرجعه الشوق إلى أهله و لم يثنه شيء عن مواصلة الدراسة إلى أن تخرج وصار في ظن عوضة فقيهاً ومحدِّثاً ومفسراً للقرآن وعالماً في كل بحر.

قال صالح:

- وما أدراني عن الصغيرات؟ أنا هنا منذ ما يزيد على العشر سنوات. فـإن كـنتُ أريد فتاة لم تبلغ بعد فإنها ستكون قد ولدت حين سفري أو بعده.
- كـثيرات ولدن بعد سفرك. آمنة بنت يحيى إبر آل مسفرة لا تزال صغيرة وسوف تكبر في الأشهر القادمة.

هـل كان عوضة "إم خبل" حين نطق بكلماته السابقة أمام صالح يكـتب قدر تلك المسكينة في اللوح المحفوظ، أم يقرأ قدرها منه؟ لقد قـرر صالح أن يتزوجها وفق اقتراح عوضة و لم تقرر هي شيء. بل لم تكن تدري عما يقال عنها ويخطط لها، أو أنه يحاك ضدها. هل تتواطأ السماء أحياناً مع من يطلب تواطؤها ضد الطيبين والمساكين؟

مَـن يردع صالح؟ مَن يوقفه؟ أليس في الأرض ولا في السماوات من ينوي الوقوف إلى جانب الضعفاء؟ لقد شاء صالح أن تكون آمنة له وتحققـت مشيئته. أما هي فلم تُرِدْه و لم يكن في مقدورها دفعه عنها. هـل كانـت إرادة صالح هي القدر ذاته؟ أم أن القدر يأتي كما ينتظر بعضهم دون البعض الآخر.

ظل يحيى يناقش سعدى في أمر ابنته ويحاول تطييب خاطرها لأنها لا تـريد سوى الانتظار إلى أن تغدو طفلتهما في سن مناسبة للزواج. تريد الاطمئنان إلى أن ابنتهما ستكون في حال أفضل.

سـعدى الـتي كانت حين تستيقظ كل صباح تؤكد لذاتها أنها تـستطيع الـيوم أيضاً أن تسعد أطفالها وزوجها. وقد تتمدد الرغبة في

قلـــبها لتـــصل إلى الإصرار على أن تسعد كل من تستطيع إسعاده ممن حـــولها من الأصدقاء والجيران. عادتها الصباحية اليومية تلك لا تتركها أبداً، تؤديها مترافقةً مع صلاة الفجر.

اســتاءت هذا الصباح كثيراً لأن عوضه إم خبل أتى من الرياض بنبأ رغبة صالح في الزواج من ابنتها وتكاتف عمها غازي مع الخطيب المنتظـــر. أما زوجها يحيى فتعلم أن تقديره الشديد لأخيه الأكبر يجعله يوافق على ما لا يحبان أحياناً:

قال لها يحيى:

- عوضـــة لـــيس خبلاً. لقد عاد من إم عسكرية قبل خمس أو ست سنوات متغيراً قليلاً لكنه بعد ذلك صار مثلنا. لا يقول ما لا معنى له. وها هو الآن رجلاً متزوجاً ولديه أبناء صغار يجيد الاعتناء بهم ويحـــرث أرضه ويأكل من خيرها، وزوجته تخرج مثلكن بعد أن كان يأمرها بالمكوث في المنـــزل.
- وإم خبل صالح لم يعد منذ أن خرج قبل عشر سنين أو أكثر فكيف نوافق على أن نـــزوجه ابنتنا حتى لو أنها كبيرة فما بالك وهي لا تزال دون البلوغ. ثم إنه عسكري و"تالية إم عسكرة لاش"[1].

وقع يحيى بين سندان رفض زوجته ومطرقة إصرار أخويه - غازي وعلـــي - على هذا الزواج. وكان صالح قد بعث برسوله إلى عم آمنة الأكـــبر غازي لعلمه بأنه مقرب من والده ولن يرفض له طلباً إكراماً لصداقة دامت عشرات السنين بين غازي عم آمنة وبين والد صالح. لذا ضغط على أخيه يحيى ليوافق على الزواج.

قال يحيى لزوجته محاولاً إقناعها:

(1) تالية: آخر.. أو في نهاية الأمر. لاش: لاشيء.

- كثيرات تزوجن وهن صغيرات وعشن في خير ورغد. ألا تذكرين ما قالته ومش[1] عن زواجها بـ "أبوش"؟
- لسن كثيرات. بل قليلات جداً. نكاد لا نعرف امرأة تزوجت قبل أن تبلغ سوى ومي.. ثم إنها قالت إن أبي تزوجها صغيرة لكنه لم يلمسها إلى أن حاضت ثم طهرت. لقد بقيت ومي في بيت أبي ما يزيد على إم خمسة أشهر تنام إلى جواره في دعة وسلام دون أن يخالجها خوف منه، ولم يلمسها أبي إلا بعدما غدت امرأة وليست طفلة. فهل سيكون صالح هذا كأبي إن اشترطنا عليه ألا يقربها ما دامت لم تبلغ؟ يا يحيى.. يندر أن تتزوج إم صغيرة. أمي تزوجها أبي لأنها كانت يتيمة ليس لها أحد. أخذها ليكون لها بيت وعائلة. وكان أبي رجلاً. في ذلك الوقت حين كان إم رجل رجلاً. يصون إم عهد إذا قطعه أمام أهل إم وطن بأن لا يمسها إلا بعد أن تصبح امرأة. ولم نسمع بمن نقض عهده ودخل بإحداهن قبل أن تبلغ. يا يحيى نحن نعرف كيف كان صالح مليئا بإم شر قبل أن يسافر. نصف صبايا وصبيان إم وطن ابتهجوا يوم سفره. حتى إم مواشي وإم طيور كان يقسوا عليها ويضربها. صالح ليس سوياً يا يحيى وأنا لست موافقة. لن أسلم ابنتي لرجل يمتلئ شراً سيأخذها إلى إم غربة وهي لا تزال "سفيهة"[2].
- دعينا نفكر يا سعدى. ربما هو خير لابنتنا ونحن نمنعها عن إم خير. يقولون إنه درس "إم إسلام" في إم جامعة.

---

(1) ومش: أمك.

(2) سفيهة: صغيرة. والسفيه في اللهجة العسيرية تعني الطفل فقط. ولا يقصد بها أي معنىً آخر.

- وهـــل صـــار بعـــد أن درس مسلماً. يعني أنه كان غير ذلك قبل دراســـته؟ أم أننا نحن لم ندرس و لم نسلم بعد؟ ما شأننا بما درس يا يحـــيى؟ أنا أخاف على ابنتي من إم شروق. إم شروق ليسوا مثلنا. وإم مرة عند بعضهم أرخص من إم شاة.
- ليـــسوا كلهم يا سعدى كما تصفين، ليسوا سواء.. فيهم من هم أحـــسن منا في تعاملهم مع نسائهم. تذكرين إبر حميدان. أوَليس مـــشرقياً؟ كيف كان مع زوجته وبناته؟ كان والله مثلنا وأحسن. ثم إن صالح ليس مشرقياً. صالح منا. هل نست؟
- لم أنـــسَ. و لم أنسَ أيضاً أنه عاش بعيداً عنا أكثر من عشر سنين وصار حسبما يروي عوضة وغير عوضة كالخبل.

في المساء زارهم غازي ليمارس ضغوطه على زوجة أخيه ويقنعها بأنها ستفوت خيراً كثيراً على ابنتها إن لم توافق على زواجها. قال لها غازي:

- تذكـــرين زهـــراء ابنة عيسى إم عربـــي؟ ألم تتزوج وتسافر مع زوجها ولد آل إبر سُربة إلى جدة وحين عادت قالت إنها لا تطيق وطننا لأنها في جدة تنعم بما لا نعرفه من إم نعيم؟ كم من إم ثياب كـــان معها؟ وكم من إم حلي؟ كم وزَّعت من إم هدايا على كل من تعرف؟ وكم كانت مُبَغْدَدَة[1] ذات وجه نقي لم تلوحه شمس "إم قيض" و لم تيبسه برودة إم شتاء. من يرى يديها يحسبها خلقت مـــن قطنة بيضاء ومن يتأمل وجهها يتساءل إن كان تحت جلدها لحم مثلنا أو دهانة[2] للتو استُخرِجَتْ من لبن ماعزٍ متعافية.

---

(1) مـــبغددة: مترفة ومنعَّمة. واللفظ مشتق من "بغداد"، وذلك لعلمهم أن في مدينة بغداد الكثيـــر مـــن الخيـــرات على مر العصور. لذا قالوا عن كل من ظهرت عليه وفرة الصحة والعافية مبغدد.

(2) الدهانة هي الزبدة التي تستخرجها النساء من اللبن.

قالت سعدى بإصرار:

- يـــا غازي كانت زهراء مع عبد الله ولد إبر سُربة. كريم ابن كرماء وطيب ابن طيبين. وآل إبر سُربة معروفون ومعروفٌ طيب معدنهم وكـــيف يعاملـــون نساءهم. أما صالح فلا أدري عنه شيئاً منذ أن خرج صغيراً سوى أنه كان قبل سفره لا يترك أحداً من أقرانه دون أن يـــضربه. وبعد سفره تأتي الأخبار عنه بأنه غدا مشرقياً حتى في كلامه. قلب لسانه وغير نفسه. فماذا نريد أكثر لنرده.
- يا سعدى تغير إم رجل لكن كل إم صغار يكبرون ويتغيرون. لقد درس وتعلم وصار يعرف ما لا نعرف.

انتهـــى الحوار بين سعدى وغازي دون أن يقنعها ودون أن يقتنع بمـــا تقـــول. أمـــا زوجها فهو متردد بينهما. لا يود تزويج طفلته ولا يـــستطيع شـــيئاً أمام إرادة أخيه. و لم تتمكن سعدى من الضغط على زوجهـــا لأن غـــازي قد سبقها وفرض ما يريد على أخيه يحيى. وبهذا صارت تلك الصغيرة آمنة مع رجل يعرفونه حينما كان مراهقاً متمرداً في القرية قبل عشر سنوات أو أكثر.

— 5 —

الهروب الدائري

لم يتوقف صالح عن تكرار فعلته التي يقوم بها بذات الكيفية كلما رغـــب في جسد الطفلة التي انتزعها من قريتها دون أدنى شعور بالإثم. ولم يرَ في دموع تلك الطفلة التي بين يديه وتوسلاتها سوى ما يظن أنه مـــن طبائع كل بنات حواء. فقد تعلّم من زملائه وشيوخه وكتبه، أن النـــساء يتمـــنعن وهن الراغبات. ولذا يهوي فوقها وفي داخله زهوٌ بما يفعله ويقينٌ بأنها تريده وإن بكتْ واستغاثتْ.

يا للسموات! ما أشد آلامها، وما أكثر تقلصات وجهها عندما تبكي بهلع وهو يطرح عنها ثيابها باستمتاع. أولم يخطر في باله يوماً أن تمـــنُّعَها الذي وصل حد الصراخ لا ترافقه رغبة بل الألم؟.. أولم يفكـــر في هذا؟ هل لأنه لا ينوي الاعتراف أمام ذاته بأن هناك من ترفـــضه وتشمئز منه وتتمنى موته سراً وإن لم تقوَ على إعلان تلك الأمنـــية لأنها أضعف من أن تخبر أحداً بأمانيها. أم لأنه حتى لو انتبه إلى أنهـــا لا تـــريده فعلاً فالأمر لا يهمه طالما أن إرادته هو تتحقق ونـــشوته تتـــزايد كلما تزايدت آلامها، وكلما أمعن في إخضاعها وإذلالها.

همجيـــته الـــتي اغـــتالت طفولتها تركتها مهشمة.. خانعة.. مـــضطربة.. ومضطرة إلى أن تسمعه فقط دون أن تنظر إليه. لو أن لأذنـــيها جفـــنين لأطبقتهما لتتجنب سماعه أيضاً كما تجنَّبت رؤيته هلعاً.

مـــن سيمنحها قلباً أكبر ولو بقليل ليطيق كل هذا الحزن والألم؟ من يعلمها كيف تستنبتُ أنياباً ومخالبَ لتدافع عن نفسها ما دامت مع رجل يظن أن فحولته الشرسة هي من معاني الرجولة.

صـــالح مـــؤذٍ طالمـــا استطاع الأذى. هو من نوع من البشر غير الـــضروريين على الأرض كالصراصير.. غير قابلين للانقراض كالجراثيم.. غـــير قـــادرين على التعايش مع غيرهم كالعقارب.. وغير راغبين في استخدام العقل.. كحاخامات وُلِدوا وماتوا وهم يتلون ذات الأسفار. لا يقبع في داخله سوى الظلمة. وترتدي نـــزعات الشر والاستبداد في أعماقـــه رداء الحفـــاظ على الأخلاق الفضيلة وحراسة الدين، فيبدو للكثيرين وكأن كل أفعاله ليست إلا لكي يكسب رضا الله.

العفـــة والفـــضيلة والدفاع عن الله ورسوله، ومحاولة إيهام الناس بـــأهم علـــى حافـــة الانهيار لولا ما يفعله من أجلهم صالح ومن على شـــاكلته، كلـــها أهـــداف معلنة يبرر بها المستبد أمام الناس رغباته في الـــسيطرة عليهم والتدخل في شؤونهم، وفرض إرادته عليهم. ليس هذا وحـــسب. بل ويمكّنه من الحصول على المنـــزلة العالية والتقدير الكبير مـــن قـــبل العوام، وأحياناً كثيرة من قبل بعض المسؤولين، فمن يمتطي صـــهوة الـــدين ويتجول مختالاً بمظهره المتمايز عن الناس ويلمح ذلك التقديـــر والانصياع له في نظرات البسطاء واستجاباتهم السريعة لما يأمر ســـيتمادى بـــلا شك. وهذا ما يحبه صالح ويجاهد للحفاظ عليه. تم له ذلـــك لأن العوام هم الأكثرية دائماً، وهم من يُعلون من شأن شخصٍ لمجـــرد أنه قال لهم أنه يعبد الله أكثر منهم. أما النخب المثقفة فلا تنطلي علـــيها مـــثل تلـــك الحبائل. وهذا ما يجعل صالح ومن معه يتوجهون بخطـــبهم ودروسهم إلى قليلي العلم والخبرة والوعي ويهاجمون في تلك الخطب كل ذي عقل منفتح ووعي مستنير.

في نهايـــة الأسبوع الأول من وجود صالح وآمنة في الرياض زاره بعض أصدقائه. وصنعت آمنة لهم القهوة وحضّرت التمر كما علّمها. لم تقـــدم القهوة بنفسها لأنها صارت تعرف أن ما كانت تفعله أمها لا يمكن أن تقوم به هي الآن. لم ترفع صوتها ليأتي صالح ويأخذ ما صنعت فهـــي تـــدرك أن صوتها ليس للكلام ولا للغناء كأصوات نساء قرى الجنوب. صوتها الآن للهمس والبكاء فقط.

صفّقت بيديها بالقرب من باب مجلس الرجال حيث يجتمعون. خرج صالح على إثر صوت التصفيق وأخذ القهوة والتمر ثم استدار عائـــدا إلى ضيوفه، وعندما سد بجسده الباب بحيث لا يراها من في داخل المجلس. ولا يراها هو لأن ظهره إليها، خرجت آمنة من باب البـــيت المقفـــول دائمـــا بالمفتاح إلا في حال كان هناك زوار من الرجال.

هـــرولت بأقصى سرعتها في شوارع ترابية تحيط ببيوت متجاورة حـــول بيتها، استمرت تهرول وعيون من في الشوارع تلحظها إلى أن جلـــست على عتبة أحد الأبواب. لم تبتعد كثيرا. لكنها ظنت ذلك. جلـــست حـــين لم تدرِ إلى أين تهرب. وكيف ستصل إلى وطن "آل وادِح" من جديد.

لم تكـــن تعلم أنها تخرج من شارع لتعود إليه بعد أن تدخل إلى آخر في ذات الحي المتواضع. كانت كمن يمشي معصوب العينين بشكل دائري فيعود إلى ذات المكان الذي بدأ منه دون أن يدري.

اعتقدت أنها بهرولتها تلك قد ابتعدت كثيراً عن سجنها. ظلت جالـــسة على عتبة الباب تنظر إلى أولاد يلعبون الكرة أمامها بأقدامٍ حافـــية ويثيرون حولهم الكثير من الغبار. و لم تمض دقائق حتى رُفع آذان المغرب.

انفـــتح الباب الذي تجلس آمنة على عتبته واصطدمت قدم رجل مسن يريد الخروج إلى المسجد بظهرها. أبدى الرجل شيئاً من الدهشة وسأل الطفلة:

- من أنت؟

وقفت وقالت له وكأنها تعرِّفُ بنفسها لأحدهم في قريتها:

- أنا آمنة إبرة يحيى إبر آل مسفرة إم عسيري.
- وأين أبوك؟ أين أهلك؟
- في أم وطن.. في عسير.

كـــان الـــرجل المسن مستعجلاً يريد الذهاب إلى المسجد لصلاة المغـــرب. لذا فقد أغلق باب بيته وتركها مغادراً إلى صلاته. وبعد أن عـــاد وجـــدها جالسة في مكانها. أدار المفتاح في الباب ثم رفع صوته منادياً من بالداخل:

- يا ولد..

ودخـــل وأدخلـــها معه. كانت آمنة تعرف هذا النداء لأن صالح إذا جـــاء ومعـــه أحد من أصحابه صرخ بها قبل أن يدخل من الباب مرددا بصوته الذي يخيفها: "يا ولد" لكي تبتعد. وها هي الآن تسمع ذات النداء.

لم يكـــن أمام آمنة خيار غير الذي قرره الرجل وزوجته العجوز "هيلة". تلك المرأة الطيِّبة التي ترك الجدري علاماته على وجهها الهادئ. إذ بعـــد أن استمعا إليها وأكرماها بتقديم الطعام والشراب لها قررا أن يعيداها إلى منـــزل زوجها صالح. ولم يكن من الصعب الاستدلال على بيـــته في حارة صغيرة كل من فيها يعرف أن ذلك البيت لرجل تزوج وجاء بعروسه قبل أيام.

تعلمـــت آمنة من الصفعة التي أسقطتها أرضاً بعد أن هوت كف صالح على وجهها إثر خروج المرأة والرجل اللذين أحضراها أنها لن تجد

مكاناً آخر تذهب إليه بعد اليوم سوى قبرها. كما وتعلمت أن خروج النساء هنا لا يكون إلى أي مكان كما في قريتها بل إلى أماكن محددة سلفاً ويأخذن عليها موافقة الرجال قبل الخروج. ولا بد أن يرتدين العباءة السوداء ويغطين وجوههن بأغطية سوداء أيضاً حتى ولو لم يبتعدن عن المنزل. كل هذا شرحه لها صالح من جديد بصراخ أرعبها. ثم صار يتأكد من إغلاق باب بيته بالمفتاح كلما دخل أو خرج.

ليس أمام تلك الطفلة إلا الاستسلام، لتمضي بها الأيام وتكبر شيئاً فشيئاً، لكن ليس مثلما تكبر الصبايا. إذ لم يجربن مثلها مرارة الوحدة وقسوة الانفراد إلى أن صارت خاوية. تبقى في منزلها لا تتحدث إلا إلى جدرانه وحولها هدوء قاتل. صار داخلها أجوف يمتلئ بالفراغ بعد أن تبددت صور قريتها من روحها مع الوقت وخفتت أصواتها وذابت معالمها. هل خرجت من قريتها أم خرجت القرية منها؟ يا لشدة اليتم الذي تشعر به آمنة بعد أن توغلت الوحشة داخلها. يتم يجعلها تبكي دون أن يعلم أحد. لا أحد يرى تقلصات وجهها لثوان قبل البكاء. لا أحد يسمعها وهي تبكي دون سبب تعرفه إلى أن يعييها البكاء.

لا تجيد آمنة الإفصاح عن مكنونات قلبها الصغير الموجوع. وحتى لو أجادت فلمن تبوح وهي مع رجل تخاف أن يأكلها إن جاع ولم يجد طعامه. رجل تصمت في وجوده إلى أن اختفت الكلمات من فمها.. ذابت.. تلاشت لطول سكوتها، ولم يعد للمعاني مفردات تدل عليها، لذا لا تشرح آمنة شيئاً.. ولا تستفسر عن شيء. وأيضاً.. ربما هي تصمت لأنها تدرك بفطرتها أن لا جدوى من الحديث مع الذئاب.

وثـــق صالح بالرجل وزوجته العجوز هيلة بعد أن أعادا إليه آمنة بصمت ودون فضائح أمام الجيران. هذه الثقة لا تعني أن يسمح لزوجته بالخروج مع جارتها كلما شاءت ذلك. لكنه لم يستطع رفض زيارات هـــيلة لها عصراً بعد أن حاولت زيارتها في الصباح وهو في دوامه و لم تستطع الدخول لأن الباب كان مغلقاً بالمفتاح.

الأقـــدار ليـــست دائماً لصالح المساكين. ومع ذلك ها هو القدر يجعـــل لـــتلك الطفلة البائسة جارة طيبة تفكر كثيراً فيها وتبذل ما في وسعها لزيارتها. لقد اضطرت هيلة إلى الاستعانة بزوجها ليكون وسيطاً عند صالح لكي يسمح لها بزيارة آمنة.

تعلمـــت آمـــنة من جارتها الوحيدة التي تزورها إشفاقاً عليها كـــيف تطبخ الرز مع قليل من اللحم أو الدجاج، وبعض الأطعمة الأخرى. وكيف ترتب بيتها وتنظم أشياءها القليلة. أحضرت هيلة معهـــا ذات زيـــارة مكـــواة كهـــربائية استطاعت آمنة حين رأتها تستخدمها أمامها أن تكتشف الإجابة على السؤال الذي كان يدور بخلـــدها و لم تطـــرحه على أحد: "لماذا تبدو ملابس أمي هيلة دائما وكأنهـــا جديـــدة". كانت تناديها بـــ "أمي هيلة" كما يفعل أهل قريتها مع كل كبار السن.

حدثـــتها هيلة عن الشؤون النسائية التي لا تعرفها آمنة بعد. ولأن صـــالح قـــد وافق على هذه العلاقة فقد تبعتها بعد عدة أشهر علاقات أخرى قليلة ومحدودة بالجارات الأخريات.

سمـــح لها باستقبال بعضهن أثناء وجوده في المنـــزل عصراً. يجلس منـــزوياً في مجلس الرجال متململاً يقرأ في كتبه وكتيباته وأوراق يرتبها حـــوله إلى أن تغادر الزائرات. وأما زيارتها هي لهن فقليلة جداً تكاد لا تتجاوز المرة الواحدة كل شهر أو شهرين، ومشروطة بأن تكون برفقة

هيلة وأن تعود قبل المغرب لكي لا تتصادف عودتها مع خروج الرجال من بيوتهم إلى المسجد.

تعلمـــت آمنة من جاراتها تطريز زهور صغيرة على قماش أبيض. زهور بلا حياة حتى وإن أشبهت في ألوانها زهوراً اعتادت اللعب بينها في ســـفوح قريتها. ثم امتلأ بيتها بالمفارش وبيوت المخدات وشراشف السرير كلها بتطريز لا بأس بجودته.

أما صالح فقد استمر في عمله العسكري في الرياض على غير رغبة مـــنه إذ طالما كان يحلم بسكنى المدينة المنورة ليكون قريبا من المسجد النبوي ومن الدروس التي يحب حضورها ومن الشيوخ الذين يحلم بثني ركبتـــيه في مجالسهم وتلقي مزيدا من العلم منهم وعلى رأسهم شيخه جهـــيمان. وبـــرغم طلبات النقل التي يتقدم بها بشكلٍ رسمي، ظل في مكانه و لم يحقق شيئاً مما يتمنى.

لم يحـــاول يـــوماً أن يكون متسامحا مع أحدً.. أو معطاءً في أي موقـــف، و لم يسمح لزوجته بأن تتعلم شيئاً يخرج عما سيعود عليه هو بالفائدة. لم يرها إلا تلك الجاهلة الغبية التي حاولت أن تطفئ المصباح الكهربائـــي قـــبل أن تنام بالنفخ عليه كما تنفخ على شعلة المصباح في قريتها فتنطفئ.

سمعته يقهقه في تلك الليلة الأولى التي أبى فيها النوم أن يزورها إلا في ظلام حالك لعلها تختبئ من نظراته، فلم تدرك سبب ضحكه واســـتمرت في النفخ.. ثم توقعت أن بُعد المصباح المعلق في السقف وقصر قامتها هو ما يحول دون إطفائه، فأحضرت كل ما في الحجرة من المساند والوسائد وصعدت فوقها وظلت تنفخ. ليلتها قام صالح مـــن مكانـــه بتبختر وشعور بالتفوق عليها يملؤه. قال لها وأنفه إلى الأعلى:

- يا غبية.. يكفي أن تضعي يدك على هذا المفتاح هنا لتشعلي الضوء أو تطفئيه.

لا تذكر آمنة أنه ناداها باسمها أبداً، إذ لها عنده الكثير من الألقاب والكـنى المهينة. أهونها قوله لها: "يا ولد" لتنـزوي في أبعد مكانٍ من البيت ما دام برفقته بعض أصدقائه. ولكثرة ما نعتها بتلك النعوتٍ غير الصالحة حتى للحيوانات صدقته آمنة.. آمنت بجهلها وعلمه، بانحطاطها وتفوقه، بغبائها وذكائه.

يلتقي صالح بأصحابه ليتباحثوا أمورهم في السر دائماً وقد يتطلب الأمر أن يسافر أحياناً. فيشعرها هذا الغموض الذي يحيط بصالح بقوته.

كـل مـا لديها من خبرات لم يتجاوز خبرات طفلة قروية لعبت على التلال وعاهدت الأحبة على أن تكتم سرهم وأن تنقل أخبارهم. لم تنضج أحلامها.. بل ولا تعلم ربما أن للبشر أحلاماً يريدون تحقيقها. لـذا انحـصر ما تريده في أن تترك هذا المكان وتعود إلى أهلها الذين سـلّموها إلى هذا الرجل. لم تشعر بحنق عليهم وظلت تحبهم. لم تنتبه بعد إلى أنهم هم من أخطأ في حقها.

تعلمت من والديها كيف تصلي. وهددها صالح بالضرب إن نامت يوماً دون أداء صلاة العشاء. صارت تتوجه إلى الله في كل صلواتها الخمس لتـرجوه مخلصة في الدعاء أن يعيدها إلى أهلها. لا تردد من الدعاء سوى "يـا رب ردني لأهلـي" لكنها تظن أن دعواتها لم ترتفع كثيرا لتصل إلى السماء لأنها لا تدري كيف تقولها بما يكفي من الورع ليقبلها الله منها.

أخبرتها هيلة أن الناس يكتبون رسائل إلى بعضهم وأن على صالح أن يكتب لها رسالة ويبعث بها إلى أهلها. لم تستوعب آمنة الفكرة إلا بعد الكثير من الشرح ثم طلبت من صالح أن يكتب رسالة لأهلها ففعل بعد وقت من المماطلة مدعيا انشغاله.

أرسل الرسالة إلى عنوان أحد أصدقائه في أبها دون أن يقرأ لها شيئاً مما تحويه رسالته. وكتب على غلافها بعد العنوان (ومنه إلى وطن آل وادِح ويسلم إلى يد العم يحيى إبر آل مسفرة).

بعد شهر تقريباً جاء صالح من عمله ومعه رسالة من أهلها. أخبرها وهو يخلع بدلته العسكرية ويرتدي ملابساً للبيت، فتحرقت شوقاً إلى معرفة ما فيها لكنه أمرها بإحضار طعام الغداء لأنه جائع. تناول طعامه وهي تنتظره ليقرأ الرسالة لكنه قرر أن ينام أولاً.

ومع أن النوم بين الغداء وأذان العصر لن يزيد على النصف ساعة حتى في فصل الشتاء. إلا أن الدقائق كانت دهوراً بالنسبة لطفلة تنظر إلى أوراقٍ قيل لها إنها جاءت من أهلها. وعندما استيقظ وجدها جالسة في ذات الحجرة تقلب الأوراق بين يديها ولا تستطيع فهم ما بها.

- لن تستطيعي قراءتها يا بقرة.

هكذا قال لها ثم خرج من الحجرة ليتوضأ ويصلي العصر في المسجد.

لم توجعها كلماته. لقد اعتادت على أنها بقرة. كما وقد علمها أن للرجل شتم زوجته أو ضربها متى شاء لأن الله بذاته هو من أعطى الرجال حق تأديب النساء. لم تستغرب و لم تتساءل عن سبب تراكم الحقوق في إحدى الضفتين وخلو الضفة الأخرى من أي حقٍ لمن هن فيها ما عدا الحق في الأكل والشرب. كل ما يشغلها الآن هي هذه الخطوط التي يستطيع صالح وحده أن يخبرها ماذا تعني لكي تطمئن على أهلها.

انتزع الورق فجأة من بين يديها بعد أن عاد من الصلاة وشرع يقرأ:

"ابننا العزيز صالح. بعد السلام والتحية نسأل الله أن يصلك خطنا هذا وأنت في أحسن حال. "الله الله"[1] في بنتنا.. هي أمانة عندك وأنت خير من يرعاها لما علمناه عنك من خوف من الله وحرص على رضاه.. أمـــا كلامنا الموجه إلى ابنتنا فنقول لها: ابنتنا العزيزة آمنة. بعد السلام والتحـــية، نطمئنكم أن الجميع هنا بخير ويهدونكم السلام. فرحنا كلنا حـــين وصلنا خطكم الكريم واطمأنت نفوسنا حين علمنا أنك مرتاحة في بيـــتك وأنه لا ينقصك شيء. أمك تدعو لك دائما وتقول لك إنها في شـــوق إلى رؤياك. وأخواك فاطمة وإبراهيم لا يتوقفان عن ذكرك بـــالخير دائماً. أما أختك عَسَلَة وخالتك غالية فلا تتوقفان عن السؤال عـــنك كلمـــا زارتانـــا.. الأمطار عندنا كانت غزيرة فامتلأت الآبار وجـــرت السيول والبلاد فيها خير كثير. أكل منها الناس والطير. ولا زال هـــناك ما يكفي لسنوات قادمة ولله الحمد عدد ما خلق. في الختام نـــستودعكم الله وننتظر منكم الزيارة فإن لم تتيسر في القريب العاجل فابعثوا بخط ولو كل شهرٍ مرة لنطمئن عليكم وعين الله ترعاكم.

مرسَل من الوالد يحيى إبر آل مسفرة

كتبه: شاكر سمعان

أنـــصتت وهـــي ترتجف، ثم احتضنت الرسالة بعد أن أنهى صالح قراءتها بجمود ووضعها على "المركى" وخرج.

"أهلي بخير" تمتمت بينها وبين نفسها ثم عادت إلى الورق تتأمله.

كانـــت تستعين بالبكاء في الأشهر الأولى من غربتها. لكنها مع الأيام لجأت إلى التخفيف عن نفسها بالتجاهل. تجاهلت ذاتها وحنينها. تجاهلـــت حتى أنها إنسانة. وبمرور الأيام ضاعت منها المعاني. لم يعد في

(1) ترديد لفظ الجلالة (الله) مرتين تعني: كن حريصاً على كذا – أو حافظ على كذا.

قاموســـها كلمات كـ "السعادة أو التعاسة أو الحزن أو الفرح". كان في داخلـــها مـــا لا تجـــيد التعبير عنه فتضطر إلى تجاهله أيضاً. ولكثرة تجاهلـــها بدأت الأشياء في داخلها تتلاشى. ولا خيارات لديها لتقلص مـــساحات الحـــنين إلى أهلـــها إلا بالتبلد. كل يوم يذوي جزء ما في أعماقهـــا. وتُمحى مساحات من الشوق. كادت أن تتحول مع الأيام إلى شيء لا يحس.. لا ينفعل.. لا يضحك ولا يبكي.. لا يغضب ولا يفرح؟

لم تكـــن مـــرتاحةً نهاراً بسبب وجه صالح العابس دوماً وصمته المستمر، وإذا نطق فلن يخرج ما يقوله عن أمر من أوامره مسبوق بنعتٍ مهـــين. وبحلول المساء ينتابها ضيق ومرارة بسبب ما يفعله بها. صارت تعرف عاداته وتعلم أنه يخصص النهار للعمل والصلوات ولقاء الأصدقاء ويخـــصص أول اللـــيل لامتطائها ثم ينام مباشرةً. لذا فالضيق يتزايد إذا اقترب غروب الشمس.

أوصتها هيلة بأن تستسلم له وأن لا تقاومه أبدا، وأخبرتها أنها لا تجـــني من مقاومتها تلك سوى غضب صالح الذي سينكد عليها إن لم يـــشبع رغباته. أخبرتها أيضا أن كل المتزوجات يحدث لهن ما يحدث لها فسألتها بصدق طفولي:

- ولماذا نتزوج إذاً؟ ليتني بقيت راعيةً مع غنمي.

زجرها صالح عندما وجدها تحمل مخدة صغيرة وتناغيها كما كانت تناغي عرائسها ثم تلف المخدة في خرقة بالية وتتمدد إلى جوارها لتنام.

- لست طفلة لكي تلعبـــي كالأطفال، أنت امرأة متزوجة ومسؤولة عن بيتك وزوجك. هل هذا مفهوم؟

لم يكـــن مفهوما تماماً ما قاله لها. فلا تزال آمنة ترغب في اللعب بالعرائس.. لا تريد أن تكون مسؤولة، لكنه واقعها الذي صارت فيه.

ينام صالح بعد أن يؤدي صلاة العشاء كل ليلة لأنه يستيقظ مبكراً ليخــرج إلى المسجد فجراً وبعد الصلاة يمسك المصحف ويقرأ ما تيسر لــه. ثم يستعد للذهاب إلى عمله. أما النهار فلا يفضل النوم فيه. ينام لــيلاً فقــط بعد أن يغشاها كسقف يهوي عليها من الأعلى، يصدر فحيحاً كأفعى تقاطر لعابها وإذا ازداد تسارُعُ أنفاسه تحول الفحيح إلى همهمة وعواء مقزز إلى أن ينتهي.

مرت ليالٍ كثيرة إلى أن اعتادت على طريقته تلك فصارت تتأمّل السقف.. تعد ألواح الخشب المتجاورة في محاولة منها لتجاهل ما تشعر بــه مــن ألم، وتنتظر مرور الدقائق لينهض من فوقها. تتركه في مكانه وتجرجر ذلّها لتسرع إلى الاغتسال لكي لا يغضب، إذ سبق وأن أظهر غضبا كاد يوقفُ قلبها ذات ليلة لأنها نامت وهي جُنب.

تستــسلم بخنوع لأن هذا ما أوصتها به هيلة، ولأن صالح أكد لها بأن رفضها أو مقاومتها له تعرّضها للعن من الله وملائكته التي تهبط من السماء كل مساء لتلعنها إن خالفت له الأمر أو عصته في شيء ثم تعود تلــك الملائكــة إلى السماء السابعة. ابتلعت التعليمات بكثير من الهلع والاســتكانة. ولم تستغرب. لم تتساءل عن سبب تضامن الملائكة مع صالح وتأييدها لما يقوم به.

بمــرور الــوقت لم يعد يداهمها إحساسها الأول بالرغبة في الثأر لكرامتها. لا تدري أين ذهب ذلك الشعور، نسيت رغبتها مع الأيام. إنها الآن فقط تتألم وتود أن تبكي لشدة الألم، وتشعر بكثير من الضيق والانـــزعاج لالتــصاق صالح بها. لكنها تقول لنفسها كما قالت لها هيلة: "مجرد لحظات وتنقضي".

بعــد مــرور عام أو أكثر كانت علاقة آمنة بهيلة كعلاقة الطفلة بــوالدتها ولهــذا انتظرت زيارتها أياماً عديدة لتطلعها على أمر بلوغها

عندما فاجأها دورتها الشهرية لأول مرة. تطلعها على الأمر الذي طالما حدثتها هيلة عنه وعلمتها كيف تتصرف حياله.

تذكــرت آمـــنة أحاديث بنات قريتها عن شؤونهن الخاصة وما أخـــبرنها بـــه عن هذا الأمر. تذكرت أختها الكبرى "عسلة" قبل أن تذهب إلى قرية زوجها وكيف كانت تأكل التمر في نهار رمضان أمام والدها فيبتسم الأب ولا يعلق.

الأيام عند آمنة تتشابه، فصالح في عمله حتى الثانية والنصف ظهراً وهي في البيت دائماً أو مع جاراتها بعد أن وافق على خروجها مع هيلة وقت الضحى أحياناً بشرط أن يتحدث إليه زوج هيلة عند التقائهما في المـــسجد ليخبره أن زوجته ستذهب معها. ثم سمح لها باستقبال بعض الجارات اللواتي توسم في أزواجهن الخير من خلال صلاتهم في المسجد إلى جواره.

علـــى أن جاراتها يفضلن استقبالها في بيوتهن على زيارتها في بيتها وهي أيضا تفضل هذا لأنهن جميعا يردن متابعة التلفزيون الذي لن يوافق صـــالح علـــى خـــروجها إليهن لو علم بأنها تشاهده معهن. ليس هذا وحسب بل سألها:

- هل شاهدت التلفزيون عند الجيران؟

استطاعت أن تكذب وقالت:

- لا.. سمعتهم يتحدثون عنه فقط..؟
- يعني.. الجيران ليس عندهم تلفزيون؟
- لا أدري.. لم أره.. إن كـــان عندهم فهو في حجرة غير تا نجلس فيها مع بعضنا.

لم يكـــن صـــالح وحده هو من يخشى التلفزيون. لقد تعاظم رفض التلفزيون وغير التلفزيون من مظاهر الحياة التي طرأت على الناس بعد ظهور

طبقة تنعم بالثراء وبالرخاء وسعة العيش وشيوع مظاهر الترف في المجتمع. ذلـــك الـــتغير أدى إلى ظهور ردة فعلٍ معاكسة جاءت كرفض لما أحدثته "الطفـــرة" في مجتمع أعتاد التقشف وألف الخشونة، ثم فوجئ بثراءٍ مفاجئ أدى إلى العديـــد من التغييرات التي أزعجت من بطبعه يريد أن يبقى كل شيء على حاله. وبهذا فإن ذلك الزهد الذي نادى به صالح ومن معه ليس مجـــرد مـــيل فطري إلى تقوى الله أو حالة إيمانية يرتضيها الفرد لنفسه، إنها طريقة للتصدي لكل مظاهر التغيير التي بدأت في تشكيل المجتمع من جديد.

صـــالح يلاحظ كل ما يجري حوله فيتزايد الغضب في أعماقه. ما تعلمه في الجامعة ومن شيخه جهيمان يفيد بأن كل ما يجري من حوله حـــرام.. إذ إن هؤلاء المترفين الذين يتزايدون يوما بعد يوم.. يفعلون المنكـــرات دون قلق أو خوف.. هو يرى سياراتهم وبيوتهم ويسمع عن اســـتقدامهم لخادمـــات من شرق آسيا يعشن داخل البيوت كاشفات الوجـــوه. هم أيضا يعلقون الصور على جدران بيوتهم ويستمعون إلى الأغاني ويشاهدون التلفزيون، بل أن لدى بعضهم سينما لعرض الأفلام داخل حجرات المنازل.

وكـــان أشـــد ما يؤلم صالح ويدفعه إلى الإصرار على موقفه هو تدافـــع كثير من السعوديين للسفر إلى خارج الحدود لمجرد التنـــزه أو الـــتعلم. وتلـــك منكرات تؤدي إلى الهلاك فيما يعلمه صالح ومن على شـــاكلته. وتلـــك التحولات التي تجري في المجتمع جعلته يزداد تجهماً وعبوســـا، وتتضاعف شكوكه في الناس وسلوكهم. فيبعد زوجته عن الـــناس ويختار بيتاً في أشد الأحياء فقراً ثم يغلق الأبواب دونها خوفا من أن ترى أو تسمع أو تتأثر ببعض تلك التغييرات.

لـــيس في منـــزل صالح سوى راديو صغير سمح لآمنة باستخدامه بشرط ألا تستمع إلا إلى إذاعة القرآن الكريم. وبرغم أنها وعدته بذلك

صـــارت تغير الإذاعة بعد أن تتأكد من أنه خرج إلى عمله أو أنه نائم. تتـــنقل بين المحطات. تتابع المسلسلات بانتظام ويشدوا قلبها مع بعض الأغنيات.

تـــنظف بيتها كل صباح وتطبخ الطعام والراديو يأتي بما في العالم مـــن أحـــداث وأغنيات وبرامج. مرت ثلاثة أعوامٍ وآمنة تعيش ذات الحياة، تتشابه أيامها إلى حد التطابق. أصبحت في بدايات الثالثة عشرة من عمرها ولم يتغير شيء في حياقا البائسة منذ قدومها. أما في عامها الرابع فقد أنجبت طفلة.

وافق صالح على أن يكون اسم ابنته هناء بعد أن رجته آمنة كثيرا. ولم ترجه في شيء من قبل غير كتابة الرسائل إلى أهلها.

لم يـــسألها عـــن ســـر تعلقها بهذا الاسم، ولو كان سأل لما سمع الإجابـــة لأنهـــا لن تخبره بالطبع بمتابعتها للتلفزيون عند الجيران وحبها الـــشديد للمطرب هاني شاكر. إذ كادت أن تصرخ أمام جاراتها ذات مـــرة حين عرض التلفزيون بعض أغنياته. وسرَّها كثيراً تعليق جاراتها علـــى وســـامته، ثم صـــارت تجمع صوره من المجلات التي تجدها عند بعضهن. تقص الصور وتعود بها إلى بيتها.. تبحث عن مخبأ. ولأن بيتها قلـــيل الأثاث، فلا دواليب ولا أرفف ولا سجاد على الأرض. لم تجد أمامها إلا كيس الأرز فقط. تطوي أوراقها وتدفنها في الكيس.

والآن أصـــبحت هناء هي الحياة في عين أمها التي لا تزال مراهقة في الـــرابعة عـــشرة من عمرها. تحملها كما كانت تحمل عرائسها في القرية. تهتم بها.. تحبها.. تتأملها كثيراً إلى أن تغفو بقربها.

أخـــبرها صالح ذات مساء بأنهم سينتقلون إلى بيت آخر أكبر من بيتهم هذا لأن اجتماعاته بأصحابه صارت أكثر ولديه كتب وأغراض مخـــتلفة يريد أن يجد لها مكانا آمنا. وكان لديها فضول لتعرف ماذا في

تلك الصناديق التي يأتي بها أحيانا ثم يخرجها من بيته بعد أيام لكنها لن تجرؤ على السؤال أبداً ولم تجرؤ أيضاً على فتحها.

بقيت آمنة على علاقة طيبة بجاراتها حين انتقلت إلى بيتها الآخر. إذ إن بيتها الجديد في الشارع الثالث الموازي لبيتها القديم. بيت له ذات التصميم لكنه أكبر بغرفتين جعل صالح إحداهما مخزنا لصناديق مغلقة وكتب متناثرة وأوراق كثيرة. يبقى فيها بعض الوقت ثم يغلقها بالمفتاح ولم يسمح يوما لأحد سواه بدخولها. وذات مرة ترك بابها مردودا وخرج إلى الحمام ليعود بعد دقائق فقط. في هذه الأثناء أطلت آمنة برأسها لترى ما عنده.

كانت أرض الحجرة مملوءة بأسلحة متنوعة أخرجها صالح من صناديقها ليـنظفها ربما أو يتفقدها أو يحشوها بالرصاص. أو ليرتبها بطريقة أخرى غير التي هي عليها. من أين حصل صالح على كل هذا السلاح. وماذا يريد به. ولمن يعطيه عندما يخرج الصناديق من البيت. كلها أسئلة وردت في ذهنها للحظة.

تعرف آمنة أشكال بعض البنادق كالتي تشبه ما لدى رجال قريتها. وبعضها غريب الشكل لم تره إلا في تلك النظرة الخاطفة كثير من الأشياء والأوراق والكتب فلن تعي منها شيئاً.

هرولت إلى جوار ابنتها في الوقت المناسب. وقبل أن يخرج صالح من الحمام فتحت مذياعها على إذاعة القرآن الكريم.

— 6 —

نستطيع أن نخمن - من أي البلاد هؤلاء - استناداً إلى سلوكهم

بنى الله جناناً على الأرض أيضاً ولم يكتفِ بفردوسه الذي في السماء. لكن وبعد سنوات لا عدد لها من السكينة والرغد فيما شيَّد الله من بهاء في أبها وما حولها. ابتُليتْ بقلوبٍ متقيحة وملامح كالحة تهوى الخراب وتسعى للأذى والتضييق، تكاثرتْ كوباءٍ يهلك الجميع بعد أن أجاد جهيمان وأعوانه نثرهم في كل مكان ليُكرروا ما قاله على آذان الجميع. استنسخ أولئك الجهيمانيون أنفسهم ممن استجاب لهم من الناس. كفايروس يرغم الخلايا التي يستعمرها على أن تنتج نسخاً عنه.

كان كثير من الناس في قرية آل وادح يتماسكون بشدة، كردة فعل لهذا الاجتياح المفزع، لكي يمسكوا بذلك الكل المتجانس من القيم والأعراف التي نشأوا عليها وصارت مرجعا لكل فرد منهم.

هذا التماسك يعينهم على أمرين. الأول هو مقاومة أفكار دخيلة مغايرة لما يعرفون أتت من مكان ما لسبب ما لا يعرفونه. لكنها أفكار تدعو إلى ترك كل ما يقومون به، لكي يعيشوا حياة جديدة لا يحتملون حتى تصورها. والثاني هو أنَّ تماسكهم يعزِّيهم كونهم في قلق دائم من اغتراب فتيان القرية الصغار. إذ منذ أزمنة بعيدة وإلى ذلك الوقت يستيقظون أحياناً على خبر رحيل أحدِهم ليدرس في بلاد بعيدة لا يعرفون اسمها لكنهم يقولون إنها "وراء إم بحر". ثم صاروا يسمعون بمن

يـــسافر ليتعسكر في جيش "ابن سعود" أو ليصبح موظفاً في أي قطاعٍ من القطاعات الحكومية في مدن بعيدة عن قريتهم.

أكثر أهل القرية لا يعرفُ من الأرض إلا تلك القرى المتحاورة حـــول قـــريتهم أو تلك التي على المنحدرات غربا في منطقة تهامة بالإضـــافة إلى مكـــة والمدينة. وتنحصر أحلام السفر لديهم في أداء الحج والعمرة مرةً في العمر. فإذا فكر فتىً بالسفر طلبا للرزق كتقليدٍ لآخرين هجروا قُراهم من قبل، تساءل الكبار عن أي رزق يبحثُ وقريتهم لا ينقطع عنها المطر إلا في بعض أيام السنة. ومخازن أهلها مملـــوءة بالحبوب التي تكفيهم دهوراً حتى ولو لم يزرعوا غيرها. ثم إنهم لا يتوقفون عن البذر والحصاد وجني الحبوب والثمار بأنواعها. ثم كـــيف يـــسافر هؤلاء الصغار وقريتهم في أعين الكبار هي أجمل مكان على وجه البسيطة. فليس هناك ليل أجمل من لياليها ولا نهار أجمل من نهاراتها.

صـــباح القـــرية مختلف عن أي صباح على الأرض. فعند بدء انـــبعاث النور، وقبل أن تتسلل الشمس من خلف الجبال لتصل إلى البـــيوت الحجـــرية السامقة يخرج الناس من تلك البيوت مبتسمين، مشرقة وجوههم بعد نومٍ غادر أعينهم وقد ملأها طوال الليل ليعيد إلى أجـــسادهم النشاط والقوة. يخرجون ليستنشقوا رائحة الأرض التي رواها المطر فتمتلئ جنباتهم بنسماتٍ منعشة تدفعهم إلى الابتهاج مـــنذ بدء ارتماء نور الصباح على حقولهم وإلى أن يعودوا إلى بيوتهم في المساء.

تخـــرج الطيور بريشها الزاهي محلّقةً مغردة. وتتطاير الفراشات لتلون بقعاً في الفضاء بأجنحتها المشتعلة كالوهج. أرضهم خضراء.. وسمـــاؤهم تـــتلون دائماً بأطيافٍ سبعة، حين تُرسل الشمس شعاعها

الهـــادئ بعد المطر ليشكل الضوء وقطرات الماءِ قوسا ملونا كبيراً يمتد مـــن أقــصى شمال القرية إلى أقصى جنوبها يسميه الناس هناك (سِيد اقدح)[1].

عـــند الشروق تتراكض الأغنام متجهة إلى السفوح وتطلق بعض الـــشياه ثغاءً تنادي به صغارها فيختلط في صباح القرية صخب الطيور وصـــوت الأغـــنام. حيـــنها تخرج كلُ فتاة بعد أن اعتنت بمظهرها.. وارتـــدت مـــنديلها الأصفر.. ومررت مروداً الكحل في عينيها، لتنظر حـــولها إلى أن ترى فتاها يومئ لها من بعيد، يهز رأسه أو يلوِّح بيده، يقول لها وهو صامت: صباح الخير. ثم يواصل طريقه متجهاً إلى عمله، وقـــبل أن تلوِّح له وتبتسم تجيل النظر حولها من جديد لتتأكد من أن أحدا من الكبار لم يلاحظ ما بينهما من إشارات.

تخـــاف الشمس أن تزعج وجوه الصبايا بحرارتها إن هي أشرقت. وتخاف أن يبقين في العتمة إن تأخرت، فكان خيارها الأوحد والأجمل أن تـــشرق لكن من خلف السحب دائماً. لتهبهم نورا بارداً هادئاً لا يبدد النسمات العبقة برائحة الأرض ولا يحرم الشجر والبشر من الضوء والدفء.

تحـــول معنى الفلاحة والمطر والمحاصيل والشجر والثمر والمواشي والطـــيور، وعلاقـــات الناس بالأرض وببعضهم إلى عقيدة متجذرة في لاشـــعورهم الجمعـــي داخل القرية. وهذا ما يجعل حياتهم تسير بذات الاستقرار سنوات لا أحد يعرف عددها.

ظـــل ذلـــك الاســـتقرار صـــامداً حتى حين أتي "إم ترك" كسرايا عـــسكرية تنـــصب خياماً على سفوح الجبال وتجبـــي المحاصيل من أصـــحابها ثم تـــرحل. لم يكن مكوث أولئك الجنود يتجاوز الموسم

---

(1) (سيد أقدح): قوس قزح.

الواحد. وقد يعود أحد أولئك الجنود مع عائلته ليستقر في قريةٍ هنا أو سفحٍ هناك.

لكن اغتراب الفتيان هو المقلق. ليس هذا وحسب، بل واغتراب الفتيات مع أزواجهن أيضاً. إذ كيف يترك الفرد أرضاً مزروعة تنتج بُرا وذرة وهنداً وشعيراً وبلسن وثمار رمان وتفاح وفركس وعنب وحماط وبرشوم وغيرها، ليحل بأرضٍ قاحلة لا شجر فيها ولا ثمر مهما كانت الراحة التي سيجدها إن هو سافر. لذا فسكنى الفتيات مع أزواجهن في قرىً مجاورة يبقى مقبولا. أما خروجهن إلى ما هو أبعد من هذا فيصيب الكثيرين بشيء من الحيرة والتساؤل. وهذا ما جعل أهل القرية يستغربون ويستهجنون تصرف سعدى وزوجها يحيى. إذ كيف ارتضيا لطفلتهما زوجا ينوي أخذها إلى إم مشرق لتعيش غريبة بعيدة وغيرها من بنات القرية تنعم بزواج مستقر وبزوج محب لا يبعدها عن أهلها إلا إن كان في قرية مجاورة وتستطيع أن تراهم كلما شاءت ذلك.

تتجمع الصبايا حول الآبار وعند أطراف الوادي وفي الحقول وعلى رؤوس الجبال. وكلما اختلين ببعضهن تحدثن عن أحبتهن. فتخبر كل واحدة الأخرى ماذا قال لها حبيبها آخر مرة رأته فيها. وهل رأته وهو في طريقه إلى حقل أبويه وهي في طريقها إلى حقل أبويها أم التقيا وفق موعد محدد.

- كل يوم ترين غرابش يا ثريا. أما أنا فليس لي حظ مثلش.

هكذا قالت تركية لصديقتها "ثريا" ابنة غازي التي صرخت بها ضاحكة.

- ليس غراباً يا تركية.. إنه نسر. ألا تميزين بين إم نسر وإم غراب يا خَبَلَة. لكن من يلومش وقد خبّلش[1] "تمر بيشة"؟

---

(1) خبّلش: جعلك مجنونة.

تركية فقط هي المحرومة من بين فتيات قريتها من بدء يومها برؤية حبيبها عند شروق الشمس وقبل أن تشرع فيما يوكله لها أهلها من أعمال. لأن مهدي من قرية أخرى. إنها تراه في الليل ونادراً ما تراه في النهار. لكن حتى لقاءها به ليلاً يبقى أقل بكثير من لقاءات صديقاتها بأحبتهن الذين من نفس القرية، وليسوا كمهدي، يتحمل عناء السير ليلاً على قدميه بين القريتين. فإذا حمل سلاحه - خوفا من مهاجمة نمر أو ذئب أو أي من السباع الجائعة - ومشى مهرولاً وسالكاً أقصر الطرق بين الجبال التي يجيد الانعطاف حولها والمرور بينها، وصل بعد ساعة أو ساعة ونصف من بدء انطلاقه من قريته. لذا كان يمشي بعد صلاة العشاء بوقت كاف ليضمن وصوله إلى حبيبته حين يكون سكان قريتها في بيوتهم يتهيئون للنوم، إن لم يكن بعضهم قد نام. عدا بعض المراهقين الذين يبقون لبعض الوقت يلعبون ألعاباً تشبه المصارعة في ساحات بين البيوت، ثم يخلدون للنوم وقد أنهكوا أجسادهم بالعمل نهارا واللعب مساءً.

يأتي مهدي متسللاً من بين الشجر، فيبتهج الليل للقائه بتركية وترفرف نجومه مبتعدة في أعماق الكون أكثر فأكثر. ولأن الناس كلهم يكونون عشاقاً في وقت ما من حياتهم، فقد اعتادت كل النواحي في قريتهم وما حولها على استضافة الأحبة والتمتع بما يفيض من قلوبهم المملوءة بالغرام إلى أن صارت الأشياء عشاقاً.. حتى الصخور كادت أن تلين.. أن تنسى صلادتها حين أوشك الحب الفياض أن يذيبها. والأماكن تنثال متداخلةً متعانقةً، بعضها ينحني على بعض.

تجلس الحبيبة تركية إلى جوار حبيبها مهدي ليبدآن النجوى عن حلم سيحققانه قريباً. تبتسم تركية ويكاد وجهها يضيء ولو لم تمسسه كف حبيبها.

تهمي الكلمات من فم مهدي شعرا رقيقاً يُذيب تلك الجميلة التي تـــستكين بين يديه. تتأمله.. تنصت إليه.. تود لو تتذوق الكلمات التي تقطر من شفتيه.

قالت لها إحدى صديقاتها:

- كم أنت مسكينة يا تركية لا ترين "تمر بيشة" إلا كل حين.

تدرك تركية أن بعدها عن حبيبها يمنحها ألقاً في عينيه لا تحظى به الأخـــريات في أعـــين أحبتهن، إذ إن صديقاتها لا يوشك غيابهن عن أحبتهن أن يبدأ حتى ينتهي. لذا قالت:

- أنا محظوظة أكثر منكن لأنه يأتي من بعيد متحملاً عناء إم سير بعد عناء يوم شاق وعمل مرهق. من مثله يخلد إلى إم نوم لولا أنه يحبني كـــثيراً فينهي تعب يومه بتعب إم مشي ليراني. من منكن سيفعل حبيبها هذا ليراها؟

بعـــد العرس الذي رآها مهدي فيه وحاول أن يعرف من هي، ظل محتاراً يبحث عن طريقة ليصل بها إليها. يعرف بيتها فقط لأنه دخله وأكل فيه. لكنه لم يكلم تلك الجميلة التي أعجبته ويظن ومن خلال نظراتها له أنه أعجبها. لا يدري ما اسمها ولا تدري ما اسمه في ذلك النهار.

بعـــد يوم العرس بعدّة ليالٍ عاد مهدي إلى القرية قبل أن ينتصف اللـــيل بساعة أو اثنتين، متخفياً تحت جنح الظلام وجلس خلف بيت تركية هادئاً بين الشجيرات ينتظر الجميع ليناموا.

يحـــل الأصيل باكراً في هذا الوقت البارد حد الصقيع ولا يهجع الناس بعد العشاء كعادتهم إن طال النهار. إذ يعطيهم طول الليل مزيدا من الوقت للراحة والسمر ولو لساعة أو ساعتين.

ظل مهدي في مكانه متلفلفاً في فروته يقاوم البرد إلى أن نامت القـــرية كلها و لم يعد فيها صوت سوى حفيفٍ تصدره الأشجار.

أخــذ حــصاة صغيرة ورماها على نافذة مغلقة في الدور الثاني من بيتها.

قــبل خــروجه من بيتها يوم العرس الذي تناول فيه طعام الغداء ورآهــا لأول مــرة تأمــل البيت ورأى حجرتين متجاورتين وبعدها المــهب. أمــا مجلس الضيوف وغرفة ثالثة ففي الجهة المقابلة للغرفتين والمــهب، تخرج تلك الأبواب كلها في بسطة واسعة يخترقها في أحد أركانها الدرج. أما الدور الأرضي فحجراته مخصصة للمواشي وأبوابها تخرج من الجهة الخلفية، ككل بيوت القرية.

ينام والدي تركية وطفلهما الرضيع في حجرة وتنام البنات الأربع في الثانية وينام الولدان وجدهما في الثالثة.ويبقى مجلس الضيوف خالياً.

رآهــا مهــدي ذلك الصباح أمامه واقفة تبتسم قبل أن تستدير وتدخل إحدى الحجرات التي خمن إنها حجرتها. لذا رمى حصاة صغيرة علــى نافذة تلك الحجرة. لم يحدث شيء فأعاد الرمية من جديد بعد دقائق من الانتظار. وظل يدعو الله أن تنتبه هي وليس سواها. ولا يعلم مهدي كم لها من الأخوات والإخوة ولا يدري هل سيغضبها بمجيئة أم سيفرحها، لكنه قرر أن يحاول بعد أن بات يفكر فيها قبل نومه في كل ليلة.

تركية لا تنام كما كانت فور وضع رأسها على مخدتها. إنها تبقى لــبعض الــوقت تتذكر ابتسامته ونظراته وتتساءل في أعماقها: "هل سيعود؟ ما اسمه؟"

انتــبهت إلى صوت الحصوات التي ضربت نافذتها. لم يخطر ببالها أنه هو لكنها تعرف أن الصبيان يرمون الحصى على نوافذ حبيباتهم بعد أن يــنام الجميع ليخبروهن بقدومهم وتنــزل الفتاة لملاقاة الحبيب. "لا يعقــل أن يكون النداء لإحدى أخواتي فكلهن صغيرات." هكذا قالت

لنفسها وانسلت من بين الأجساد المتلاصقة بهدوء تفتح النافذة فلفح وجهها هواء بارد قارس. كما وأن الرؤية شبه منعدمة لأن السماء ملبدة بغيوم تخفي ضوء قمرها الشحيح.

مهدى ينظر إلى الأعلى من بين الشجيرات ويرى النافذة تنفتح ويطل وجه إحداهن منها لكنه لا يتبين الملامح. "ماذا أفعل الآن؟" هكذا سأل نفسه بعد أن وقع في حيرته.

رأى الوجه يتراجع إلى الداخل والنافذة تُغلق من جديد فقرر أن ينتظر إذ ربما تنزل تلك الفتاة. لكن ماذا إذا كان الذي نظر من النافذة رجل وليست امرأة؟ أو امرأة غيرها؟

الفتيان لا يقذفون النوافذ بالحصى كيفما اتفق. إنهم يعرفون أين تنام حبيباتهم بالضبط ويأتون حسب موعد ضُرب سلفاً، أما هو فقد جاء دون أن يحدد ما سوف يفعله.

لم يحدث شيء خلال الدقائق التي قضاها في قلق بين الشجيرات خلف المنزل وهو يحملق في النافذة حيناً ويعاود النظر حوله من جديد أملاً في أن تكون قد خرجت تلك الفتاة لتلتقي به، لكنه يكاد لا يرى شيئاً لأن القمر يظهر لدقائق ثم يختفي خلف السحب.

حمل حصاةً ورمى من جديد. حينها انفتحت النافذة وأطل منها وجه فتاته وقد قرّبتْ سراجاً يتراقص ضوءه بالقرب من وجهها. لقد أخرجت السراج من النافذة لعلها ترى من رمى نافذتها لكن النار أضاءت وجهها وجعلت مهدي يعرفها فوراً فقال بصوت منخفض.

- تعالي..

همست حتى أنه بالكاد يسمعها:

- من أنت؟

- أنا مهدي.. أتيتكم في يوم عرس غامية.

نفخت بسرعة على السراج القريب من وجهها ثم أغلقت النافذة، ليبقى مهدى متجمداً داخل فروته في مكانه لا يدري ماذا ستفعل؟ "إن كان مجيئي أزعجها فستعود إلى نومها وإن كان سرها فستهبط الآن." هذا ما قاله لنفسه. وظل ينتظر.

خلال دقائق كانت تركية تفتح باب منـــزلها بهدوء شديد وتخرج لتلـــتف حول البيت وتصل إلى حيث تطل نافذتها. ومهدي جالس بين الـــشجر غارق في أمنياته إلى أن تجلتْ له في تمامها، فوقف وهمس لكي تتجه إليه:

- أنا هنا.

اقتربت صامتة لكنه يرى ابتسامتها. أو توهم أنها تبتسم. مد يده مصافحاً فمدت يدها.

- اسمي مهدي ولد آل إبر سُربة.
- سمعت عنكم يا آل إبر سُربة.

صـــوتها يفـــيض وداً يجعل مهدي يطمئن إليها، وابتسامتها تنشر ضياءً برغم حلكة الليل.

- وماذا سمعت؟
- سمعت أنكم "ونعم"
- وأنـــتم. قـــد درى إم قاصـــي وإم داني إن "أبوش محمد إبر علي "ونعم". أبوش إبر علي صيَّاد إم نمارة"[1].
- كـــيف عـــرفت أن اسم أبـــي محمد بر علي؟ وكيف عرفت أنه يصيد إم نمر؟

(1) إلـــى ما قبل ثلاثة عقود من الزمن أو أربعة، كان النمر العربـــي متواجداً بكثرة في جـــبال عـــسير واشتهر بعضهم بصيده للاستفادة من جلده، واستخدام شحمه لصناعة بعض الأدوية.

- هــل نسيتِ أني دخلت بيته وأكلت من طعامه. وسألت عنه من كانوا معي بعد أن خرجنا من بيتكم. لكن ما عرفت اسمش؟
- اسمــي تــركية. يجب أن أعود ذالحين. أخاف أن يستيقظ أبــي ويعلم بخروجي ونحن نصف إم ليل.
- ابقي معي. وإن بحث عنش أحد قولي إنش احتجتِ إم خلاء.
- لا.. اذهــب أنــت وسأراك في وقت لاحق. لا أُريد أن يشعر بنا أحد.
- تركية.. متى تريدين أن أعود؟
- متى تريد أنت أن تعود لكي أنتظرك؟
- ذا الحين.. أعود ذا الحين.

اســتجابت لرجائه وإلحاحه فجلست إلى جواره، وأمضيا الجزء الأول مــن الليل معاً يتسامران همساً بين الشجر. لكنها كانت ترتجف مــن البرد فاقترح عليها أن تدخل معه في فروته الكبيرة. لم تسارع إلى الإجابة لكن ضوء القمر كشف له عن ارتخاء أهدابها وانحناء رأسها إلى الأمام. "هل أخجلتها بكلامي؟" هكذا تساءل في نفسه.

لا يحــتاج الناس إلى كثير من الوقت ليتعارفوا. ولا يشعر طرف بخوف من الآخر، فالحياة بسيطة وواضحة وتلقائية. لا يضطر فيها أحد إلى التدلــيس ليصل إلى شيء. وعلى الرجل أن يكون رجلاً منذ لحظة بلوغه وأن يكون فخوراً برجولته التي تعني ما يحمله من قيم وما يتصف بــه من خُلق نبيل وسلوك قويم. لذا فعند تركية يقين يغالب شكوكها بأن هذا الشاب لن يخدعها.. وما دامت قصص الحب الصادق أكثر مما رُوي عمن تفرقوا أو اختلفوا فإن قلبها يأمل بأن ما بدأته للتو هو عينه الحــب الذي تتحدث عنه صديقاتها وتفيض به أغنياتهم وتراه وتسمعه بين الناس.

أما مهدي فقد أراد أن يطمئن إلى أن هذه الفتاة صارت فتاته هو. لكن ما الكلمات التي يجب أن يقولها ليصل إلى إخبارها بأن هذا اللقاء لــيس عابراً. وأنه تعلق بها منذ أن رآها. وأن الحب هو الذي أسرى به ليلاً من قريته إليها.

- أتعلمــين يــا تــركية ما إم أشياء تا تظهر مهما جاهد إم إنسان لإخفائها وكل من يرآه سيعرفها؟
- لا. لــيس لي علــم بهــا. مــا هــي إم أشياء تا لا يستطيع أحد إخفاءها

قال بتأن شديد.

- إنها (إم حب.. وإم حَبَل.. وركوب إم جمل..) إنها لا تخفى.
- كيف لم أفهم...؟

قال لها بذات التأني:

- من ركب جملاً فلا بد أن يراه إم عرب لأنه فوق جمل. وإم حبلى لــو أنكــرت فسيكبر بطنها يوماً ويراه إم عرب أيضاً ولن تخفي حَبَلها. وإم عاشق تظهر عليه آثار إم عشق فيعرف إم عرب أمره؟ هذه إم ثلاثة لا تخفى على أحد.
- إذاً.. إم حــب وإم حَــبَل وركــوب إم جمل كلها سيلاحظها إم عرب.. كلها لا تصلح لأن تكون أسراراً؟
- نعم.. ألا تلاحظين أنتِ عليّ أحدها يا تركية.

قالت وهي تحاول كتم ضحكاتها:

- عسى أن لا يكون إم حَبَل هو ما سيظهر عليك.

ضحكا واستمر السمر لبعض الوقت بين شجيرات طرية في فضاء مبلل بالندى والضباب. ثم ودعته حين شعرت أن النوم سيغلبها، والبرد ســيجمد أطرافها بالرغم من أن هذا الشاب الذي للتوّ صار عاشقاً قد

تخلـى لهـا عـن فروته بكل إصرار وظل إلى جوارها ينفخ في كفيه ويفركهما ببعضهما ليحمي أصابعه من الصقيع.

قالت له:

- هيا عد إلى بيتك وأنا سأعود قبل أن يغرقنا إم مطر.
- ابقي قليلاً.. وإن هطل إم مطر فهو يأتي لأنه يحبك.

لمـع برقٌ في السماء ثم جلجل رعد قوي منذراً بهطول مطرٍ غزير لذا قرر مهدي أن يغادر، ولولا خوفه على تركية من شدة البرد والمطر لأصر على البقاء ولو قليلاً. لكنه سيعود إليها إن سمحت بذلك.

تبسمت له تركية وهي تضع فروته على كتفيه وتغادر مكانها على وعدٍ منها بلقاء جديد.

— 7 —

لا يصبح الكلب قائدا أبداً..
إلا إذا كان القطيع من الخراف

في ساعات الصباح الأولى استأذن صالح للخروج من عمله مدعيا حدوث ظرف طارئ لعائلته. وفي سيارته لبس الثياب المدنية وألقى بالبدلة العسكرية في المقعد الخلفي ثم انطلق غرباً بأقصى سرعة تستطيعها عجلات سيارته إلى أن وصل قبيل آذان الظهر إلى "ساجر".

اتجه فوراً إلى بيت طيني قديم على أطراف تلك الهجرة التي نبتت وسط الصحراء كشجرة طلح وحيدة ليستوطنها الرحل بعد أن ملّهم الرحيل. طرق الباب طرقات متفق عليها بينه وبين عدد من مجموعته التي يداوم الاتصال بهم برغم تباعد المسافات. دخل مرحِباً ومرحَباً به. رحب به جهيمان حيث كان ينتظره. ورحب هو بجهيمان الذي وصل البارحة إلى ساجر قادماً من المدينة المنورة.

صلى الرجلان وآخرون الظهر جماعة يتقدمهم جهيمان. ثم استمعوا إلى حديثٍ وجدوه شيقاً ومؤثراً عن الجهاد في سبيل الله وإعادة الناس إلى الدين ولو بقوة السلاح.

- ماذا بقي ليصبح الناس مرتدين؟

هكذا تساءل جهيمان ثم تابع:

- يمارسون كل المنكرات، يقلدون حياة الكفار. ولم يبق على الردة إلا أن يعلنوها فقط كما أعلنتها قبائل عديدة بعد وفاة الرسول ﷺ.

لكـــنكم تعرفون أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه جهز جيوشاً وقاتلهم إلى أن أرجعهم بحد السيف إلى الإسلام.

تساءل أحدهم:

- وهل ترى يا شيخ أن علينا أن نفعل هذا؟ أن نقاتل الناس لنرجعهم إلى دين الله؟

كان عدد المجتمعين للموعد المضروب لا يتجاوز العشرين رجال ممـــن اصطفاهم جهيمان لثقته بشدة ولائهم له وبتنفيذهم لما يأمر به. يـــنقلون عـــنه للآخرين ما يكتب وما يقول.. ليتشر بين الناس فكر جهـــيماني مقدس عندهم بعدما ظنوا أنه نـــزل من السماء. هو بحاجة إلى معاونـــتهم في جمـــع الـــسلاح والمال واستقصاء الأخبار وتهريب المنشورات ومساعدته على الاختباء من أعين رجال الأمن أحياناً كثيرة.

أجال نظره يتفحص وجوههم ثم قال:

- وهل هناك خير من أن يكون الصديق رضي الله عنه هو قدوتنا؟

هز صالح رأسه مؤيداً ومستحسناً. فتابع جهيمان:

- ثم إن قاتلنا فنحن لن نقاتل دون عَرَضٍ من أعراض الدنيا. لا نقاتل من أجل الجاه والمنصب والمال. إن قاتلنا فنحن نقاتل دون الحق، دون الـــدين. الله ســـبحانه وتعالى سخرنا لنكون المدافعين عن دينه. فأي شرف نريد أفضل من هذا؟ ما أعظم أن يصطفينا الله دوناً عمن في الأرض لنكون حماة للإسلام، نذود عن حياضه ونقاتل في سبيله.

استمر الحديث على هذا الحال إلى أن امتلأ الرجال رغبةً في القتال من أجل الله ورسوله. وتعاظمت أحلامهم بالنصر أو الشهادة لكثرة ما أورد لهـــم مـــن الأحاديث والأخبار والوعود برضا الله عنهم. ولكنهم مجمـــوعة صغيرة لا قبل لها بـــ "ابن سعود" وجيوشه من ورائه. هكذا شرح أحدهم الأمر فرد عليه جهيمان موضحاً:

- مـــا دمـــنا مع الله فلن نخشى شيئاً. ثم من قال إننا قليلو العدد؟ لا ينقـــصنا المال فكثير من أهل الخير يتبرع لنا بما لا نتصور أن أحدا ســـيدفعه بكل هذا السخاء. ولا ينقصنا رجال إذ إن كل البيوت التي فتحناها في مختلف المناطق مملوءة بأهل الخير والصلاح. وكثير مـــن رجال القبائل الذين أمر بهم أثناء تنقلاتي مستعدون للانضمام إليـــنا. لم يعلـــنوا هذا لأني لم أطلعهم على ما أعتزم. لكني أعرف مدى صدقهم. لقد حدثوني كثيرا عن استيائهم الشديد لبعد الناس والحكـــومة عن تعاليم الدين الحنيف وأعانوني على الاختباء كما تذكرون.

ظلت المجموعة تطرح التساؤلات وتبحث عن إجابة لترتب لأمر قـــادم لا يعلمون من أين سيبدأ ولا متى سيكون. لكنهم على يقين من أن الله بذاته معهم.

يتمـــتع جهيمان برصيد كبير من المحبة والتقدير والثقة عند أتباعه شأنه في ذلك شأن كل من جمع الصغار حوله وصاروا له مريدين، كما ويحظى بمكانة عالية عند شيوخه برغم الغضب الذي امتلأت به قلوبهم بعد مجاهرته بما يتفقون معه على أنه الحق ويصرون على كتمانه، حرصا منهم على مصالحهم ومناصبهم ورواتبهم في نظر جهيمان، لكنه حرص منهم على الصالح العام من وجهة نظرهم هم.

ولأن لديه ذلك الإبهار في عيون مريديه وأتباعه والحب في قلوبهم تـــزايدت جاذبيـــته بينهم. وإذا أراد أحدهم أن يُظهر له ولاءه وعميق إخلاصـــه ردد بيـــتاً من الشعر العامي قالته إحداهن عن جد جهيمان الذي قتل عدداً من أولادها في إحدى الغزوات:

(الـــضان يـــشرب مـــن شراب معدّي

وأنـــا شـــرابـــي دمـــع عيني ليا فاح)

ينصت جهيمان مزهواً، فهو حفيد ذلك الرجل الذي جعل المرأة تشرب دمعها لكثرة بكائها على ذويها. وبعد الزهو يمتلئ جهيمان إصراراً على أن يحدث أمراً.

تغلب على شخصيته نزعة الاستبداد وحب التفرد والسيطرة. ويبرر نزعاته تلك بحرصه على الدين وإرجاع الناس إلى الحق. يعطيه هذا التبرير شعورا بالأحقية والشرعية للقيام بما يراه صواباً.

قبل أن تغيب شمس ذلك اليوم خرج جهيمان ممسكا بيد صالح ليدورا حول البيت الطيني المتواضع ويمشيان إلى خارج البلدة الصغيرة. سارا في البراري المحيطة. يتحدثان في ذات الأمر ويكرران ذات الألفاظ التي للتو انتهيا منها أمام الناس عن بعد الأكثرية عن دين الله ووجوب ردهم بالسلاح إلى الإسلام الصحيح. جلسا على تلةٍ صغيرة يستمتعان ببعض النسمات قبيل الغروب.

أخرج صالح ظرفاً من بين ثيابه ووضعه في يد جهيمان حرص على ألا يعلم عنه الآخرون شيئاً:

- المبلغ هذه المرة ثلاثة أضعاف مبلغ المرة السابقة. الناس صاروا أكثر سخاءً عندما نقول لهم إن الأموال ستذهب لمساعدة الفقراء. يهتمون بالفقراء ولا يأبهون لدين الله. صدقت حين قلت عنهم أنهم أوشكوا على إعلان الردة.

ربما تبرع بعض الأغنياء بالكثير مما يملكون رغبة في كسب الثواب ورضى الله. وآخرون يتبرعون لكي يظهروا أمام الناس كرماء نبلاء، فيحظون بإعجاب الكثيرين. وربما كان هناك من يتبرع وهو يعلم أن جامع المال ينوي سوءاً بالبلاد. ولكن مهما تعددت الأسباب فالمال الذي يصب في يد "المطاوعة من أعوان جهيمان" يمدهم بالقوة التي يحتاجونها ليتحكموا في كل قنوات الحياة

الاجتماعـــية. بل وتتجاوز تحكماتهم المجتمع لتصبح متغلغلة في كثير من مؤسسات الدولة.

تـــناول جهيمان الظرف تماماً كما يتناول الموظفون رواتبهم. دون شـــعور بالحرج، إذ إنه على يقين من أن كل الأموال المجموعة عـــن طريق التبرعات ما دامت تصب في خدمة الإسلام الذي يريده فهي حلال. وكيف لا تكون حلالا وهو في نظر نفسه ونظر تابعيه يمثل الإسلام كما كُتب في اللوح المحفوظ؟ ثم إن أخذ التبرعات عادة متـــبعة لتتمكن الجماعة من مواصلة نشاطاتها وفتح المزيد من بيوت الإخوان. وكانت تلك الأموال تكفي ويبقى منها ما يمكن اقتسامه من قبل المنظمين.

ظل جهيمان يعتمد على ما يُجمع من مال ويأتي بها رجل من هنا وآخـــر من هناك سنوات عديدة. فقد ترك العمل العسكري في الحرس الـــوطني مـــنذ زمن ليتفرغ للدعوة إلى تطهير الدين مما دخل عليه من منكرات ورد الناس عن تقليد الكفار والعودة إلى ما كان عليه السلف الــــ "صالح" في كل شيء. كان يعتمد لتحقيق هذا الهدف على إلقاء الدروس والحرص على تزايد الأتباع. بالإضافة إلى قراءة الكتب الدينية وكتابة الرسائل وطباعتها.

لا يبقى جهيمان في المكان ذاته إلا لوقت قصير، إذ عليه أن يكون كثير التنقل كي لا يتم القبض عليه بعد أن أصبح معلوماً ما يقوم به من محـــاولات التأليب. وأصبح اسمه واسم كثير من معاونيه مسجلاً لدى السلطات.

تم القـــبض عليه وعلى عدد من أتباعه من قبل في الرياض عندما أعلـــنوا مـــناوأتهم للحكومة، ثم تم الإفراج عنهم بعد أن تدخل الشيخ "عـــبد العزيـــز" ليـــزكيهم عند المسؤولين ويؤكد بأنهم وإن كانوا قد

تجاوزوا المسموح إلا أن فيهم خيرا كثيرا وما فعلوه ليس سوى خطأ قد يقع فيه أي إنسان.

كـــان للـــشيخ عبد العزيز مكانته المتميزة عند كبار المسؤولين وثقة جعلتهم يقلدونه أعلى منصب في المؤسسة الدينية الرسمية مما كوّن له قاعدة عريضة بين الجماهير، وقد وجد حينها آذاناً تصغي له عندما شفع لجهيمان وأعـــوانه. لكن ما لم يُحسب حسابه هو أن شفاعته تلك أعطت للسجناء بعـــد إطلاقهـــم شأنا ومكانة لمجرد أنه شهد لهم بالخير. حاول الشيخ عبد العزيـــز بعـــد ذلك أن يستتيبهم لكي لا يكونوا زمرةَ خوارجٍ على الأمة والحاكم. لكن استتابتهم تلك جعلتهم يدركون أن التحرك المكشوف يأتي بعـــواقب لا يتمنونها، وأن عليهم أن يكونوا أكثر حذراً وحيطة في المرات المقبلة. وهذا ما كانوا عليه لسنوات بعد تلك الاستتابة.

يتـــناقل مريدو جهيمان خبر قدومه. ويرتبون له تحركاته ليزوروهم بعـــد طول غياب، حيث قام بتشكيل حلقاتهم فيما مضى، وأقام معهم يعلمهـــم حـــسب ما يقرأ. ثم يملي عليهم ليكتبوا عنه ما يقول وينتقل عنهم بعد ذلك إلى غيرهم.

وها هو في ساجر يزور إحدى خلاياه ويصلي بأعضائها عدداً من الـــصلوات ثم يستمعون إلى بعض دروسه وينطلق بعدها من جديد إلى آخرين ليدور على الجميع في همة لا تتوقف.

أحـــد المعـــاونين رجـــع بسيارة جهيمان بعد أن فحصها وملأها بالبنـــزين بالإضافة إلى جالون "احتياطي" وضعه بداخلها تحسباً للرحلات الطـــويلة التي يقضيها في عمق الصحراء الواسعة. لذا ودع جهيمان رجاله واتجه بسيارته إلى الغرب ليعود إلى بيت "الحرة الشرقية".

مر في طريقه ببعض الهجر الصغيرة حيث يتجمع بعض البدو على أقل القليل من الماء والكلأ. فكان كلما نـــزل عند أيهم وجد استقبالاً

حـــاراً، وإنـــصاتاً يجعل كلماته لا تتوقف عند أسماعهم بل تتجاوزها لتغوص في القلوب.

هكـــذا تابـــع جهـــيمان عمله لسنوات إلى أن شكل في أعماق تلامذته عقيدة صلبة متماسكة يعتنقها أولئك الأتباع ثم أتباع الأتباع. وبهذا فقد أسس وأسسوا من بعده جماعات متصلة كحلقات السلسة، يتـــصل بعضها ببعض ويتولد بعضها من بعض ويتخلّقُ في كل جماعة قادالهـــا كلما تشكلت حلقة جديدة، وكانت أبرز سمة من سمات تلك الجماعـــات وأولـــئك القادة المنتمين إلى هكذا بيئة وكذلك المدافعين والراضين عنها، مصادرة الفكر ومحاربة المختلف في صرامة لا تلين.

ظل أولئك الأتباع وقادتهم يؤدون أعمالهم تماماً كما أراد جهيمان أن يفعلـــوا لسنوات وسنوات بعده. لذا تمكنوا من مواصلة جمع ملايين الـــريالات لإتمـــام ما رسمه لهم قائدهم. ثم استمالوا الشعب إلا من نجا بفضل عقل نابغ أو شخصية مستقلة.

كانت استمالتهم للناس تتم بواسطة نشاطاتهم "الدعوية" المتنوعة وبعـــض مراكـــزهم الـــتي يـــستقطبون فيها الصغار، ومحاضراتهم التي يتوجهون بها إلى الكبار، وطباعة عشرات الآلاف من أشرطة الكاسيت وتـــوزيعها بـــين الـــناس مجانا، وطباعة عشرات الآلاف من المطويات والكتيـــبات الـــتي تنص على ما كان قد دعى إليه جهيمان. ليفجروا ويقتلوا ويهدموا ويخربوا ويرغموا الناس – ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً – على أن يكونوا في حياتهم وسائر شؤونهم كما يراه المنظرون لفكرهم الجهيماني.

— 8 —

تنغرس القُرادُ في الجسد المعافى فيسقم

ملامح الناس في القرية واضحة ومتباينة تماما كالبيئة التي يعيشون فيها. فالشجر أنواع عديدة وأحجام مختلفة والطيور أجناس وأشكال كثيرة.. مذهلة الألوان عذبة التغريد.. وثمار الربيع تختلف عما سينضج في الصيف. وحتى الصخور لا تتشابه. فهذه "رحى" لطحن الحبوب، وتلك يجرها ثوران لدوس السنابل، وأخرى من الضخامة بحيث يجلس عليها عدد من المتنزهين. أو يتواعد خلفها عاشقان.

كل شيء هنا له كيانه ومعناه وأهميته. ولكل شيء قيمته، حتى الوقت. فالأعمال التي تُؤدى في الصباح لا يمكن تأجيلها حتى المساء، وفصل الربيع لن يأتي أثناء الشتاء. والمواسم تتبعها مواسم، فالبذر يتبعه حصاد ولكلِ عملٍ مواعيده وإلا فلن تنتج الأرض ما يُنتظر منها.

تلك هي الحياة عند آل وادح. أعمال كثيرة.. وخيرات تحيط بهم وتملأ حقولهم وبساتينهم وسفوحهم وبيوتهم. لذا هم يختلفون في كل شيء عمن سئم الحياة.. ولم يدرك قيمة الوقت لشدة تشابه الأشياء وتطابق الأيام التي عاشها.

ليس من السهل على من عاش حياةً فارغةً رتيبة أن يألف حياةً زاهيةً زاهرة ما دام يؤمن أن السأم هو الطريق إلى الله. وأن كمال التوحيد لا يتحقق عند المؤمنين إلا إذا تشابهت أرضهم وعاداتهم وأفكارهم بما اعتاد هو من الأرض والعادات والأفكار. لذا جاء راشد وقد عقد العزم على غرس معتقده في أرضهم وقلوبهم وعقولهم أجمعين.

استقر راشد في القرية، ليس لأنه جدير بأن يبقى بين الطيبين، بل لأن الحـــياة تمتلئ بالغرائب. أوليس غريباً أن تُظِلَ الأشجار الوارفة كل مـــن كـــان تحت أغصانها!؟ تُظله حتى ولو كان أفعى! وهذا ما كان يحـــدث حين يجلس راشد بكل ما في قلبه المتقيح تحت شجرة.. يستمر ظلـــها ممتداً فوقه إلى أن يغادر.. ولو أن في الأرض شيء من العدل لما أظلت إلا الطيبين ممن يغرسونها ويسقونها ويشذبون أغصانها ويعتنون بها طـــوال حـــياتهم. لكن تلك هي الأشجار تظل الأشرار والطيبين دون تفريق، ولذا جلس أحمد إبر موسى تحت ذات الشجرة التي كان يجلس تحتها راشد ثم قام من مكانه لا يدري عمن يبحث ولا إلى أين يذهب.

كـــان الـــناس في المسجد يستمعون إلى خطبة الجمعة وأحمد إبر أبـــي موسى يبحث عن أحد.. أي أحد ليخبره عن أمر آمنة. تذّكر وجههـــا قبل يوم واحد من سفرها. لقد رآها قبل الغروب بالقرب من منـــزلها بعـــد أن عادت مع أغنامها ولمح ابتسامةَ خجلٍ على شفتيها وهي تنظر إليه ففهم أن مهدي أخبرها بما في قلبه. لكنه لم يكن يدري أن الحـــب الـــذي يبدأ بابتسامة سينتهي بالكثير من الدموع. بادرها بالتحية:

- والعون[1] يا آمنة.

ردت بصوت ينخفض جذلاً ويغالب الضحك:

- الله يعافيك.

اقترب منها أكثر ثم قال:

- إم ضأن لا تمشي بسرعة مثل إم ماعز ولهذا فربما تتخلف نعجةٌ في إم جبال.. انتبهي دائما إلى عدد ضأنش كلما عدتِ بها.

---

(1) ولعون تحية تقال لمن كان يقوم بعمل ما. أو عاد للتو من عمله.

ظلــت آمنة مبتسمة وود أحمد لو أخبرها بأنه يعرف أن ما يقوله عــن الأغــنام ليس بخاف عنها ويعرف أيضا أنه يتحدث في هذا الأمر لكــي يؤجل الحديث عن أمورٍ أخرى بضعة أشهر أو ربما سنة، ثم يُسِرُّ لها إذا صارت في سنٍ مناسبة بما لديه. نظرت إليه آمنة وذات الابتسامة على شفتيها ثم قالت له وكأنها تستأذنه للذهاب إلى البيت:

- دخلت إم غنم كلها في "إم سفلي".

فودعها قائلاً:

- خَلَفَني خير يا آمنة.
- ويلقاك خير.

تظــل البــنات في القــرى صغيرات جداً.. مشغولات بالعرائس واللعب حول البيوت وفي الحقول والمراعي إلى أن يحين موعد بلوغهن. وفجــأة.. وبدون استهلاك الكثير من الوقت تصبح الفتاة بعد البلوغ بسنتين أو ثلاث كبيرة بما يكفي لتتحمل مسؤولية الزواج وكل تبعاته. هــذا ما يعرفه أحمد وهذا ما جعله ينتظر.. فكيف سبقوه إليها؟ كيف زوجوها وهي لا تدري ماذا بعد الذهاب مع رجل!؟

انتــبه أحمــد فمــسح دموعه وعاد إلى واقعه عندما سمع صوت خطيب المسجد يلقي خطبة الجمعة واستغرب الصوت. أين إمام مسجد قريتهم عبد الرحمن إبر مفرح، ومن أين أتى هذا الخطيب الجديد؟

بعــد الصلاة انقسم أهل القرية إلى قسمين غير متساويين. أكثرية ترفض قبول ما يقوله الإمام الجديد "الشيخ راشد" وتسخر من كلماته الغريبة. وأقلية مترددة تكاد ترى أنه لم يقل إلا الصواب الذي يجهلونه كلــهم وأن عليهم أن يتوبوا إلى الله عن كل ما سلف. وبدأت الثرثرة والجدل بين الناس بعد الخطبة مباشرة.

- ربما هو يقول الحق الذي نجهله.

هكذا افترض أحدهم. فقال له رفيقه:

- يا أخي غيّر طبعك. إلى متى وأنت "شاة لمن قادها".
- لــستُ "شاةً لمن قادها" لكن إم إمام إم جديد حدثنا عن أشياء لا نعرفها.
- ومــن قال إن ما لا نعرفه وذكره راشد صحيح؟ يا أخي كلامه لا يدخل عقولنا ولا قلوبنا.

هذه هي المرة الأولي التي يسمعون فيها ما سمعوه في المسجد. لقد حــاول الــشيخ الجديد أن يقوض قناعاتهم ويسقط كثيرا من قيمهم ويــشكك في رجــولة كل من لم يعتقد بصحة ما يقول. لقد فاجأتهم أقــواله، وانــزعجوا مما وصمهم به. إنه يتحدث بذات الكلمات التي كــان يقــولها عوضة "إم خبل" لكن هذا الرجل يقولها من على المنبر ويدَّعي بأنها تعاليم الله.

يعلم أهل القرية أن الشيخ راشد جاء فجأة إلى قريتهم من مكان ما من عند "إم شروق" ليصبح إماما وخطيبا لقريتهم. و"إم شروق" هم كــل الــذين يسكنون في مكان يقع دائما شرق وشمال شرق قريتهم ويــتحدثون بغير اللهجات الجنوبية. لكنهم لا يعلمون أن راشد كان رفيقاً لجهيمان لسنوات عديدة. يتعلم ما يتعلمه ويقرأ من كتبه ويؤمن بما يقول به.

لــسوء حظٍّ تلك القرية، لم يزرها "شروق" آخرون يختلفون في تفكيرهــم وسلوكهم عن راشد وأصحابه. شروق نبلاء يريدون الخير لكــل الناس. ظل أولئك الشروق الذين يتمتعون بعقولٍ مستنيرة وآفاق واسعة بعيدين بأفكارهم المنفتحة وطبائعهم السمحة ونفوسهم الكريمة. يمارسون نشاطاتهم لدفع العجلة إلى الأمام ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، لكن في أماكن بعيدة عن الجنوب.. أصواتهم لم تصل إلى وطن آل وادح،

ولا إلى الجنوب كله. فقد انفردت به عصبة مختلفة كان راشد واحد من أفرادها.

وكأنها منافسة بدأت في المدن الكبيرة بين من يريد الخير والرخاء للناس. وبين من يصر على أن ينسوا الدنيا بكل ما فيها ويتجهوا إلى الخلف ثم إلى الموت. منافسة استطاع فريق الموت أن يفوز بها لأنه استخدم الدين قناعاً يُخفي به ملامحه الشيطانية. استخدموا أقنعتهم لإدراكهم أن العوام ينجذبون إلى كل من ادعى أنه تقي.

كان راشد أحد أولئك المقنّعين، يمتلئ غروراً كمراهق جاهل، يظن أنه أكثرهم علماً وأقربهم إلى الله. لم يزرع القمح و لم يحصده، لذا لم يتعلم مثلهم أن السنبلة الفارغة فقط هي التي ترفع رأسها في الحقل، أما الممتلئة بالقمح فتخفضه بالرغم من أنها هي الأفضل.

يخلط راشد خطبه العديدة ودروسه اليومية ببعض المفردات الجديدة التي لم يسمع بها آل وادح من قبل ولا يعرف معانيها أحد، حتى هو. ذكر لهم أن "الماسونية والشيوعية والاشتراكية والقومية والماركسية" آتيات إلى قريتهم لتذلهم إن لم يتمسكوا بكتاب الله وسنة نبيه. ثم أكد لهم أن خروج نساء القرية سافرات إلى الحقول دليل على إمكانية تغلغل تلك التيارات المعادية لدين الله في قريتهم. وتحدث في خُطَبِهِ عن التبشير وما يرمي إليه المبشرون وهددهم بغضب الله عليهم إن لم ينصتوا إليه ويؤمنوا أن ما يقوله لهم هو الحق. وردد كثيراً عبارة (نسأل الله السلامة).

تخرج راشد من كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية، وفضل العمل في الجنوب لما علمه عنهم من بعدهم عن المذهب الوهابي، عرف ذلك عن الجنوب من زملاء له سبقوه إلى المنطقة، وهذا عنده يعني البعد عن الله ذاته.

بـــرغم عزم راشد على الإقامة بشكل مستمر في المنطقة إلا أنه لم ينقطع عن زياراته المتكررة إلى المدينة المنورة للاجتماع بشيخه جهيمان في الحـــرة الشرقية. يطلعه على كل التفاصيل ويعده بإتمام ما اتفقا عليه منذ سنوات.

في القرية ضحك أكثر الفتيان والفتيات مما يقول راشد في البداية ولم تؤثـــر كلماته على سير حياتهم. أما الكبار من النساء والرجال فلم يـــرتاحوا كثيرا لراشد. وصاروا إذا تحدثوا عنه وصفوه بـــ (نسأل الله السلامة). يسأل بعضهم بعضاً:

- مـــا أخبار نسأل الله السلامة؟ هل لا زال ينعت النساء بالفاجرات لأنهن يجدن ضرب الأرض بالفأس واستخراج خيراتها وهو لا يجيد إلا الكلام؟
- نعم.. لا زال على حاله.
- "صُرّ إم ثوم سنة وافتحه تلقاه ثوم"[1].
- نعـــم صدقت. ليته يتعلم كيف يزرع الأرض خيراً له من أن يقول ما يقوله.
- إم مضحك إم مبكي هو أن (ابن سعود) يعطيه راتبا كل شهر على كلامـــه هـــذا. يعني صار إم كلام يباع وإم حكومة تشتري، إم حكومة تدفع لمن يجيد استخدام لسانه لا يده.
- لـــسانه قذر ولا نظن ابن سعود يعلم عما يقول هذا إم خبيث وإلا لمـــا أعطـــاه أجراً على وصم نسائنا بـــ إم فاجرات ونعت رجال "وطننا" بـــ إم ديوثين.
- وما معنى ديوث هذه تا يرددها؟

---

(1) صُـــر إم ثوم: اربط الثوم في صُرَّة. ثم عد بعد سنة لن تجد في الصرة ياسمين مثلاً. سيبقى ثوماً. والمعنى أن راشد أتاهم سيئا وسيبقى سيئ.

- أسمع نبرة صوته حين ينطقها كانطلاق إم رصاصة فأعرف أنه يشتم لكني لا أعرف معناها.

- عليـــنا أن نسأل "أبـــي عبد الرحمن" إمام مسجدنا ذا نود أن نصلي من جديد خلفه.

- "أبـــــي عبد الرحمن" مريض.. أوجعه أن يحل هذا إم فَسْل مكانه فعقره إم ألم . مَرِضَ لأنه يعرف دين الله ويعرف أن ما يقوله هذا "إم خَبل" ليس دينا بل افتراءات أتى بها لا ندري من أين.

ولا ينتهي الحوار حول هذا الشيخ الجديد إلا إذا اضطر الناس إلى التفرق من أجل العمل أو النوم. لكنهم لم يكونوا قد أدركوا بعد أن لا أحد يستطيع إهانتهم إلا بمساعدتهم. لذا وبرغم خوفهم من هذا القادم الجديد مدَّ بعضهم يد العون له.

أما راشد فلم يحرص على ذلك النوع من الأدب الذي يتحلى به مـــن يشعر بأنه غريب، لأن شعوره كان مختلفاً عما يخالج الغرباء. لقد أعطـــى نفـــسه الحق في أن يكون قيّماً عليهم ومسؤولا عنهم دون أن يوافقوا على ذلك. بل حتى دون أن يعلموا بما في رأسه حيالهم.

أكثر ما ساءه في هذه القرية والقرى التي حولها هو سفور النساء واخـــتلاطهن في الحقول والأودية وعند الآبار وفي البيوت بالرجال غير المحـــارم. بـــل وحديثهن معهم وسلامهن عليهم. أذهلته تلقائيتهن في مخالطـــة الرجال فلا يخجلن من أحد ويتعاملن مع الغريب وكأنه أحد الأقـــرباء. بل يتعاملن مع الرجال وكأنهن رجال، فلا يشعرن بخجل أو تـــردد أو خوف. كما وأذهله عدم اكتراث الرجال في القرية بوجود النـــساء وحديثهن وضحكهن. والأكثر إزعاجاً هو أن راشد نفسه لا يسترن وجوههن منه إذا مررن به في الطريق بثيابهن المطرزة وضفائرهن

الملقاة على ظهورهن والتي يظهر جزء منها من تحت مناديلهن الصفراء. لا يـــدرن وجوههن عنه، ولا يطأطئن رؤوسهن أمامه، بل ينظرن إليه ويلقين عليه التحية ثم يسألنه عن أحواله وما إذا كان يعوزه شيء.

لا يـــدرك راشد أن الإنسان إذا تزايدت قيمتُه عند ذاته تزايدت معهـــا قـــيَمُهُ وأخلاقياته. وبذلك يصير الحرُ حراً للحد الذي يجعله لا يرضـــى للآخـــرين هواناً، فلا يحب أن يكون مخدوما من أحد.. لأن الخدمـــة والسخرة هوان. وهذا ما حمى نساء آل وادح من أن يتحولن إلى حـــريم. إذ لم يكـــنَّ مـــسخرات لخدمة الرجل. بل كانت الحياة مـــشتركة، والجهود مشتركة، والبذل مشترك. وهذا ما أزعج راشد، فهـــو لا يريد أن يرى في النساء سوى المأمورات الخانعات الكسيرات. لقـــد تربى وتعلم ما لو طبقه لرمى بكل النساء في النار بنفسه و لم ينتظر عـــذاب الله لهن يوم القيامة، فهو يحفظ جيدا كل الأحاديث التي تؤكد بأنهن أكثر أهل النار وأنهن حبائل الشيطان وأنهن ناقصات عقل ودين.

ومع أنه يراهن أمامه باستمرار ويرى استقامتهن وثقتهن بأنفسهن وما يقمن به من أعمال في الحقول، ظل مؤمنا بما تعلم. وكانت صدمته الأعظم حين حل ضيفاً على القرية أول مرة وجاءه أحد كبارها مقاماً وعمـــراً، يطلب منه الحضور لتناول طعام العشاء على شرف أنسباء له زاروه مـــن قـــرية أخرى وقام بواجب ضيافتهم وإكرامهم. لبّى راشد الدعـــوة واتجـــه إلى منـــزل المضيف في الموعد المضروب، وحين دخل رأى مـــا جعله يتسمّر في مكانه ويعجز عن التقدم خطوةً واحدة. لقد كانت النسوة جالسات في ذات المجلس سافرات كعادتهن.

لو كن متجمعات وحدهن في زاوية واحدة من ذات المجلس لهان الأمـــر قليلاً. لكن المزعج بالنسبة لراشد هو أن الجميع يجلسون كيفما اتفق، مختلطين دون ترتيب معين.

فكر في التراجع وإبداء الغضب كاحتجاج على ما رآه، ولكي لا يـــوافقهم على ما هم عليه. لكن أصوات المرحبين التي توالت من كل الاتجاهات. ونهوض الكثيرين للسلام عليه جعل قرار التراجع يضعف في أعماقه. وبدأ يستبدله بإقناع نفسه أنه أمام فرصة لجذبهم إليه وتغيير هذا المنكـــر الـــذي يراهم فيه. صافح الرجال وتجاهل أيدي بعض النسوة اللـــواتي مددنها للمصافحة. جلس على "إم دبب"[1] حيث أفسحوا له المكان كضيفٍ يزورهم للمرة الأولى.

كـــل ما كان حول راشد في هذه القرية يضج بالألوان. حتى الجـــدار الذي يحيط بمجلسهم مقسوم إلى نصفين، الأعلى مصبوغ بالأبـــيض والأسفل بالأخضر وبين اللونين نقوش كثيرة بعدة ألوان زاهـــية وكأنهـــا حزام يحيط بالحجرة ويطوِّق الحاضرين. كما وأن النـــساء يـــرتدين ثيابا مطرزة بألوانٍ فاقعة وفوق رؤوسهن مناديل صفراء كالشمس. تحتها مكاعسهن التي تعد من أساسيات زينتهن. عدا اللواتي يرتدين "أم مريشة"[2] على رؤوسهن وفي أطرافها أهداب ملونة.

يـــتحين راشد المدخل المناسب ليبدأ بالحديث. ألم يأتِ خطيباً؟! وهـــا هـــو في مجلسٍ على كل من فيه أن ينصتوا إلى ما سيقول. لكن هـــيهات.. فالكل يثرثر ويضحك ويمزح ولا مجال للإنصات أبداً. إن ضـــحكاتهم وثرثرتهم المتواصلة جعلتهم كمن يتقافزون حوله مرحا ولا مجال للخطب أو النصائح.

---

(1) الـــدبب: يبنى في داخل الغرف من الحجارة والطين مستطيل ملاصق للجدار عرضه من 40 إلى 50سم – ارتفاعه حوالي 40 أو 50 سم يمتد من ركن الغرفة إلى ركنها المقابل. ثم يفرش باللحف وجلود الخرفان ليكون كالكنب يجلس عليه الناس.

(2) إم مريشة: شيلة في أطرافها أهداب ملونة ترتديها النساء في المناسبات.

وكلمـــا خــــرجت امرأة من المجلس لتعاون ربة المنــــزل في طهو الطعـــام عادت وجلست في أي مكان خالٍ تجده ولا تكترث إن كان جلوسها إلى جانب امرأة أو رجل فالأمر عندها سيان.

شعر راشد بأن هيبته اضمحلت حتى أنها لا تُلاحظ من قبل هؤلاء المرحين الذين قضوا جل وقتهم في الضحك.

تـــناول صـــاحب الـــدار فنجاناً كبيراً مصنوعا من الفخار يسمونه "حيسي" وملأه بالقهوة. ثم ناوله لراشد الذي لم يعهد هذا الحجم من قبل ولم يمـــلأ لـــه أحدهم الفنجان أبداً. فكيف إذا كان حجمه يقارب حجم أربعة فناجين مما يعرف. نظر إلى مضيفه باستعلاء ورفع صوته قائلاً:

- تملأ لي أنا الفنجال..؟ تهينني في بيتك يا أبو محمد؟

ونهـــض من مكانه يريد الخروج. فوضع المضيف يده على كتفه يستبقيه ويسأله عما بدر منه ليغضب كل هذا الغضب.

لم يفهـــم أحـــد من كل الذين في المجلس أين كانت الإهانة. لكن الجميع صمتوا ليعرفوا ماذا جرى. فكرر راشد سؤاله بصوت يمتلئ حدة.

- كيف تملأ لي أنا الفنجال؟

قال صاحب الدار موضحاً برغم جهله التام بما أغضب راشد.

- لا بد أن أملأه.. كيف أنقصه لك وأنت ضيفي. نحن لا ننتقص من أحد لذا لا ننقص الفناجيل. وكما ترى فناجيلنا كلنا مملوءة.

أدرك راشد أن لا أحد يقصد إهانته لكنه تابع:

- ملأ الفنجال انتقاص من قدر الرجال.

- لا والله.. إلا إنقاص الفنجال انتقاص من قدر الرجال.

بدأ الهمس الجانبـــي بين الحضور، يطرحون الأسئلة على بعضهم بعـــضاً. وتدخل غازي إبر آل مسفرة عم آمنة وقد التقى بالشيخ عدة مرات وصار بينهما شيء من التقارب والود:

- عاداتنا أن نكرم ضيفنا.وإم جود من إم موجود دائماً. نحمد الله، إم مـــاء موجود وإم بن موجود لذا نملأ فناجيلنا ونرتوي من قهوتنا. لكـــن لـــو إن إم ماء شحيح وإم بن معدوم كان صرنا مثل غيرنا نـــنقص إم فنجال ونرى أن في نقصانه كرم. مثل ما قلت لكم إم جود من إم موجود.
- بس هذي عادات يا غازي مالها علاقة بنقص الماء أو وفرته.
- إلا يا شيخ راشد.. لها علاقة.. إم عادات ما نـــزلت من السماء. إم عـــرب عـــوَّدوا نفوسهم عليها. وطال بها إم زمان وصار لكل أرضٍ عاداتها. اشرب إم فنجال يا شيخ.. وعسى تزين لك قهوتنا. قهوتنا تختلف عن غيرها لأن ما عليها هيل. عليها بعض إم حوايج مما نـــزرع. حتى إم بن، تراه بن أرضنا نأتي به من جبال فيفا.

تـــناول راشـــد الفنجان الكبير وظل يرتشف منه على مهل كما يفعلـــون وقد حار أمره فيما يخص تلك العادات التي ولشدة تمسكه بها صارت جزءاً من معتقداته للحد الذي جعله يبدي انفعالا شديدا مع أن ما جرى ليس سوى أمر بسيط يتعلق بطريقة صب القهوة وشربها.

بعـــد دقائق من جلوسه أدخلت إحداهن قِدْراً كبيراً يمتلئ بالمرق ووضـــعته وسط المجلس، ثم وزعت على الجالسين فناجين القهوة ذاتها بعـــد أن غـــسلتها. ظل راشد ينظر إلى ما سيفعلونه وإذا بهم يتحلّقون حول القدر ويغترفون بالفناجين من المرق ويشربون متلذذين، ثم عادوا إلى أماكـــنهم بعـــد أن أنهوا ما في القدر وبعد أن تصايحوا غابطين فتىً وجـــد في أسفل القدر قطعة لحمٍ صغيرة أكلها بسرعة قبل أن تختطفها الأيدي التي امتدت إليها تمازحه في تحدٍ مرح.

انـــتهت ربـــة الـــدار من ترتيب السفرة فأعاد زوجها كلمات الترحيب بضيوفه وطلب منهم التفضل بتناول الطعام. ظل الكثير ممن في

المجلس في أماكنهم وقام رجل كبير السن وزوجته وبناته وأبناؤه متجهين إلى حجرة مجاورة. وهنا ألح المضيف على راشد بالنهوض معهم لأنه ضيفه هو أيضاً ويدخل بيته للمرة الأولى والواجب أن يأكل مع الضيوف قبل الآخرين. دخل راشد مع المرأة والرجل وبناهما وأبنائهما، وجلس الجميع حول خروف سمين يعتلي كمية وافرة من الأرز.

في البداية، وقبل كل شيء طلب الضيف صحنا فارغاً من مضيفيه فأتوا له بواحد متوسط الحجم، ملأه بالأرز واللحم قبل أن يلمسوا الطعام، غطاه ووضعه في أبعد ركن من الحجرة. ثم عاد إلى السفرة وأكل هو وزوجته وبناته وأولاده وراشد معهم مستاءً من أن تدنو المرأة وبناها معه ومع زوجها وأبنائها وهو الذي اعتاد على أن يأكل مع الرجال ثم تخلفه النساء ليأكلن مما فاض عن حاجته وحاجة الرجال.

خرج الجميع من الحجرة ليغسلوا أيديهم. وظل الصحن الذي ملأه الضيف نظيفاً لم تمتد إليه يد لكي يأكله أهل الدار في وقت لاحق. كانت تلك هي العادات. أن يعزل الضيف لأهل الدار كمية وافرة مما قدموا له من الطعام كتقدير وشكر لحسن ضيافتهم. ولكي يجد أهل البيت ما يأكلون فيما بعد لأن هناك احتمال بأن ينتهي الطعام إذا كان عدد الضيوف كبيرا.

وقف صاحب الدار ومعه صابونة وإبريق مملوء بالماء يصب منه على أيدي ضيوفه أمام صحفة واسعة. كاد راشد أن يزجر المرأة التي سبقته خطواها دون تعمد منها لتغسل يديها. تماسك والغيض يملؤه، وبدا تائهاً بين المرأة وبناها، يتراجع مبتعدا عنهن كلما اقتربت إحداهن لتغسل يديها حتى انتهين وهو واقف يكتم غيظه لأهن لا ينتبهن إلى تراجعه بل لا يأبهن لوجوده، وهو الذي يطأطئ رأسه ثم يرفعه، يجيل

بـــصره ليتأملهن حينا ويغضُّ الطرف أحياناً، ويتقدم ويتقهقر ويتصرف علـــى أن في الأمــــر حــــرج كبير. كل هذا وهن واقفات إلى جواره منـــشغلات بغسيل أيديهن غير منتبهات إلى ما يشغله ولا مراعيات لما يظن هو أن عليهن مراعاته، كان يتوقع منهن أن يقدمْنَهُ على أنفسهن.. يفسحن له الطريق.. يخجلن ويرتبكن لمجرد أنه رجل. لكن شيئاً من هذا لم يحـــدث. بـــل مـــا حدث هو العكس إذ كان هو المرتبك المشوش أمامهن، المشغول بكل أعصابه وخلايا جسده وتلافيف مخه بهن.

بعد أن عاد الضيف وعائلته ومعهم راشد إلى الجلوس في مكانهم السابق، قام من في المجلس من النساء والرجال من أهل القرية وجلسوا إلى الطعـــام يأكلون ما تبقى من الخروف والأرز، مختلطين في جلوسهم حول الطعام كما كانوا مختلطين في جلوسهن أثناء شرب القهوة. تلك كانت عاداتهم، أن يجلس الضيوف أولاً إلى مائدة الطعام، يجلسون نساءً ورجـــالاً، يليهم الجيران من أهل القرية، يدنون على الطعام مجتمعين لا فـــرق عندهم بين أنثى وذكر، ثم يدخل أهل المنـــزل إلى ذات الحجرة ليجدوا أن نصيبهم من الطعام لا زال نظيفاً وبعيداً عن الأيدي.

اســـتغرب راشـــد طريقتهم وساءه أن تجلس زوجه الضيف إلى جواره على الطعام، تقطع له اللحم وتثرثر معه ثم لا ينهرها زوجها، بل لا يعلق على تصرفها أصلاً.

ساءه ألا تعرف هذه المرأة مقامها فتجلس هي وبناتها معه على ذات المائـــدة. لـــيس هذا وحسب. بل ويخلفهن على الطعام رجال آخـــرون من أهل القرية، انتظروا إلى أن خرجت هي وعائلتها من الغرفة.

تساءل راشد في أعماقه عن زوجها الذي أكل معه هو وأولاده: كيف رضي بأن تسبق من في المجلس من الرجال وتأكل قبلهم؟ وكيف

رضـــي المضيف نفسه بأن تجلس هي وبناقما إلى الطعام قبل الكثير من الـــرجال الذين يزدحم بهم مجلسه. وأي إهانة تلقاها أولئك الرجال غير آبهـــين. إهانة في معتقدات راشد أن يدنوا الرجل على طعامٍ مع امرأة، فكيف إذا دنى بعدها. وهؤلاء الفتية الذين أنجبتهم ليكبروا وهم يروها ويرون أخواقم يخالطن الرجال دون أن تغلي الدماء في عروقهم كيف سيعلّمهم أن الكرامة والعزة هي أن تحفظ "حريمك".. تعزلهن.. تخفيهن عن الأنظار. وأن المهانة والخسة هي في خروجهن وتصرفهن بتلك الثقة التي لا تليق بالنساء دون خوف يردعهن ولا خجل يربكهن. إهن كما رأى راشـــد متشبهات بالرجال لأهن لا يعرفن الخنوع ولا الخوف من أي شيء، حتى منه هو.

حـــاول راشد أن يفهم كيف يعيش الناس في هذه القرية. وأدرك أن عـــبء التغيير إلى ما يؤمن بأنه الحق سيأخذ منه جهدا كبيراً فالقرية عـــنده كلها فجور وفسق يجاهرون به ولا يخجلون منه. بل لا يعلمون أهم مذنبون، وأهم جميعهم سيكونون حطباً لجهنم.

حتى مدينة أبها ذاقما لم تتخلص من كامل جاهليتها في نظر راشد. إذ لا تـــزال بعـــض النـــساء العجائز فيها على عاداقمن القديمة يمشين سافرات. ناهيك عن الفتيات اللواتي يشتغلن بالبيع والشراء في الأسواق مختلطات بالرجال دون عباءات تستر قدودهن النحيلة ولا أغطية تخفي وجوههن النضرة. تلك الوجوه التي تتباين ملامحها إلا في وجود "قُصَّة" على جبين كل امرأة، صغيرة كانت أو كبيرة، طفلة أو عجوز. كلهن يـــسدلن القُـــصص على جباههن ليصل انسدال الشعر من الأمام إلى الحاجـــبين. وجوه سافرة وثياب مطرزة وطفشات تعتمرها الرؤوس في الـــصيف والشتاء، وراشد أمامهن دون أن يأهن لوجوده أو يخفن منه كما كان يتمنى.. كأنه لا أحد.

لم يتردد في وصف كل شيء رآه لشيخه جهيمان حين سافر ليراه آخر مرة. وطلب راشد من شيخه أن يسرع في البدء بما وعدهم به لرد الناس إلى دين الله.

كثيراً ما يلتقي راشد من ضمن من يصادفهن من النساء بتركية في طريقة. يراها مثلهن لا تكترث لوجوده. لكن وبدون أن يشعر تسلل شيء من الافتتان بها إلى أعماقه. تمناها له، تأملها عند غدوِّها أو رواحها، ويسترجع صورها كلما أوى إلى فراشه ليشرع في تجريد الصورة من الثياب. ثم يأمُّ الناسَ فجرا ويملأ رؤوسهم بجرعاتٍ مكثفة من الوعظ القائم على الانتقائية والاجتزاء.

— 9 —

صاحبا الأيكة

في قرية آل وادح كان محسن أحد أهم الفتيان المتحمسين لما قاله الإمـــام الجديـــد راشد. و لم يكن حينها على علم بأنه بدأ ينضوي إلى جـــناح عسكري لتيارٍ جديد لا يعلم عنه شيئاً. محسن يود فقط أن يجد ذاته التائهة. أن ينتمي لوطنٍ أو لأحدٍ أو لشيء. وألا يبقى وحيدا غريباً كما هو.

يعاني محسن ما يعانيه من اضطراب منذ أن بلغ الثالثة عشرة وبدأ يجاهر بكرهه للنساء ويؤكد سوءهن دون استثناء. ثم صار في الخامسة عـــشرة حـــين جاء راشد إليهم. ووجد محسن في تعاليمه ضالته فصار يحفظ ثم يردد ما يقوله هذا الخطيب الجديد في خطبه وفي مجلسه الخاص الذي يجتمع فيه بمحسن والقليل من رجال آل وادح. ومع توالي الأيام صـــار الفـــتى محسن أقرب أفراد القرية إلى الشيخ الجديد. يجلس معه ويحدثه عن كل ما يعرف، ويحثه على طلب العلم ومجاهدة المجتمع لتغيير الفساد المنتشر فيه.

تعلـــم محـــسن من راشد الكثير وصار يقينه أكبر بأن الفساد هو خـــروج النـــساء، وأن الحرام هو الاختلاط بالنساء، وأن الرذيلة هي الـــتعامل مـــع النساء. وأن المصائب والكوارث والدواهي والمعاصي لا تأتي إلا عن طريق النساء.

صار لراشد فضلٌ كبير على محسن. ليس في تعليمه وحسب، إنما في التوســـط في مكان يجهله محسن ليحصل على وظيفة مؤذن للمسجد

وعلى راتب ثابت. ذلك المسجد الذي تعاقب عليه رجال كثيرون من أهل القرية يؤذنون فيه لوجه الله و لم يتقاضَ أيهم قرشاً واحداً من أحد.

تـــوثقت صلة الرجلين ببعضهما، وصار بينهما أهداف مشتركة سرية وأخرى معلنة يسعيان بدأب لتحقيقها. تتعلق بإرجاع الناس عن غـــيّهم إلى الرشد. والأمر الأكثر إثارة بالنسبة لمحسن هو الوعد الذي قطعـــه راشد له بأن يأخذه في يومٍ قريب إلى المدينة المنورة ليلتقي بأهل العلـــم ويأخذ عنهم مباشرة. ذات الوعود تلقاها الفتى أحمد إبر أبـــي موسى. فقط لأنه كان حزيناً لضياع آمنة.

شـــعور أحمد بخيانة الجميع له وسلبهم لمن كان ينوي أن يتخذها حبيـــبة في المستقبل آلمه وأوهنه، فصار صيداً سهل المنال، حيث يلتقي راشـــد بـــه مع محسن، فيحرص على المكوث معهما ليتعلما منه ما لا يعـــرفان عن الدين الجديد. كان من السهل استدراجهما، إذ ما أسهل استدراج الصغار إذا ما نوى الدهاةُ الإيقاع بهم.

محسن مندفع بكل غضبه إلى ما يريد راشد، وأحمد مستسلم بكل ضـــعفه لما يريد راشد أيضاً. لذا صارا يمتصان كإسفنجة جافة كل ما يقـــوله لهما. ويحبان تقليد كلماته وأفعاله. كلاهما ينهش قلبيهما الحزن والضياع، وأجاد راشد تكبيلهما بالوعود المختلفة. وعود تتعلق بالدنيا والمكانة العالية فيها، ووعود تتعلق بالآخرة والمراتب العليا في الجنة التي سيدخلانها معه فهما فقط الصالحان مثله.

يأخـــذ محـــسن مرآة مكسورة تضعها والدته بجوار أدوات زينتها ويخرج إلى نور الشمس ليراقب شعيرات بدأت تظهر على خديه، لعلها صارت أكثر وضوحا مما كانت عليه بالأمس. يتخيل نفسه وقد صار ذا لحـــية كثة كتلك التي على وجه راشد. عرف بأن راشد لا يحلق وجهه كشباب القرية. وقرر أن يكون مثله لا مثلهم. يغافل أمه ويمرر أصابعه

علـــى أسفل القدر المتسخ بالحُمَم بعد الطبخ على الحطب. ثم يخرج إلى الـــشمس ثانية بذات المرآة ويمرر أصابعه الملطخة على خديه لعله يوهم من يراه بأن لحيته صارت أشد سواداً.

لم يكن محسن جميل الملامح كوالدته مزيغة، ولا هو بأقوى فتيان القـــرية، وليس ذا نسب يتباهى به عليهم. كما لم يكن له مال يعطيهم مـــن فتاته. إذ بالكاد يجد طعام يومه قبل أن يصير مؤذناً، ويكاد يكون الوضيع في تلك القرية، ومع هذا كان معتدا بنفسه أيما اعتداد، يرى أنه فـــوق الجميع، حاد الطبع لا يحسن التلفظ بالكلمات الرقيقة، ولا يجيد التصرف حيال المشاعر الدافئة، وهذا ما نفّر الصبايا منه. إذ ما حاجتهن إليه وفي القرية صبيان يجيدون الغزل الرقيق ويصوغون كلماهم أشعاراً رقراقة كماءٍ تحدّر من فوق الجبال؟

زاد ســـخط محسن عليهن لنفورهن منه. وزاده نفورهن قربا من راشد. أما أحمد فليس ساخطاً ولا راضياً، إنه فقط واهنٌ لأنه يظن أهم سرقوا منه آمنة.. حلمه الجميل. تلك الحلم التي غادرت حين كان أحمد ينتظـــر بعض الوقت يمضي ريثما يلتقط لها نجوما من السماء ليصنع لها تاجـــاً يهديها إياه بعد أن تكبر قليلاً. لكن.. لم تقترب النجوم ليقطفها كما تمنى و لم تكبر آمنة أمام ناظريه.

أمـــا محسن فلا يعدُّ من أهل القرية الأصليين. حيثُ جاءت به أمه "مزيغة" وهو رضيع لم يتجاوز عمره الأسابيع، وحلّتْ به عند آل وادح تعمـــل أجـــيرةً بقوتِ يومها في المزارع، تعاون من أراد معونتها أثناء الحـــرث والـــبذر والسقي والحصاد. ثم تنقل السنابل إلى الجرين معهم ليدوســـوها بواســـطة المـــداوس التي تجرها الأبقار فينفصل الحثى عن الحـــبوب. وبعد هذا يحملون الحثى إلى مخازنه ليطعموا به مواشيهم فيما بعـــد أما الحبوب فيذرُّونها في مواجهة الرياح كمرحلة أولى من مراحل

تنقيتها، ويتواصل العمل إلى أن تعبأ الحبوب في أكياس عديدة ثم يصل بعض تلك الأكياس إلى الرحى فتتحول إلى دقيقٍ يعجن ويخبز كل يوم. وبعضها الآخر يوضع تحت الأرض في خزاناتٍ مخصوصة تُسمى مدافن. يظـــل فيها إلى أن يستهلكوا ما طحنوه فإن جاء موسم الحصاد القادم ولديهم الكثير مما بقي من عامهم المنصرم تصدقوا به على الفقراء لكي يفرغوا خزاناتهم لحبوب الموسم الجديد.

برغم كل ما تقوم به مزيغة من عمل طوال سنوات وجودها عند "آل وادِح" ظلـــت تعاني الفقر هي وابنها الوحيد محسن وبقيت منبوذة مـــن قِبَلِ نسوة القرية لأن الجميع يتشكك في صحة ما ترويه عن والد ابنها لتضارب أقوالها حوله.

قالـــت لإحدى نساء القرية مرةً إن زوجها طلقها وأرد أخذ أبنه فهـــربت به وظلت تتنقل بين القرى إلى أن حل بها الترحال عند "آل وادِح". ثم تـــروي لامرأة أخرى بعد عدة أيام من حلولها في القرية بأن زوجها مات وخافت أن يأخذ أهل الزوج طفلها فهربت به. إضافة إلى مـــا تقـــوله عن قريتها الأصلية. إذ كلما سألها أحد من أي البلاد هي أعطت إجابة تختلف عما قالته من قبل.

واجهـــتها بعـــض النساء بما تقول لكل واحدة منهن على حدة وســـألنها ما إذا كانت أرملة أو مطلقة، فكان ردها بأن زوجها طلقها ثم مـــات ولأنها يتيمة كما تدعي فقد هربت قبل أن يأخذ أهل زوجها ابنها منها.

أدركـــتْ النساء أن مزيغة ليست المرأة التي يمكن أن تهرب من أجـــل الاحـــتفاظ بطفلها أبداً فها هي تضربه عندما يبكي جوعاً. تضربه لأن بكاءه أزعجها أو لأنه لوّث ثيابه ولا تجد له من الغيارات ما يكفيه.

تشعر مزيغة بحاجتها للانتقام من أحدهم ولا تقدر إلا على طفلها اللاهـــث خلـــف أذيال أمومتها الباهتة. ليست كالأمهات أبداً إذ لم يلحظـــن في قلبها ذلك الإشفاق البالغ الذي يعرفنه في قلوبهن، و لم يبدُ عليها يوماً أي تعلق بالصغير.

كـــل تلك الملاحظات ليست إلا قرائن على أن هذه المرأة حملت ســـفاحاً وفرت من أهلها قبل أن يقيموا عليها حد الزنا. وظلت تتنقل بين القرى إلى أن أنجبت طفلها محسن ثم أتت به إلى قريتهم. و لم تعترف مـــزيغة أبداً بما ظنوه فيها و لم يجدوا دليلاً على شكوكهم، فظل الأمر بيـــنها وبينهن معلقاً، لا هي اعترفت بما يتداولنه عنها ولا هن صدقنها فـــيما تدعيه. مزيغة تندب حظها أحياناً وتطلق تنهيدة عميقة تنبئ عن جرح غائر قديم يعاود الإيلام بين حينٍ وآخر.

كانـــت فاتـــنة جداً بوجهها النضر وضحكتها العذبة. جمالها من الـــنوع الصاعق. يضطر من يراها أن يظل مفتوح العينين لا يرمش بهما للحظات. أحبها نصف شباب قريتها وعدد من شباب القرى المجاورة. وتعلقت هي بـــ "سعد".

تمنته زوجاً، لكنها ابنة "إم صانع" ولن يوافق أهله على الزواج بها وهو رفيع النسب يجيد أهلُهُ زرعَ حقولٍ تتعدى حدودها امتداد البصر.

لا يوجد في قرى الجنوب أي إقطاع ولا إقطاعيون، فالأكثرية مـــن سكان القرى يملكون أراضٍ تتفاوت مساحاتُها. بعضهم تصل مساحة أراضيه إلى أضعاف مساحة أرض جاره، ولكن يظل الجميع مـــالكين، و لم يعرف الجنوب السخرة التي تعني أن يعمل الجميع في أرض أحدهم ثم يرمي لهم صاحب الأرض بالفتات. كلهم أصحاب أرض وقـــد يعـــاون بعضهم بعضاً لأنهم من قرية واحدة وليس لأن

أحـــدهم أجـــيراً عـــند أحد. أما الأقلية الذين لم يفلحوا أرضاً و لم يـــزرعوها فقد اشتغل بعضهم بالصناعة، وتمايزوا فيما بينهم حسب الحرف التي أتقنوها.

في بعـــض القـــرى عائلـــة أو اثنتين ممن لا يملكون أرضاً لكنهم يـــشتغلون بالـــصناعة. يصنعون كل ما يحتاجه الناس في محيطهم. حتى الأواني وبعـــض أنـــواع الأدوية والعطور وأدوات الزينة، فيحققون بما ينـــتجون تـــوازناً مفيداً. وهكذا كان الحال بالنسبة لوالد مزيغة. لكن العـــرب اعتادت أن تزدري وتنتقص ما لا تفعله، وأن يرى كل إنسان أن ما يقوم به هو الأهم والأفضل.. لذا يتعالى المزارع على من لا يزرع فـــلا يرى البدوي والصانع مساويين له، بل يرى أنه أعلى شأناً منهما. وبالمقابـــل يظن البدوي أنه أفضل ممن يفلحون الأرض ويزرعونها لأنه مستغنٍ عن كل شيء وليس بحاجة إلا إلى خيمة وبعض الإبل والماشية.

هـــذا هو حال الناس ما دام الفرد فيهم لا يجد ما يميزه ويعلي من شـــأنه فيضطر إلى التفاخر بواقعه الذي هو فيه حتى ولو كان فخراً بلا شيء.

ذلـــك التمايز والتفاخر بين الناس يدركه سعد تماماً ويدرك أيضاً مدى استحالة زواجه من مزيغة ابنة صائغ الفضة. فالأعراف التي تُبجِّل الأرض وتُعلـــي من شأن زارعيها إلى الحد الذي نتج عنه احتقار من لا يـــزرع حتى وإن تفوق عليهم وصنع ما يعجزون هم عن صنعه. تلك الأعـــراف تكبل كل عشقٍ لا يقر بها ويراعي حدودها. أعراف تخنق الحب حتى الموت طالما لم يلتزم بقواعدها.

يـــدرك بعـــضهم أنـــه ليس عدلا ولا إنصافاً ما يعتقدونه بشأن الأنـــساب. يعرفون أنهم كلهم لآدم.. وآدم من تراب. ويدركون أيضاً أن مـــا ينـــتجه الصانع مهم لدرجة أنهم لا يستغنون عنه. وأن لبعض

الصناع صفات يتمنون أن يكونوا عليها.. إذ فيهم من اجتمعت له أعز مـــا يتمنى الإنسان من صفات.. فهو الغني.. النبيل.. الكريم.. الحليم.. الـــشجاع.. الأمين. وبرغم إدراكهم لكل ذلك.. ظلت العادات أقوى من أن يجاهر أحدهم برفضها.

مـــزيغة المكـــبلة بالعُرف القاهر أحبت سعد من بين كل الذين تـــوددوا إليها وغردت قلوبهم لضحكتها. استسلمت لهذا الحبيب وهو يطـــوقها وينحني حولها، وينسكب فوقها ويعاهدها بأن تبقى عذراء. يلتقي بها تحت أيكة وارفة يكثر حولها العشب لقربها من غديرٍ لا تجف مياهه طوال العام. كانت محلقة مع حلمها المستحيل تتحدث مع سعد عن أيامهما المقبلة. تبتسم وهي تسمي أيكتهما تلك بما حولها: "بيتنا.. ألسنا نلتقي دوما هنا.. هو ذا بيتنا إذاً."

يهز سعد رأسه موافقاً وهو يتشممها ويختطف اللذة اختطافاً كلما وجد فرصةً إلى ذلك دون أن يقوم بما ينقض العهد. لكنها ظلت تتمنع في دلال، وهـــي الـــشهية كثمارٍ ناضجة. أغراها بعهدٍ جديد قطعه لها لحظة شبق:

سأعرس بش. دعيني أقترب أكثر.

أرادت أن تثـــبت له كم تحبه لذا لم تدفعه عنها حين دفن وجهه بـــين نجمـــتين أضاءتا على صدرها إثر اهتصارهما. ولم تعد تسمع إلا شهيقه وهي بين المقاومة والاستسلام.

وسألته:

- تعرس بـــي؟! كيف؟ سيقتلنا أبوك.
- لا.. سنهرب. نهرب إلى أبها ونعرس هناك.

كـــان يرتشفها كما يرتشف ماءً انتزعه من بئر باردة ساعة ظمأ ويستنـــشقها كزهرة مندّاة بضباب الصباح، تكرر استسلامها له تحت

تأثير حبها ورغباتها ووعوده. وتعاظمت ثقتها به عندما اكتشفت صدقه حين قال لها إنه يستطيع إشعارها باللذة مع بقائها عذراء.

حذرتها صديقاتها المقربات وأكدن لها بأن سعد يسيء إليها بما يصر على فعله معها. أخبرتها صديقاتها أيضاً بأن كل حبيب ينوي الزواج بحبيبته لا يفعل ما يفعله سعد، بل يكتفي باللقاء العفيف، فإن استبدت الأشواق ببعضهم فلن تدفعهم إلى القيام بما يقوم به سعد. لكن الحب أعماها جعلها تنوي التنازل أكثر لكي لا يذهب منها سعد إلى غيرها.

خوفها من أن يتركها ويتزوج بأخرى لأنها ابنة صانع جعلها توافق على أن يقترب منها أكثر مما اعتاد عليه الأحبة. وبرغم كل ما قيل لها ظلت على أمل أن يكون تساهلها مع سعد سبباً في إرضائه وتمسكه بها وإصراره على إتمام زواجهما.

صارت في الثامنة عشرة ولا زالت دون زواج لأنها رفضت المتقدمين لها ممن يتساوى نسبهم بنسبها رغبةً في سعد. وسعد مشلول الإرادة أمام سطوة والده والتقاليد، لكنه يحلم معها أو يوهمها بأنه يحلم باللحظة التي تفيق فيها القرية فلا يجدون لهما أثراً. إنه ينتظر شيئاً ما لا يدري ما هو سيأتي يوماً لا يدري أيضاً متى سيأتي ليملأه بالثقة والقوة والشجاعة فيهرب بحبيبته ويتزوجها.

مرت شهور طويلة ومزيغة لا تفيق من حلمها. و لم تلاحظ أن وزنها زاد قليلاً، و لم يلاحظ أحد. لم تنتبه إلى شعورها بالغثيان كل صباح، وانتبهت أختها سليمى فسألتها:

- مابش؟
- ما يدريني.. أظن أنه لبن البارحة ذا شربته لم يكن نظيفاً.
- شربنا منه كلنا.

- بطونكم غير بطني. بطني لا يقبل إلا ما كان حسناً وجيداً.
- يا جورٍ بش يا مزيغة[1].

انقطعـــت عنها دورتها الشهرية شهر ثم ثانٍ وثالث. وبدأ بطنها يتكور قليلاً ثم يعلو مع الأيام. إلى أن أحست بشيءٍ يتحرك داخلها.

أدركـــت مصيبتها لكن لم تدرك كيف حدث هذا وهي على ثقة بأنها عذراء. كيف صارت حبلى وسعد كان صادقاً ولم يولج أي شيء مـــنه فـــيها؟ إلى من تلجأ وبمن تستجير؟ ماذا سيفعلون بها لو اكتشفوا أمرها؟.. من سيصدق بأنها عذراء؟

والدها "إم صانع" مشغول منذ الفجر وحتى المساء بصناعاته التي تـــدر عليه أرباحاً تجعله أكثر ثراءً من بعض ذوي النسب الرفيع الذين يحتقرون حرفته فلا يزوجونه ولا يتزوجون من بناته، هذا الصانع المبدع يـــذيب الفـــضة ليـــصوغ منها أساور.. خلاخيل.. عقود.. خواتم.. أقـــراط.. وعـــصاباتٍ للرؤوس، لتتزين النساء في كل القرى المجاورة والبعيدة بما تبدع يداه. رجل لو أنه في غير تلك البلاد لانبهر الناس بما يـــصنع ولقالـــوا عنه أنه مبدع وفنان، ولربما حصل على جوائز عديدة تقديراً له على ما ينتج من حلي جميلة وتصاميم مبتكرة.

أمـــا نساء الصّناع فهن أكثر أناقةً من نساء ملاك الأرض وأكثر اعتـــناء بالـــنفس والـــزوج والـــولد. بيوتهن دائماً مرتبة و"مصهورةً مخضورة"[2] في كل حين. طعامهن أشهى وألذ ولديهن دائماً من الحلي والثياب الجديدة والنظيفة ما ليس عند غيرهن. يجدن الاعتناء بأنفسهن

---

(1) الجور في اللهجة العسيرية يعني الغرور. يا جورٍ بش = ما أشد غرورك.

(2) تطلـــي كـــل النساء بيوتهن من الداخل بالنورة التي يستخرجنها من بعض الجبال. ثم يفركن البرسيم على الجدران ليصبح نصفها الأدنى أخضر اللون ثم يرسمن في بداية النصف الأعلى أشكالاً هندسية بديعة متداخلة متعددة الألوان. ويتبارين في إتقانها.

ويستخدمن عطوراً صُنعت من أشجار وزهور البيئة المحيطة بهن، يعطرن ثـيابهن ببعضها ويضعن بعضها على أجسادهن مباشرةً بعد الاغتسال. ذلـك لأن زوجـة الصانع الذي لا أرض له، تقضي معظم وقتها في منـزلها طالما كان زوجها خارجه يذيب المعادن ويشكلها حلياً وسكاكين وجنابـي. أو يـصنع الخـشب أبواباً ونوافذ وغيرها. فلا حقول لدى الـصناع ليـزرعوها ولا بساتين ليسقوها ويقطفوا ثمارها. وهذا يعني ألا تـشغل المـرأة خارج الدار إلا لوقت قصير، إما للتنـزه مع رفيقاتها أو لجلـب الماء والحطب. أو لقطف بعض النباتات أو الحشائش لاستخدامها في العلاج وصناعة العطور أو الدباغة أو لتموين المنـزل بالثمار التي تنموا علـى جانـبي الـوادي وتكون مشاعاً للجميع وليست لأحد، فتعود الواحدة منهن وفي "مكتلها"[1] حماط وبرشوم ورمان وغيرها.

بقـاء زوجـات الـصناع في المنازل لساعات أطول من غيرهن أعطـاهن وقـتاً لتهـتم الواحدة منهن أكثر بكل شيء في الدور وفي أنفـسهن وأطفـالهن. ومزيغة كانت أكثر صبايا قريتها أناقة واهتماماً بالنفس إضافة إلى ما هي عليه من جمال. وها هي الآن لا تدري إلى من تلجأ. ثم هداها تفكيرها إلى سعد. أوليس والد هذا الجنين الذي يتخلق وينمو داخلها.

كانت تنتظر أن يعانقها كعادته لكنه بعد أن استمع إليها تسمر في مكانـه للحظات ونظر إليها بكثيرٍ من الذهول ثم بدأ يمشي إلى الخلف ليجعل المسافة بين جسديهما تتزايد بتزايد خطواته المتقهقرة.

– ما بك تبتعد عني يا سعد. لِمَ لا تجيب؟ متى سنهرب قبل أن يقيموا علينا الحد؟

(1) المكتل: القفة.

- اهربـــــي أنـــتِ مع ذا حبلتِ منه. اهربـــي مع والد جنينش ذا خنـــتِني معه. أتجهلين والده لكثرة الذين سلّمتِهم نفسش؟ وأنا إم خـــبل ذا ظننتش عذراء وظللت حريصاً عليش في كل عناق أقاوم اندفاعي لئلا أؤذيش.

بكـــت مما يقول.. كادت تغرق في دموعها لكنه ظل مصراً على موقفه لثقته التامة بأن شبقه لم يدفعه يوماً إلى نقض العهد برغم تجردهما معا من الثياب. وتابع تقهقره خطوتين ثم استدار وتركها تنشج وتغص بشهقاتها.

رأتـــه وهـــو يبتعد شيئاً فشيئاً وبعد مسافة مترين أو أكثر لم تعد تراه. هل حجبت دموعها قدرة عينيها على الرؤية؟ أم أنها لا تراه لأنه غاص في ضباب كثيف.

اختفى سعد بعد أن كان معها.. تبدد في الطريق أمامها بعدما دار في فلكهـــا شـــهورا عديـــدة. غادرها مبتعدا وهو الذي كان يسكن أرجاءهـــا. أغمـــد كلماته في صدرها ومضى. وهو الذي هتف كثيرا داخـــل روحهـــا حتى أنساها احترازاتها من سقوط سحيق كهذا. من يساعدها الآن لينسل سعد من مهجتها وينسل معه جنينهما؟

جلست مكانها، تسند هلعها على جذع عرعرةٍ كبيرة والأرضُ.. كـــلُ الأرضِ.. لا تكـــاد تحمـــل ثقل مصيبتها. شعرت بأن الشجرة منـــــزعجة من اقترابها. وكل شيء يشهد ضدها. تدينها الأشياء التي أحبـــتها حتى جذوع الأشجار. فاضت من عينيها دموع غزيرة. لكن هل ستكفيها؟

أفاقـــت مـــن بكائها بعد ساعات وهي في ذات المكان. لم تغادر عـــسى أن يعـــود ســـعد الذي طالما وثقت به ووثق بها. لكنه لم يعد. لاشـــيء تلحظه سوى هذا الزفير الأبيض الذي يخرج من فمها الجميل

لـــشدة البرد. والذي نبهها إلى أن عليها أن تتحرك من مكانها قبل أن تتجمد.

انكـــسر قلـــب مزيغة وتهشم. وكلما مرت الساعات وسعد لم يعد تدرك أن حملها بثقل الجبال ولو لم يُرَ، وأن الشرع سيقيم عليها حداً رهيباً ولو لم تدرِ ما هو، وأن سعد بعثر أحلامها التي صحبتها أشهرا طويلة حتى تناثرت وابتعدت عنها إلى أن اختفت في أقصى نقطة في السماوات.

يا لها من تعيسة.. مجروحة في عمق كرامتها. أوجعها أكثر من أي شيء آخر شعورها بالهوان عند حبيبها.. شعورها بالضعة. ذهب حتى دون أن يودعها. كيف تركها واختفى وهو الذي كان يمتلئ بها؟

قذفت بها تصوراتها يمنة ويسرة، فتجزم ساعة بأنه سيعود ويقبلها ويبكـــي معـــتذراً ثم يأخذها إلى مكان بعيد ليتزوجها أمام الملأ ويفرح معهـــا بمولودهما القادم. ثم لا يلبث يقينها أن يخور خلف اختفاء سعد وسط الضباب.

نظـــرت حولها.. فتشت في الصمت المحيط بها عن معنىً لما يجري. نظـــرت إلى الأعلى.. أغصان العرعرة تزدحم بالعصافير: (لم نسمع من قبل أن عصفورا تخلى عن عصفورته إن أعلمته بأنها حبلى، فلماذا كان البشر هم الأسوأ دائما بين مخلوقات الله.. العصافير لا تخوّنُ أحبتها.. لا تبكـــي.. فقـــط تغرد. ليت البشر فقط يغردون. لو أن البشر يغردون لكان حَبَلي هذا مدعاةً لمزيد من التغريد).

كيف امتلأ هذا المكان بالوحشة بعد أن كان مكاناً للحب. هذا المكـــان الذي كان للترنم غدا الآن للنواح؟ كيف تحول العشب تحت قدمـــي مزيغة إلى جمرات تلهب حتى قلبها وهي التي حين تمرغت فوقه مـــرات عديدة مع سعد نصف عارية كأنما تمرغت فوق خميلة خضراء بالغة الطراوة.

قامت واهنة تلملم حطام قلبها الذي تناثر مع كرامتها ودموعها. تمـــشي على غير هدى لا تدري ماذا ستفعل لكنها وجدت نفسها أمام باب الدار وقد حل المساء.

ظلـــت تتقلب بلا نوم وطال بها الليل. هل تخرج ثم لا تعود أبداً؟ هـــل تنتظر إلى أن يأتي النهار لترى طريقها وتقرر أين تذهب؟ وظلت تتساءل إلى أن أرغمها الأسى على أن تغفو قليلا.

لـــيس غريباً عند والديها أن تبقى خارج الدار طوال ساعات النهار مثلها مثل سائر فتيات القرية. تذهب معهن عند الآبار لتستقي وإلى الغابـــات لتحـــتطب ثم ترافقهن في الحقول والبساتين لتتسلى وتـــسليهن وحـــسب. لكن أين تذهب وقد غابت شمس سعد من حياتها، وبطنها ستفضحها كلما مر الوقت. مع من تهرب وقد تخلى عنها حبيبها. لم يتخلى فقط.. لقد اتهمها بالخيانة. اتهمها وكله ثقة مما يقول.

في الـــصباح خرجت تسير على غير هدى. تركت لقدميها القرار لـــتقودالها إلى حيث تريدان. تكفكف دمعها كلما انهمر وتلعن هواها وبؤسها. تبدل الحب إلى كره، وانقلب الحبيب إلى عدو، و لم يشفع لها حتى جمالها عند سعد ليتراجع عن موقفه.

انتبذت بجنينها مكاناً قصيّاً على أطراف القرية رغبة في البكاء ألماً مما اتهمها به حبيبها وحزننا على حالها وحيرة فيما يجب عليها أن تفعله. تمـــنت أن تنـــشق الأرض وتبتلعها. ثم تمنت أن تبتلع الأرض كل من عليها، أن تقوم القيامة، أن تنتهي الدنيا.

بـــدا لهـــا أن سعد كان يتسلى بها وأنه لم يكن ينوي أن يتخطى التقاليد من أجلها. جمالها شده إليها فأغراها بالزواج وهي التي تعلم بأن نـــسبها (الوضـــيع في معـــتقد أهل قريتها) يقف عائقاً بينهما. كيف

صـــدقته؟ كيف أقنعها بأنه لا يهتم بكونه ابن رجل من ذوي الأصول العريقة والأنساب الرفيعة.

رفعة النسب وعراقة الأصل لا تتحقق إلا بامتلاك الأرض وزراعتها. والأكثـــرية هم من يفلحون الأرض جيلاً بعد جيل. لذا فإن الأكثرية هم مـــن قالوا بأن من لا أرض له لا أصل له. وها هو الأصيل سعد قد وجد المخرج لتركها وهو الذي يسوِّف لهروبهما من أجل الزواج. تركها بعد أن تـــسرب شيء منه إلى داخلها حين كان مطره يهطل مراراً وتكراراً على ظمئها. هل كان قلبها ضريراً إلى هذا الحد، فلم يرَ خداعاً ولا تسويفاً ولا لقاءات مغلفة بالحب وهي بدافع الرغبات؟

صـــارت في كل يوم على هذا الحال. تبكي وتتأمل ما هي عليه. تبقى وحيدة إما عند منعطف الوادي أو في أحد البساتين إلى أن تختفي الـــشمس ولا يبقى مضيئاً إلا وجهها الحزين حيث يبدوا الليل ووجهها كبـــياضٍ أحاطـــه سواد، فتعود كسيرةً إلى المنـــزل تلقى التحية أو لا تلقيها وتنسل إلى فراشها صامتة.

ظنت والدتها أنها تتهرب من أعمال المنـــزل كعادتها ثم شكّتْ في اليوم الثالث بأن ابنتها مريضة لأنها تنام قبل تناول طعام العشاء.

اقتربت والدتها منها وسألتها:

- مـــزيغة مـــا بش؟ شيء يضيمش؟.. هيا يا ابنتي كلي معنا.. لقد صنعت فروقة[1]. أنت تحبينها كثيراً.

لم تجب وظلت صامتة متظاهرة بالنوم. كادت تجيب بالدموع. ولـــو اســـتمرت والدتها دقيقة أخرى عند رأسها لسمعت بكاءها

---

(1) الفروقة: شُربة تعد من اللبن المغلي مع الدقيق وقطع العجين. قد يضع بعضهم اللحم المقطـــع إلـــى أوصال صغيرة جداً وقد يكتفي بعضهم بحبوب الدخن داخل اللبن وقد يُكتفى باللبن والدقيق.

المكتوم ولرأت ارتجاف جفنيها المغمضين على ضوء المصباح الشحيح.

في يومها الرابع بعد أن تخلى عنها سعد فوجئت ببعض بنات قريتها يبحثن عنها لاهثات وحين رأينها تراكضن إليها وهي تجلس على الأرض في منتصف جبلٍ قريبٍ من القرية.

ضربن وجوههن استياءً وخوفاً وبكين مجتمعات حولها:

- ماذا فعلت بنفسش وبأهلش وبنا يا مزيغة.

ضربن كفاً بكف ثم بدأت أصواتهن تعلو بالبكاء. لم تكن أختها سليمى بينهن. لقد حجزها أبوها في الدار ثم ضربها لتعترف بما لديها عن أختها، ولم يصدق بأنها لا تعلم عنها شيئاً برغم الأيمان التي أقسمت له بها.

لقد فضح سعد مزيغة حين أسرَّ بالأمر إلى بعض أصدقائه وانتقل الأمر منهم إلى كبار السن من الرجال والنساء. فاشتعلت القرية في دقيقة واحدة باسم مزيغة وتبرع الجميع للبحث عنها. لكن صديقاتها أدرى بالأماكن التي تحب الجلوس فيها فوصلن إليها قبل الآخرين بدقائق.

كل القرية استعادت حكايةً قديمة لا يدرون متى حدثت ولمن حدثت لكن كبار السن يروونها نقلاً عن آبائهم الذين سمعوها بدورهم ممن هم أكبر منهم.

يقولون إن كلباً من كلاب الرعيان في ماضٍ سحيق حين خرج مع الأغنام قبيل الشروق صار ينبح بشكل متواصل. فلم يأبه الراعي إلى نباحه وساق الغنم باتجاه المرعى ونَهَرَ الكلب ليتوقف عن النباح وليسير مع الغنم كالمعتاد. وبعد أن مشى الكلب قليلاً مع الغنم انعطف فجأة عائداً إلى القرية. استغرب الراعي وعاد مع كلبه ليرى ما الذي أثاره.

ولتـــزايد نباحه، تساءل الناس الذين خرجوا لأعمالهم عما يجري. فقال الراعي إنه لا يدري ما الأمر لكن الكلب لا يفعل هذا إلا إن كان هناك شيء ما.

- تـــركت غـــنمك في الطريق وعدت مع كلبك؟ هل أنت مجنون؟ غنمك سوف تتفرق وتضيع ولن يجتمع لك نصفها بعد ذلك.
- وماذا أفعل.. ها أنتم ترون الكلب يواصل النباح والركض.

أثـــار الأمر فضول الكثيرين وأخذوا يسيرون خلف الكلب الذي توقف في مكان يجمعون فيه روث المواشي لتجففه الشمس ثم يأخذونه إلى حقـــولهم كسماد للأرض. ولأنهم يكنسون "إم سفالي" باستمرار. ولأن الغنم كثيرة. يصل تعدادها عند بعضهم إلى المئة أو المئتين أو أكثر وعـــند العـــائلات الكبيرة قد تصل الأغنام إلى الخمس مئة رأس. وكل عائلـــة تحرص على أن تُسمد حقولها كل موسم، صار الروث تلاً كبير الحجم يسمونه "إم جثوة"

حفر الكلب بيديه في "إم جثوة" ونبش إلى أن أخرج مولوداً ميتاً لا زالت دماء الولادة عالقة بجسده.

تـــصايح الـــناس وارتبكوا.. بكى بعضهم ووضع البعض الآخر أيديهم على رؤوسهم حين رأوا الطفل معلقا بفم الكلب.

أسرعت امرأة كبيرة في السن إلى الكلب تربت عليه وتأخذ الطفل من فمه ثم طلبت من أحد الرجال أن يعطيها عمامته لتلف هذا الصغير فيها.

تـــولى رجال القرية غسيل المولود وتكفينه ثم صلوا عليه ودفنوه في"مجنّة" قريتهم بعد أن سموه (عبد الصمد).

اجتمعوا ليتدارسوا الأمر وليروا ماذا يمكن أن يفعلوا تجاه من قتلت طفلها حين ولادته ثم دفنته وسط روث المواشي.

- لا شـــك أنها حملت به سفاحاً وإلا لما دفنته في هذا المكان السيئ مهما حدث.
- معك حق.. وأرى أنها من قريتنا. لأنها خرجت من بيوتنا ووجدت أن أقـــرب مكان لدفنته هناك. و لم تكلف نفسها الابتعاد أكثر. لو كانت قادمة من خارج القرية لدفنته قبل أن تدخلها.
- نعم هي من عندنا. وربما خافت إن ابتعدت به أن يراها أحد وهي تحملـــه بين يديها فدفنته بسرعة في أقرب مكان تستطيع الحفر فيه. لا تنـــسوا أن طرقات القرية كلها مرصوفة بالحجارة ولن تستطيع الحفر في أي مكان بين بيوتها.
- وربمـــا رآهـــا أحـــد وهي في طريقها فتظاهرت بأنها تضع روث مواشيها هناك لكي لا يتساءل عما بين يديها.
- لا يعقـــل أن يكون قد رآها أحد لأن المولود كان عارياً. ولو رآه أحد معها لما ظن أنه شيء آخر. ولكان انفضح أمرها فوراً.
- مـــاذا تـــرون؟ ماذا نفعل؟ كيف سنكتشف الفاعلة؟ هل نسكت وينتهي الأمر..؟
- لا.. لا نـــسكت. يجب أن نجدها ونقيم عليها الحد. لقد أزهقت روحاً بريئة. وسيعاقبنا الله بذنبها إن لم نطهرها.
- وكيف سنعرفها؟
- نختار امرأة ممن نثق بحكمتها ورجاحة عقلها وكبر سنها لتكون قد انقطعت عنها عادتها الشهرية فلا تدخل ضمن من يُشك في أمرها، ونطلب منها أن ترى كل نساء القرية وصباياها. ومن تجد فيها دم نفاس نمسك بها ونقيم عليها الحد.
- ومـــاذا إذا كـــان هـــذا الـــوقت وقت العادة الشهرية لبعض إم نسوة؟

- نسألها متى تطهر. ثم تراها العجوز مرةً أخرى بعد مرور أيام عادتها فـإن طهـرت فليـست هي. وإن ظل الدم كانت هي أم ذلك المسكين.

ترددت المرأة التي وقع عليها الاختيار في قبول ما يكلفونها به. لكـن الرجال أقنعوها بأن تلك هي الطريقة الوحيدة لتطبيق حدود الله وإنهـا إن لم تفعـل ما يقولون ستأثم لأنها لا تعينهم على إقامة الشرع.

رفضت الكثيرات أن يخضعن لفحص تلك المرأة. وبكت الفتيات خجلاً وهلعاً. لكن الرجال هددوا باتهام كل من ترفض.

جلـست المـرأة العجوز في حجرة مغلقة داخل منـزلها. وجميع سـكان القـرية متجمهرون أمام البيت. والرجال يحثون النساء على الدخول إليها واحدة تلو الأخرى. وكلما خرجت امرأة نظر الناس إلى غيرهـا لـتدخل. وظل الرجال خارج المنـزل ينتظرون خروج المرأة العجوز إليهم وهي تمسك بتلابيب إحداهن.

خـرجت المـرأة بعد انتهائها من آخر امرأة كانت معها لتعلن للجميع أن لا أحد من نساء أو فتيات القرية هي الفاعلة. وحتى اللواتي تصادف موعد عادتهن الشهرية في ذلك اليوم ليس من بينهن من أنجبت طفـلاً لأن موضـع خروج الطفل لا يعود إلى حالته الطبيعية إلا بعد أسـبوعين أو أكثـر. وذلك الجنين تم وضعه بين الروث قبل الفجر أو بعـده في ذات اليوم الذي وجدوه فيه لأنه كان طريا ودماء النفاس لم تجف تماما من على جسده الصغير.

انتهـى أمر القرية إلى التوقف عن البحث والاكتفاء بالدعاء على من فعلت بأن يفضحها الله في يومٍ قريب.

قالت صبية صغيرة:

- لكن الله شاء لها الستر فلماذا لا تواصلون الدعاء بأن يسترها لا أن يفضحها الله. إنكم كمن يعترض على إرادته وهو الذي أراد لها الستر.

نظر الناس إلى بعضهم بعضا واتفقوا على صواب ما رأت تلك الصغيرة.

- إذاً فلنسأل الله الستر لنا ولها ولكل المسلمين.

ظل الدعاء بالستر متواصلاً على ألسنة الجميع جيلا بعد جيل. وتقول الرواية إن المرأة العجوز التي كان عليها أن تنظر إلى كل امرأة على حدة بعد أن تتجرد من ثيابها كانت تجلس مع كل واحدة في الحجرة المغلقة وتطلب منها أن تضع يدها على المصحف وتحلف بأنها ليست هي الفاعلة. ثم تجعلها تقسم مرة أخرى على المصحف أيضاً بأنها لن تخبر أحداً بأن العجوز لم تكشف عليها.

فعلت هذا مع كل النساء، وجنّبت نفسها وجنّبتهن حرج النظر إلى عوراتهن. وأخبرت كل واحدة منهن أنها الوحيدة التي لم تنزع عنها ثيابها وأن عليها أن تصمت إلى الأبد وإلا فإن الرجال هم من سيتولون أمر تفتيشها.

ظل السر الذي تحمله كل نساء القرية سراً في صدورهن. لا تعلم أي واحدة منهن أن غيرها تعرفه. كل واحدة منهن ظنت أنها الوحيدة التي لم تنظر العجوز إلى ما تحت ثيابها.

بعد أن ماتت العجوز تحدثت امرأة إلى أختها وغيرها إلى أمها وأخرى إلى صديقتها.. يذكرنها بالخير على ما قامت به تجاههن. وهكذا بدأ الأمر ينكشف بالتدريج. واكتشفت النساء أن تلك العجوز لم تكشف على أي واحدة منهن. وظل الدعاء بالستر مستمراً أجيالاً تلو أجيال إلى أن هزت القرية فضيحة مزيغة.

بكـــت مزيغة مع صويحباتها الباكيات حولها في أسفل سفح الجبل وقالت لهن:

- والله لم يقـــربني بشر. والله إنني عذراء. فتشوني. سأطلب من أمي وخـــالاتي وكـــل امرأة يثقون بها أن تراني، وسترى أنني عذراء لم يمسسني بشر.

ربـــتت صـــديقاتها علـــى كتفها وبكين معها. ثم التفّ الرجال والفتـــيان فجأة حولهن ما عدا والدها الذي ظل في بيته لا يدري كيف سيواجه الناس بعد الذي عرفه عن مزيغة.

لم يـــتحدث أحـــد. فقـــط أومأ شيخ القرية للجميع بأنْ هيا بنا فـــساروا جمـــيعاً صامتين خلفه، ومزيغة بينهم تسندها صديقاتها كلما خذلتها ساقاها المرتجفتان.

دخلـــت المنـــــزل ودخلت ثلاث فتيات معها هن أقرب الجميع إليها ثم نادى الشيخ بصوت مرتفع:

- يا مربِّع.

خرج والدها مهموماً وقال بصوت منكسر:

- تفضلوا.. حياكم الله.

أشار الشيخ إلى اثنين من كبار القرية للدخول معه وعلى البقية أن تنصرف إلى أعمالها.

ودت والـــدتها أن تدخل المجلس لتسمع كلام الشيخ مع زوجها لكـــن عارها منعها من مواجهة الناس. تمنّت لو أن الأرض ابتلعتها قبل أن تقدم ابنتها على تلك الفضيحة.

كانـــت الفـــتاة تبكي وتشاركها أختها وصديقاتها البكاء. تحلف لوالدتها بأنها بريئة من تهمة الزنا وأنها عذراء وأن عليهم إن لم يصدقوها أن ينـــتدبوا مـــن نساء القرية من يثقون بها لتراها ثم تخبرهم بما رأت.

وكانت أمها تنصت إلى كلامها وتنظر إلى بطنها المتكور الصغير وتبكي واضعة كفيها فوق رأسها، تطوحه شمالاً ويميناً وتمسك به من هول المصيبة.

في المجلس قال شيخ القرية لوالدها الصامت المطأطئ الرأس:

- علمنا عن ابنتكم ما علمتم. ونريد أن نعرف من هو ذا سلمت له نفسها. فإن كان منكم يا مريِّع عقدنا لهما وسترنا عليهما وكان الله ستار حليم. أما إن كان منا فسنسلمها لإم شرع في أبها ليحكم عليها بحكم الله. لأنك تعلم أنه لا يمكن لنا مصاهرتكم.

ثم التفت إلى اللذين أتيا معه:

- ما قولكما فيما قلت.
- لا نزيد على كلماتك بشيء. هو عين إم صواب.

ظل والدها صامتاً مطأطئ الرأس كسيفاً حائراً لا يدري بمَ يجيبهم. ثم تردد قبل أن يقول:

- إم حد يقام على إم اثنين وليس عليها وحدها. ثم ما أدراني أن إم فاعل لم يفعل ما فعل تحت تهديد إم سلاح؟ أو بإم قوة. أنتم تعرفونها وتعلمون كم هي رقيقة ولن تستطيع مقاومة إم فاعل مهما حاولت. وإم شرع يجب أن يعاقب...

وقبل أن يكمل قال شيخ القرية:

- متى أخبرتنا عن ذا فعل بها ذلك رأينا إن كان برضاها أم أنها أكرهت عليه وحينها يتقرر إم عقاب من عدمه.

لم ينتظر الشيخ طويلاً فقد أنهى جلسته بكلماته تلك وقرر الخروج مع رفيقيه على أن يعودوا بعد ثلاثة أيام ليعرفوا من والدها اسم الشخص المطلوب.

لم يـــدخل أبوها عليها حجرتها. وظلت في زاويتها تبكي وفي الـــزاوية الأخـــرى تجلس أختها سليمى مغمورة في خوفها وحزنها. والأم تدخل وتخرج وتدور في الدار دون هدف. أما الصديقات فقد قبَّلن الأختين وخرجن بهدوء وألم كما لو أن ما فعلته مزيغة كساهن خزياً.

لم يخرج والد مزيغة في اليوم التالي إلى عمله، لم يجرؤ على مواجهة الـــناس وهو يعلم أن القاصي والداني سيتحدث عن ابنته. وكأن القرية تحتاج إلى حادث ما يجدد به الناس ما يتداولونه في لقاءاتهم. ظل يدعو الله في صلواته بأنْ يصحو ليجد ابنته وقد ماتت فتنتهي هذه الغمة.

باتت مزيغة تبكي وقد تبدلت فصول السنة منذ اللحظة التي تخلى فيها سعد عن حبهما. وبدأت تعيش فصل الفراق وفصل الألم. أحدث ســـعد ثقـــباً في قلبها بتخليه عنها. نـــزف ألماً. وحتى لو التأم الجرح فستبقى الندوب تشوه أعماقها.

تساءلت: "كيف حدث هذا. ولماذا تخلى عني سعد؟". قررت أن تهرب.. لا تدري إلى أين. لكنها ستنهض الآن.

لم يكن الليل قد انتصف حين انتهتْ من لملمة قلبها المشظى أثناء جمـــع كِسَرِ خبزٍ كانت في "إم جونة"[1] وضعت الخبز في صرة صغيرة مـــع بعـــض التمـــر. ثم لبست فوق الثوب الذي عليها ثوبين آخرين وسروالاً طويلاً فوق سروالها الطويل. و لم ينسها الليل أخذ طفشتها التي لن تحتاج إليها إلا لتحتمي بها لو ظهرت الشمس أو هطل المطر.

تسللت عبر الظلام إلى الدور الأرضي. فتحت الباب بهدوء إلى أن صارت المساحة المفتوحة تكفي لتحشر نفسها إلى خارج المنـــزل.

---

(1) الجـــونة: وعـــاء سميك محكم الغطاء لحفظ الخبز مصنوع من الخصف أو ما يسمى في بعض مناطق الجنوب بـــ (إم طفي).

كانت حريصةً على ألا يصدر الباب الخشبـــي الثقيل صريراً عند فـــتحه فيكون الصوت أعلى من المعتاد ليلاً بسبب السكون الذي يبتلع القرية كلها في أعماقه.

خرجت تمشي مسرعة لا تدري إلى أين تهرب وهي التي لم تغادر قريتها من قبل أبداً. مشت على غير هدىً نحو الجنوب الغربـــي طوال الليل. سارت بين الشجر تستتر به برغم ستر الليل.. وبرغم خلو الدنيا حـــولها من البشر وبرغم الضباب الذي يُفقد حتى الصقور قدرتها على الرؤية في وضح النهار. أخافها صوت عواء ذئب جاء من بعيد. لكنها ظلت تمشي.

مشت جبالاً لم تتصور أنها ستصل إليها يوماً. تعثرت أكثر من مـــرة في حصوات صغيرة كادت تسقط بسببها في أودية سحيقة. لا تعلم هل سمعت صوت أحدهم يناديها من بعيد أم أن خوفها يوهمها سماعـــه. وقـــبل أن ترى الفجر أدركت أن النهار قادم لأن الطيور بدأت تنشر تغريدها في الفضاء ثم بدأت السماء تتخلى عن سوادها شيئاً فشيئاً.

الحـــياة بدأت تستيقظ في كل شيء أمام ناظري مزيغة. فتطايرت الفراشـــات والنحل وأنواع من الحشرات عديدة متنقلة من غصنٍ إلى آخـــر ومن زهرة إلى غيرها. فنظرت حولها لترى إن كانت تعرف أين هـــي. لكنها اطمأنت حين أدركت أنها في مكان بعيد عن قريتها كثيراً لأنها لم تره من قبل.

واصـــلت ســـيرها إلى أن تعبت ثم جلست تحت شجرة بعد أن ارتفعـــت الشمس قليلاً في السماء. ولأن نور الشمس كان يظهر حينا ويغـــيبُ أحـــياناً سألتْ مزيغةُ الله أن يؤجلَ سقوط المطر إلى يومٍ آخر تكون فيه قد وصلت إلى أي قرية تمر بها.

لـــيلة كاملة سارت فيها و لم تتوقف إلا لترتاح بعد الفجر بقليل. ارتاحـــت نـــصف ساعة بعد أن سارت أكثر من خمس ساعات دون توقف.

كانـــت ترتجف. حزنها وألمها أثار موجة برد في عظامها أشد مما تفعلـــه بـــرودة الجو. أكلت بعضاً من الخبز والتمر الذي في صرَّتِها ثم تمددت تحت شجرة عرعر وارفة متوسدةً طفشتها ومكتفية بثيابها الثلاثة التي ترتديها لتكون دثارها واستسلمت للنوم.

سمعت صوت أحدهم وهو يقول لها:

- هل أنت بخير؟

استيقظت فزعةً لا تدري أين هي بعد أن ردد جملته ثلاث مرات. وفي ثـــوانٍ تذكـــرت أنها هربت من أهلها وسارت طوال الليل إلى أن نامـــت فيٍ مكان لا تعرفه. رفعت رأسها لترى المتحدث فوجدته شاباً صـــغيراً ومعـــه ما لا يزيد عن ثلاثين نعجة. أدركت من خلال موقع الشمس في السماء أن العصر لم يأتِ بعد. أجابت الراعي:

- نعم أنا بخير.
- لا أعرفش. لست من وطننا. ممن أنتِ؟
- من...

و لم تكمـــل جملـــتها. كـــيف تخبره باسم قريتها؟ وما إذا كانت أخبارها قد وصلت إلى القرى المجاورة؟ تداركت كلماتها قبل أن تنفلت من فمها وقالت:

- من أبها. أنا من أبها.
- أبها بعيدة.
- سأعود.. سأعود إلى أبها لكني أريد أن أتزود قبل أن أسير.
- تعالي إلى أمي تعطيش طعاماً.. أليس معش دابة تركبين عليها.

- كـــان عـــندي حمار أتيت على ظهره من أهلا إلى هنا. ضاع مني حمـــاري. نمـــت قبل ليلتين ونسيت أن أربطه وفي إم صبح لم أجده.
- تـــنامين في إم خلاء ليلاً..؟ ألا تخافين من إم سباع تأكلش. أرضنا بها نمار كثيرة؟
- بلـــى أخـــاف.. أنـــا أخاف من إم سباع وأشد ما أخافه هو إم نمر.

ثم بكـــت فجأة.. بكت دون سبب يوضح لهذا الفتى ما بها. هل اعتدى عليها نمر البارحة وكاد يأكلها. ولهذا بكت الآن. هكذا تساءل في نفسه ثم سألها:

- مابش تبكين؟
- لا شـــيء.. أنـــت ذكرت إم سباع وأنا أخافها فبكيت. ما اسم وطنكم؟
- وطن آل معلية.
- هل وطن آل معلية قريب؟
- نعم.. إنه هناك.

وأشـــار بيده نحو الغرب، فلم تودعه و لم تشكره و لم تقل شيئاً.. استدارت فقط واتجهت إلى حيث أشار. ظلت تمشي إلى أن رأت بيوتاً من بعيد فتشجعت ومشت بسرعة أكثر.

مشت في القرية خائفة لا تدري إلى أين تتجه. لاحظها أهل القرية فسألتها إحدى النساء.

- من أنتِ؟ بـــي عنش[1].. يبدو عليش إم تعب.

---

(1) بـــي عنش: ليحل بـــي أنا كل ما بك من الألم أو الهم أو الحزن.. وهي عبارة تُقال للمتعب لإظهار مدى الاهتمام به.

كان أكثر ما يرعبها أن يكون الخبر الذي انتشر عنها في قريتها قد انـــتقل مع أحدهم إلى القرى المجاورة. ولذا كانت تبدأ كذبة وتنهيها بكذبة. قالت مزيغة:

- مجارة يا أختاه. أريد أن أتزود لأني أتيت من أبها وانتهى زادي.
- ولماذا أتيت من أبها؟ تبحثين عن أحد..؟

لم يظهر عليها الارتباك فقد رتبت الإجابات وهي في الطريق إلى آل معلية حسب ما توقعته من أسئلة:

- نعم. خالتي.. أريد أن أزور خالتي في جبال فيفا.
- تعالي معي بيتي تأكلين إم زاد وترتاحين وبعدها ترحلين.

مـــشت المرأتان إلى بيتٍ من ثلاثةِ طوابق وكان بابه مفتوحاً كما هي العادات.

جاء صوت من الداخل يقول:

- من ذا هناك. تعال يا ذا عند إم باب.

صعدت مزيغة الدرجات والمرأة معها إلى أن وصلت إلى الطابق الـــثاني. حيث يجلس رجل عجوز وحيداً أمام "إم صلل"[1]. سلّمت علـــى الـــرجل وجلست للحظات صامتة فقالت له المرأة التي أتت بها:

- ضيفتنا تريد أن تزور خالة لها في جبال فيفا. لكنها ستنـــزل عندنا أياماً إلى أن ترتاح. لقد جاءت من أبها.

قال الرجل العجوز:

- حياها الله. يا مرحباً ألف.

---

(1) في إحدى زوايا حجرة الجلوس يتم بناء مربع لا تزيد مساحته عن المتر المربع ولا يـــزيد علـــو جدرانه عن 25 سنتمتر. يوضع فيه الجمر وحوله دلال القهوة وبراريد الشاي والحليب الساخن.

ثم فـــتح "إم جـــونة" التي بجواره وأخرج خبزاً طرياً لم يبرد بعد وقـــرَّب مـــنها إناءً يطفح بالسمن والعسل ثم قرب وعاءً آخر به "قطع لحمٍ" لا زالت ساخنة. فأكلت مزيغة حتى شبعت. أما المرأة التي جاءت بها فقد عادت إلى أعمالها خارج المنـــزل وتركتها لترتاح.

نامت مزيغة ليلتين متواليتين في ذلك البيت. ثم حملت زاداً وبدأت رحلتها التي لا تدري إلى أين ستصل بها.

ظلت تسير على غير هدى. لكنها تسير في ذات الاتجاه. إنها تنظر إلى حـــيث تميل الشمس ظهراً وتسير باتجاه الجنوب الغربـــي. تعتمد علـــى الثمـــر الذي على الأشجار في طريقها فقد انتهى ما تزودت به بسرعة وبدأت تقطف البرشوم والحماط لتأكل.

من بعيد رأت بيوتاً فأسرعت إليها. وحين وصلت وجدت بجوار المـــسجد "صُفَّةً" صغيرة خالية ذات باب يتأرجح بسبب عدم إصلاحه وسقف تساقطت بعض أعواده فصار ذا فجوات مستطيلة.

دخلـــتْ إم صـــفَّة وأغلقت الباب قدر الإمكان ثم تمددت على الحـــشائش التي تملأ المكان. لم تختفِ الشمس تماماً ولا زال في السماء ضوء يدخل من شقوق السقف.

استيقظت عندما سمعت آذان الصبح حيث الصفة التي نامت فيها بالقرب من المسجد. وفي النهار قالت للذي سألها عن حالها:

- ضـــيعت طريقـــي.. لا أدري أين أنا. أريد أن أصل عمتي التي في وطن آل "غَلَب" لكني لا أدري كيف وصلت إلى هنا.

ذكـــرت مزيغة للرجل اسم وطن آل "غلب" لأنها تعرف هذا الاسم من خلال حديث أهل قريتها عنه وأنه وطن بعيد جداً. قال لها الرجل:

- هذا وطن آل غلب وأنتِ حيث تريدين. فمن هي عمتش لنأخذش إليها.

ارتـــبكت مزيغة. كيف لم تذكر لهم أي اسم غير اسم قريتهم؟ ومن أين لها بعمة تزورها الآن. لكنها وجدت الإجابة بسرعة:

- عمتي مزيغة. أهلي سموني بها لأنها سافرت عندما كانت أمي حاملاً بـــي ولم تعد منذ ذلك الحين.
- ليس في وطننا كله امرأة اسمها مزيغة.

تظاهرت مزيغة بالدهشة وتابعت:

- ماذا تقولون..؟ فأين عمتي إذاً.. أين أبحث عنها؟ أين أجدها؟ ليس لي غيرها.
- لش الله ونحن. سنكون أهلش إلى أن تجديها. كوني مطمئنة.

مـــرّت الأيـــام ونسي آل غلب موضوع العمة التي تبحث عنها مزيغة. صارت الفتاة فتاهم تعمل في حقولهم وتساعدهم في كل شيء. أليست يتيمة بلا أهل. ولا يعلمون أين هي عمتها.

كبر بطنها وبدأت الألسن تلوك سيرتها.

- هل جاءت وبطنها فارغة ثم ملأتها هنا. أم أنها جاءت وهي حبلى؟
- من هم أهلها..؟ وكيف لم يسأل عنها أحد حتى الآن؟

وجدت مزيغة إجابة لكل أسئلتهم.

- أنـــا وحيدة أبويَّ. تزوجت بعد أن ماتا وتركاني وحيدة. زوجي سافر يتعسكر ثم أرسل ورقة قالوا لي إنها ورقة طلاقي لكني كنت في إم شـــهر إم ثالث. وفكرت ماذا أفعل ثم قررت زيارة عمتي تا سمـــاني أبواي بها وتا سافرتْ وأنا ما أزال في بطن أمي. كنت أظن أني ســـأجدها هنا عند آل غلب. لكنكم تقولون إنكم لا تعرفون عمتي. فماذا أفعل؟
- من هو زوجش لننسب ما في بطنش له؟ نرسل في طلبه ونخبره بأنه طلقش وأنتِ حبلى.

- لا. لا أريد أن يعرف بأني حبلى فربما بعد أن أنفس يأخذ مني ابني. لا أستطيع أن أخبركم من هو.

مرّت الأيام على مزيغة بطيئة إلى أن وضعت حملها وكان مولودها ذكــراً. تناقل الناس خبر إنجابها طفلاً وتساءلوا عن والده من جديد. ثم تساءلوا عن اسم الطفل.

- سمِّيه حسن.

هكذا اقترحت إحدى الفتيات وأعقبت:

- جدي يردد كلما حدث موقف يتطلب الشجاعة أو القوة: "أنا من بني حسن" حتى صرت أتمنى أن أتزوج رجلاً اسمه حسن.

قالت مزيغة:

- ومن هم بنو حسن لكي يعتزي جدش بهم؟
- لا أدري. سأسأل جدي.

في المساء كانت مزيغة ممدة إلى جوار طفلها في الصفة التي غدتْ غــرفة محكمة الباب والسقف. وبها موقد واحد وعند بابها أكوام من الحطــب. ومعهــا عدد من النسوة من بينهن الفتاة التي اقترحت عليها اسم (حسن).

حكـــت لهن الفتاة نقلاً عن جدها قصة (بني حسن) التي تعرفها نسوة القرية ولا تعرفها مزيغة فقالت:

- بنو حسن مجموعة من إم صبيان عددهم عشرة اشتهروا بإم شجاعة بعد تنافسهم على أمر لا يتنافس عليه إلا إم أبطال. إذ في زمنٍ بعيد جـــداً حدثت حرب بين قبيلتين كبيرتين. ومن إم عادة أن يتبارز رجـــلان مـــن أكثـــر رجال إم جيشين قوة وشجاعة قبل بدء إم معـــركة. ولذا خرج رجل من إم جيش إم معتدي.. صاح بصوت مـــرتفع: "هـــل من مبارز". فخرج رجل من صفوف إم جيش إم

مقابل ولوح بسيفه وقال: أنا أبارزك. وكان اسمه حسن. وقبل أن تبدأ إم مبارزة تقدم ثانٍ وقال: "بل أنا أبارزه" وكان اسمه أيضاً حسن ثم تقدم ثالث ورابع إلى أن أصبح عدد إم فرسان الذين يريدون مبارزة إم عدو عشرة وتصادف أنهم جميعاً يحملون اسم حسن. فصار إم عرب يقولون عنهم "بني حسن" وصار كل رجل إذا عزم على إم قيام بما يجهده قال: أنا من بني حسن. ويعني بها أنه شجاع ومقدام ويدافع عن قبيلته وأهله. مثل إم عشرة إم أبطال.

صار اسم المولود حسن. لكن والدته حين غادرت قريتهم قالت لمن يسألها عن اسم وليدها: "اسمه محسن" حرصاً على ألا يكتشف مكانها الجديد أحد من أهل تلك القرية. إذ إنها وبعد أيام قليلة قالت لبعض النساء إن عليها أن تذهب بطفلها إلى أبها لأنه مريض. استغرب الناس من كلامها، إذ يمرض الصغار ويتعافون ولم يسافر أحد بأطفاله إلى أبها.

استيقظ أهل القرية ذات صباح ليجدوا الصفة خالية وليس لمزيغة وطفلها أثر في حدود قريتهم.

وصلت آل وادح وقد تعبت من كثرة الترحال فمكثت هناك. مع طفلها الذي صار اسمه محسن، ومرت السنين وهي معهم. منهم وليست منهم. واستمرت نساء القرية في تداول سيرتها كلما اجتمعن. يرددن ذات الحديث عنها وعن طفلها. مؤكدات فيما بينهن على سوء ماضيها الذي لا تتحدث عنه بوضوح.

وربما كان الخطأ الأكبر منذ قدوم مزيغة إلى آل وادح، والذي نفّر كل النساء منها وجعلهن يحرضن الرجال ليكفوا عن مساعدتها والإحسان إليها هو حديثها مع نسوة القرية عن نفسها بشيء من الغرور والتباهي بسبب ما هي عليه من جمال الوجه والقد والشعر.

حيث أكدت لهن كثيراً أن اسمها "فاطمة" لكن لقّبها الناسُ "مزيغة" لأن جمالها يزيغ القلوب.

وحـــدها العجـــوز "رحمة" لم تنبذ مزيغة. كانت تنصت إليها ثم تنـــصحها وتدعو لها. ولا تتردد في إعطائها الكثير من الطعام والكسوة كمـــا أن لها الفضل في التأثير المعاكس على رجال القرية ليرأفوا بحال تلك المرأة الوحيدة ويعينوها ولا يلتفتوا كثيراً إلى كلام زوجاتهم. كان لها الفضل أيضاً في ذهاب محسن إلى معلم القرية ليتعلم القراءة والكتابة والقرآن والحساب مع بقية الأطفال حين كان صغيراً. عام كامل ظلت رحمـــة تدفـــع فيه "للمعلم" ثلاث ريالات في الشهر إلى أن تعلم محسن ككل أقرانه ما يجب أن يتعلمه الصغار.

تلك العجوز التي إذا حلفت بالله قالت: "واللهِ عدد قِباع إم ترك". ظلـــتْ تؤكد للجميع بأن مساعدتها لمزيغة تحميها من نفسها. أما نبذها فـــيعني أن نـــضطرها إلى ما لا نريد أن تكون عليه. قد يتقبل البعض كلمات العجوز الطيبة ويواصلون عون الشابة الجميلة مزيغة.

كان محسن يستمع إلى كل ما يُقال عن والدته في قرية آل وادح بين النـــساء والرجال والمراهقات والمراهقين. ثم كبر الطفل، وصار يدخل في معـــارك كلامـــية تـــتطور إلى استخدام الأيدي وما تحمله من العصي أو الحجـــارة في اشتباكات مع أولاد لا يترددون في تذكيره بأنه مجهول الأب وأنـــه "ابن مزيغة" وحسب. فإذا تمكن محسن من ضرب أحدهم بسبب ما يُقال، استمروا أكثر في ذكر المزيد من الأخبار عن والدته، وإذا كان هناك مـــن عـــرف عـــن مزيغة أنها قد أخطأت مرة، فإن الأحاديث بين صبيان وفتـــيات القرية قد جعلتها ألف مرة، فالألسن لا ترحم وجميع ساكني آل وادح يبحـــثون عمن يظَهَرون إلى جواره أطهاراً بررة. ومن سيكون غير مزيغة. يضاعفون أخطاءها وخطاياها ليكونوا بالمقارنة معها أتقياء أنقياء.

بحـــث محـــسن عن الحقيقة من خلال الأسئلة التي يلح فيها على والدتـــه عـــن أبيه وأهل أبيه وعنها وعن أهلها، فظلت طوال سنوات مراهقته تراوغ إما باختلاق الأكاذيب. أو بافتعال نوبة بكاء تدخل فيها لتستدر تعاطفه محاولة إيهامه بأن أهلها والناس ظلموها وأن حظها قليل في هذه الدنيا برغم جمالها.

مـــلّ محسن سؤالها. وبرغم أنه لا يعرف عن نسبه شيئاً سوى أن اسمه محسن إبر محمد إبر عبد الكريم، بقي يرفض التصديق بأن ما يقال عـــنها هـــو الصحيح. بحث بالأسئلة عن "محمد إبر عبد الكريم" ذلك الاســـم الذي اخترعته مزيغة ليكون أباً وهمياً لطفلها. ثم أعياه البحث دون أن يجد جواباً.

وظل يحافظ على حيرته. فالحيرة على أمل الحصول فيما بعد على جواب يشتهيه أرحم به من الإقرار بما يقال عن أمه..

كـــان أكبر من تعلُّقِ طفلٍ بوالدته هذا الذي ربط محسن بأمه مزيغة التي لم تكن يوماً بالغة الاهتمام به. لكنها أمه التي لا يعرف سواها لسنوات عديدة من طفولته، إذ لا أخوة له ولا أهل ولا وطن.. إلا حضنها.

عـــندما بلغ الرابعة عشرة صار لا يدري أي الشعورين أعظم في قلـــبه: الحب أم الكراهية. وكأطياف حلم لا يستطيعُ محسن أن يمسك بتفاصيله ولا أن ينساه، تعود إليه صورة أمه من مجاهل ذاكرته وهي مع رجل لا يدري من هو.

كان طفلاً لم يتجاوز الثالثة أو الرابعة من عمره، حين كانا في صُـــفّة بالقرب من المسجد يتصدق عليهم أهل الخير بالطعام وليس معهما ما يتقيان به البرد ليلاً سوى لحاف واحد ملأته الثقوب. لذا تضطر "مزيغة" إلى إبقاء النار مشتعلة في أول الليل لعلها تخفف من ارتجافهما.

رآهـــا طفلها في أمسيات عديدة، أو أنها أمسية واحدة استنسخها عقله. رآها تستقبل رجلاً في فراشها. خاف الصغير من هذا المتسلل إلى جوار أمه وظل صامتاً يحبس أنفاسه ويراقب ما يحدث بينهما من ثقوب اللحاف في الظلمة التي كسرت حلكتها نار التدفئة.

ضـــجّت القـــرية في صباح. وتحدث الناس عن رجل خرج من الصفة بين العتمة ونور الفجر.

أنكـــرت مزيغة ما اتهمها به بعض أهل القرية وأقسمت بالله أنها مظلومة فصدقها من أراد تصديقها وكذبها آخرون. لكنها تعلمت بعد هذا الموقف أن تكون أكثر حرصاً في مراتٍ قادمة. وما لم تحرص عليه ولم تـــدرِ عـــنه هو ما يترسب في عقل صغيرها تجاهها وتجاه الحياة إذا تزعزع الكون كله أمام طفل لا زال يرى أُمَهُ مركزاً للكون.

هل تكررت المرات التي اهتزّ فيها يقينه بحب أمه له..؟ أم أن تلك اللـــيلة الـــتي سمع فيها أصواتاً وهمسات وقهقهات خافتة كانت تكفي ليمتلأ حزناً لأن أمه تمله طوال الليل من أجل منافسٍ له يحتل أحضانها إلى الفجر وهذا الصغير يكتم أنفاسه وينصت إليهما حتى ينام.

هـــل ما يتذكره محسن حدث فعلاً. أم أن أوهامه اختلقت تلك الـــصور عن أمه التي يتشكك في صدقها وسلوكها بناءً على ما يسمعه عـــنها من الآخرين؟ محسن لا يدري أين الحقيقة. وحيرته تزايدت حين التبس عليه الأمر وتداخلت الرؤى، حيث يرى أن كل الأمهات أطهر من أن يشك فيهن أحد وفي ذات الوقت يعتقد يقيناً بأن النساء كلهن بلا استثناء خائنات ولسن أهل للثقة.

— 10 —

الله ذاته أمر سبحانه بذبح الخراف في العيد.. وليس الذئاب

في تلك السنة التي سافرت فيها الطفلة آمنة مع زوجها إلى الرياض وجـاء فيها راشد إماماً وخطيباً وواعظاً في قرية "آل وادح" تم افتتاح أول مدرسة حكومية في القرية للبنين. أما مدرسة البنات فقد افتُتحت بعدها بثلاث سنوات. وفي المدرستين تعلم الأولاد والبنات كل ما قال به إمام المسجد الجديد راشد، بشكل مباشر أو غير مباشر.

وبعـدما كـان الأطفال إناثاً وذكوراً يلعبون في ساحات القرية معـاً.. ثم يكبرون قليلاً فيذهب بعضهم إلى الحقول مع أهاليهم ويتجه بعـضهم إلى الـسفوح لرعي الغنم دون أن يكون هناك أدنى تمييز بين الذكور والإناث. جاءت المقررات لتنص على أن (أحمد يلعبُ.. يقرأُ.. يكـتبُ). أمـا هند التي في كتاب الهجاء فقد ورد عنها أنها (تطبخُ.. تكـنسُ.. تغـسلُ). أما إذا أرادت هند تلك أن تفعل شيئاً غير الطبخ والكنس والغسيل، فإنها وفي ذات الكتاب (هند تمشط شعرها). لم يقل أحـدٌ يـوما إنها تكتب وتقرأ وترسم وتلعب ثم تكبر وتتخذ قراراتها بنفسها، وتقود سيارتها لتذهب إلى عملها. إنها إما أن تعمل في المنـزل أو تصلح من نفسها لاستقبال زوجها بأن تمشط شعرها. وهذا هو كل ما يجب عليها وفقاً لتلك المقررات.

وإذا كانـت هذه هي كتب القراءة فماذا ستكون الأحكام التي تُنْتقـى لتوضـع في كتب الفقه وتتشربها عقول الصغار على أنها الدين

ذاته؟ وما الأحاديث التي ستُختار ليتضمنها كتاب الحديث ثم يؤكد لهم راويها بأن رسول الله ﷺ قائلها؟

تعلم الصغار الكثير مما لم يكن معهوداً ولا معروفاً ولا مقبولاً. لم يتعلموا كل هذا دفعة واحدة. لقد تسلل ما في تلك الكتب إلى عقولهم شيئاً فشيئاً إلى أن غدا حالهم كما شاء لهم راشد وفرقته.

في تلك الأيام. أيام سفر آمنة وقدوم راشد وافتتاح مدرسة البنين، جـــاء مـــن بـــلاد الشام كلٌ من "شاكر سمعان" و"ربيع النمر" ليكونا معلمـــين في المدرســـة الابتدائية الجديدة. شابين في مقتبل العمر، ولدا وعاشـــا وتعلما في إحدى العواصم العربية ثم قررا التعاقد للتدريس في السعودية.

وقفـــت بهمـــا سيارة الأجرة بالقرب من مسجد القرية لأنها لا تـــستطيع مواصلة السير إلى البيوت لضيق الممرات بينها. ولأن الراكبان لا يدريان أين يفترض بهما التوقف.

أنـــــزلا أمتعتهما ودفعا ما طلبه السائق ثم غادرتْ سيارة الأجرة عائـــدةً إلى أبها وتركتهما على أطراف قرية لا يعرفان فيها أحد. قرية كـــأن حقـــولها الخضراء المدرجة سلالم واسعة تصعد بتلك الأرض إلى السماوات، فيتطبع ساكنوها ببعض خصال الملائكة، ما دام الله قد شاء أن يكون للجار تأثير على من جاوره.

بيوتهم متلاصقة.. مترابطة، التفتْ حول بعضها وتداخلت فكأنما يحـــنو كـــل بـــيت على رفيقه، ويتكئ كل حائط على الآخر. وبينها ســـاحات مرصـــوفة ومزروعة تنتهي بممرات ضيقةٍ لا أحد يدري من رصـــفها بتلك الحجارة المسطحة الملساء التي يزاحمها العشب ويتزاحم بينها، فينبت في الفراغ المتبقي بين كل حجرين في تحدٍّ لصلادة الصخور ومقاومـــة لدوس لتلك الأقدام التي تمشي في الطرقات كل يوم. وعلى

جنبات الممرات نبتت شجيرات صغيرة ملصقةً جذوعها بجدران البيوت مفسحةً الطريق للمارة.

حـــرك الشابان القادمان للتو إلى هذا المكان قدميهما على صخرة قريبة ليزيلا ما علق بحذائيهما من طين في الأرض الموحلة بسبب تواصل هطـــول المطر. ثم أقفل ربيع أزرار الجاكيت على قميصه الأبيض ليتقي بـــرودة الجو حتى في نهايات فصل الصيف. لاحظ وجود رجل يتطلع إلـــيهما مـــن حقلـــه المجاور ثم يقترب منهما لأنه أدرك أنهما غريبان ويحتاجان إلى مساعدة. بادرهما بقوله:

- ولْعَوْن.

لم يدرِ الرجلان بماذا يردان لذا سأله ربيع بشكل مباشر أين يمكن أن يجدا سكناً.

بيـــنما يتحدث ربيع مع الرجل القروي كان شاكر يتأمل الفضاء ويجيل نظره في كل مكان بحثاً عن المدرسة التي سيعملان فيها بعد أيام. انتـــبه فجـــأة إلى الحوار الدائر بين صديقه والرجل. وأدرك أن عليه أن يصغي جيداً ليفهم ما يقال لأن اللهجة التي سمعها بدت له غريبة جداً:

- إذا مـــشيت إلى إم باب إم خضر ذا هناك انعطف يميناً ستجد باباً أخـــضر غيره.. ذاك منـــزل "أمي رحمة" هي ستجد لكما حلاً. لكن قبل أن تذهبا هيا معي إلى بيتي نقوم بواجبكما.

تساءل ربيع:

- هل نسأل عن والدتك رحمة؟
- لا.. ليست والدتي.. إنها امرأة من نساء قريتنا اسمها رحمة.. ونقول لها "وما رحمة" تأدباً فقط لأنها امرأة كبيرة.

فهم الضيفان كيف سيناديان تلك العجوز. وتساءلا عما إذا كان الجميع ينادي تلك المرأة بـــ "أمي رحمة" فعرفا أن كل امرأة تنادى بهذا

الأسلوب ما دامت في عمر والدة المنادي. وكل رجلٍ ينادى بـ "أبـي فلان" ما دام في عمر والد المنادي أيضاً. وهذا التأدب متبعٌ من قبل الجميع حتى الأطفال.

إنه الدرس الأول، تلقياه مجاناً واستشعرا وداً سيحظيان به قبل أن يريا أحداً سوى هذا الرجل. وبرغم الإلحاح أصرّ القادمان على تأجيل الدعـوة إلى وقـت آخر لأنهما مرهقان من السفر ويبحثان عن بيتٍ ليرتاحا فيه أولاً.

العجوز رحمة تسكن وحدها بعد أن مات زوجها وتركها تختزن في قلـبها الذكريات صوراً لوجوه الراحلين. تفرُّ أدمعُها شوقاً إلى حلمٍ تلاشـى. وحيدةً لا تجد تصريفاً لعواطفها المتدفقة وقلبها المليء بالحب بالـرغم مـن أنها صارت أماً لكل من ناداها وهي التي لم تنجب يوماً برغم الاشتهاء. قلبها دافئ كنور الشمس ونواياها كماء الكوثر صفاءً وطهـراً. كم أشقاها نقاؤها الملائكي وهي التي لا زالت على الأرض، تعاشر بشراً لن يكونوا في أي يوم ملائكة.

تفتعل رحمة دوماً ضحكاتٍ تفيض عن حاجتها لأنها تود أن تبدي البشاشة في وجوه محدثيها برغم التفاف الألم بها من كل الزوايا. تألمت لأن جـرحاً غائـراً في سويداء قلبها لا زال يعاود النـزف بين حين وآخـر. وتألمت لغياب بعض أبناء القرية. أقسمتْ بالله "عدد قِباع إم ترك" لكل واحدٍ منهم قبيل سفره بأن الله لم يخلق تحت سمائه أجمل من وطنهم. وأنه لا حاجة إلى الخروج من هذا الوطن إلا إلى الحج والعمرة. لكنهم لا يأبهون لما تقول ويسافرون.

تقـاوم العجوز رحمة وحدتها بالغناء. تغني في المنـزل.. وتغني في الحقل.. وتغني في درجات غير منتظمة تعين الصاعدين إلى أعلى الرابية الـتي خلـف بيتها.. رابية تجلس في أعلاها أحياناً. ترقِّعُ ثوباً أو تصنع

طفـــشة. تغني في السفوح حين ترعى أغنامها.. وتغني حين تنـــزع ماءً مـــن البئر تملأ به قربتها.. ولا يوقفها عن الغناء إلا مقاطعة الآخرين لها أثناء مرورهم بجانبها يلقون عليها التحية.

مرَّ بها يحيى والد آمنة يوماً وهي تتغنى بأبيات حزينة يحفظها لكثرة سماعها منها:

آآه.. ياسين يا روحي من إم موت ياسين[1].

آآه.. باكين عَلَيْ أهلي قليلٍ وناسين.

اقترب منها وقبل رأسها ثم سألها:

- ألم تجدي لحناً طوال هذه السنين لتتغني به غير هذا اللحن الحزين يا أمي رحمة؟
- إنه يذكرني بأن لا أحد لي يا يحيى.
- كـــيف تقولين لا أحد لش ونحن عوالش. ولش فضل في تربيتنا لا ننساه.
- "وَشِّني وَشِّني فني أعرف أهلي"[2].
- لا تقولي هذا عني يا أمي رحمة. والله ما تغير عندي شعوري بأنش ومي إم ثانية منذ عرفتش.
- هـــا أنـــت قلـــتها.. أنا ومك إم ثانية.. أما ومك إم أولة فهي تا أنجبتك.. وأنا لست وماً أولى لأحد.

تركها يحيى لشأنها بعد أن تجاذب معها أطراف الحديث عن أمور مختلفة تدور في قريتهم وسار إلى شأنه وفي قلبه حزن عليها أدركته ولو لم يظهره لها.

---

(1) ياسن: واحسرتاه.

(2) وشّى يوشي: أي ربّى يربـــي الطفل. فني: فإنني ومعنى المثل أن الطفل سيكون في نهاية الأمر لأهله حتى وإن تعب آخرون في تربيته.

تــزوجت رحمة في صباها أول مرة وبعد عشر سنوات من الصبر الموجع اختارت أن تفارق زوجها الذي يريد الاقتران بأخرى لعلها تهبه مـا عجز رحمها عن الإتيان به. كان زوجها متمسكاً بها حسبما قاله للجميع. لكنها أجابتهم حين سألوها البقاء معه:

- ولِمَ لم يبقَ معي هو؟ كيف أبقى أنا ويذهب هو إلى أخرى ؟

لـيس من المعتاد أن يكون للرجل زوجتين في عسير. وليس من المستغرب أن تصّر المرأة على الطلاق إن اضطر زوجها اضطراراً للزواج من غيرها. ورحمة التي عاشت عشر سنوات من عمرها في كنف زواجٍ شـيدا فيها معاً قصوراً من الحلم عن طفلٍ لا بد هو آت. هدمها فوق رأسـها في لحظـة وقرر أن يبحث عن غيرها ليحقق ما يحلمان به كل تلك السنين. لذا أصرت على الطلاق.

كـم كانـت تخشى أن يميد قلبه بها. وها هي تواجه ما كانت تخشاه. تصدعت الأرض بينهما واتسع الصدع حتى غدا من المستحيل تلامـسُ الأيـدي الممدودة. هو انسحب إلى أخرى.. فمع من تبقى رحمة؟

لم تكـن حـسرتها مـن النوع الذي يمكن تجاوزه أو نسيانه مع الـوقت. تمـنّت لـو أن بمقدورها تفتيت وجعها وتوزيعه على هؤلاء المنـشغلين بالفـرح دومـاً. لـن يؤذيهم الفتات وسيريحها شعورها بمـشاركتهم. لكن هيهات، من يملك القدرة على تفتيت الألم؟ أحياناً تتـساءل في أعماقهـا عن سبب حاجتها إلى مقاسمة الآخرين وجعها وحـزنها. ثم استعاضـت عن الناس باللجوء إلى الله. وحاولت طوال سنوات الرجاء تلك أن تثقب السماوات بإزميل دعواتها المتواصلة لكي تتمكن من تمرير أملها إلى الأعلى. لكن تلك الزرقة الهائلة أعظم بكثير من أن تقتحمها كلمات رحمة ودعواتها.

لم تـــدرك أن صوتها ضعيف لا يتجاوز حجرتها. وأنها أوهن وأقل مـــن أن يتغير شيء في اللوح المحفوظ من أجلها. ظل الأمل محفوراً في قلـــبها برغم مرور الأيام بعد الأيام دون أن يتحقق أملها لذا واصلت الدعوات.

كانـــت تـــبحث عمـــن يتحدث إليها، حتى الأحاديث التافهة تستـــسيغها لتهـــرب من وحدتها وألمها. لعل الثرثرة مع الآخرين تزيح الحـــزن وإن كانت لا تزيله. إذ خسرت زوجها وظلت تتذكر كل يوم أنهـــا خـــسرته لأنها عاقر. وكأنه لا يكفيها من الدنيا كونها ليست أماً فيضاف إلى هذا أن يفضل زوجها عليها أخرى.

أشغلت نفسها في أيام عدتها بالاعتناء بِحَبَلٍ[1] لما كانت قد أهملته كـــثيراً حـــتى امتلأت أرضه بالثمرات الناضجة المتساقطة من أشجاره. اعتـــنت بأشـــجارها ورعت أغنامها وتناست ذلك الرجل الذي كان زوجاً لها.

تـــزوجت رحمة بعد انقضاء العدة بشهور شاباً يصغرها بسنوات وظلـــت معه تنتظر ذات الأمل. لكن صبره نفد بسرعة وهو الذي يعلم عن سنواتها العشر السابقة التي قضتها مع زوجها الأول، لذا رجاها هو أيـــضاً بعد مرور ثلاث سنوات من زواجهما بأن تقبل البقاء معه حتى وإن تزوج غيرها. لكنها رحمة التي لا تقبل بأن تكون مع نصف رجل، ولا تقبل أن تكون هي نصف امرأة.

قـــد لا يمر أسبوع دون أن ترى رحمة زوجها السابق وإلى جواره طفلـــيه وزوجـــته.. وبطنها المتكور لامتلائه بطفل ثالث. تسلم رحمة عليهما وتسأل بحسرة تجاهد لاستبقائها في أعماقها.

- كم أنتِ فيه؟

---

(1) الحَبَل: البستان.

فتجيب المرأة بزهوٍ لا تعرفه إلا الحبالى:

- في إم سادس.

تـــشك رحمة في قدرة فمها على الابتسام. لكن ها هي تحاول أن تـــبدو أمامهما بلا جراح. تدعو لهما بأن يكون طفلاً معافى وأن تقوم المـــرأة بالسلامة ثم تغادرهما إلى حقلها قبل أن تنضح الحسرة من مسام وجهها فيريان ما تحرص على إخفائه.

في ثـــلاث ســـنوات فقط أنجبت التي أرادوها شريكة لها طفلين والـــثالث في الطريق. أدركت أن إصرارها على الطلاق في المرة الأولى كان صواباً فقلبها لا يستطيع التبلد ولن يستطيع الاحتمال.

مـــشت في دربهـــا متسائلة عن حالها الآن. هل تبقى مع زوجها الـــثاني ثم تتأمله فرحاً بزوجته الجديدة حينما يتكور بطنها ويكبر يوما بعد يوم..؟ هل ستحتمل هذا..؟ وماذا ستكون بالنسبة له بعد أن يجد امرأة تهبه أطفالاً؟ عادت إلى البيت وهي مصرَّة على أن يطلقها قبل أن يقترن بغيرها.

لیـــست طـــويلة تلك الأشهر التي مرتْ بعد انقضاء عدتها دون أن يـــتقدم لها خاطب. وقبلت الزواج للمرة الثالثة من أرملٍ له خمسة أبناء لم تتركهم أمهم وتستسلم للموت إلا بعد أن صار أصغرهم في الرابعة عشرة.

عاشـــت رحمة تطرق باب السماء كل ليلة بالدعوات.. تتسوَّلُ طفلاً. لكن الله لم يفتح في سماواته ولو نافذة صغيرة لتلج منها دعواتها، وظلت بلا يأسٍ تنتظر الاستجابة.

أيقـــنت بعـــد مرور كل ذلك العمر أن الله لم يحبها بالقدر الذي يجعله يهبها طفلاً برغم طيبة قلبها وصدق نواياها. ثم مات عنها زوجها وقد تجاوزت الخمسين. افنتها كلها في زيارات المعالجين والتوسل على سجادة الصلاة.

بعـــد هـــذا العمر المُر صارت تقتات أحزانها بعد أن انتهى الحلم الـــذي كـــان قوتها منه. وكلما ألحّ عليها شعور بأن الله ظلمها بكتْ وصلتْ واستغفرتْ ورجتْ الله بأن يزيح عنها شعورها. وهذا الشعور لا يـــتعاظم إلا إذا رأت زوجـــات زوجـــيها السابقين والأبناء الذين يتكاثـــرون عاماً تلو الآخر، يتراكضون حولها في الحقول أو السهول.. عند البئر أو بين الغنم.. يسبحون في مياه الوادي إذا حل فصل الصيف. ويتسلقون الأشجار ليقطفوا الثمار.. يضحكون ويلعبون ويكبرون. ولم يمـــر عام واحد دون أن تكون إحدى المرأتين حبلى أو مرضعاً ورحمة تتحسس بطنها الفارغة بألم.

اتفقـــت رحمة عقب موت زوجها الثالث مع بعض رجال قريتها علـــى حرث أرضها وزراعتها ولها نصف ما تنتج ولهم النصف. وتقوم هـــي برعـــي ماشيتها وحلبها وتنظيف مكان المواشي الواقع في الطابق الأرضي من بيتها. ثم صارت تؤجر بعض حجرات بيتها الكبير لمن جاء إلى القـــرية في تجـــارة أو لحاجة ما. وعادة لا يطول بهم المقام. ثم جاء هذان المعلمان اللذان وصلا حديثاً.

وصل ربيع وشاكر إلى البيت ووجدا باباً مفتوحاً ككل أبواب القرية في النهار وعلى جانبـــي الباب أنواع عديدة من النباتات في أوانٍ فخارية متباينة الأحجام. ورحمة في أمر الغرائس ليست كباقي نساءٍ قريتها اللواتي يكتفين بوضع الرياحين والبرك والوزاب وغيرها حول أبواب البيوت. إنها تمارس شغفها بالحياة عن طريق زرع المزيد مـــن الحياض حول بيتها وفوق سطحه. تستخدم كل وعاء يمكنها استخدامه لتحوله إلى إناء لشجيراتها. بيتها فقط هو المطوق تماماً من أعلاه بالآنية المزروعة. ومهما حاولت النساء تقليدها يبقى ما تغرسه رحمة أشد اخضراراً.

طرق الرجلان الباب المفتوح كثيراً وانتظرا لعل أحداً يجيب. لكن المـــرأة العجوز جاءت من خلفهما لأنها لم تكن في الدار. رحبت بهما وأدخلتهما إلى منـــزلها.

صعدت بهما السلم الضيق ثم أدخلتهما غرفة صغيرة لها نافذة تطل علـــى مدرجات تزدحم فيها سنابل القمح، ولا تنتهي مساحات تلك الحقول إلا عند حدود الأفق.

مـــنذ أيـــام فقط جددت رحمة "صهر" الحجرة التي سيسكنانها، وذلك بأن تطليها مستخدمةً "القصّة" التي تحضرها لها بعض نساء القرية مـــن جبالٍ بعيدة لتصبح الجدران بيضاء ثم تلون نصفها الأسفل باللون الأخـــضر بواســـطة البرسيم. وتنقش بعد ذلك بين اللونين رسومات صغيرة.

كـــل النـــساء يـــذهبن مـــتى ما دعت الحاجة إلى جبال بعيدة ليـــستخرجن من مغاراتها مادة بيضاء يُذبنها في الماء ويطلين بها جدران بيوتهن من الداخل. إلا رحمة.. هي فقط ومنذ أن كانت شابة صغيرة لا تجرؤ على الذهاب إلى تلك الجبال البعيدة فقد كانت تجربتها مع ذلك المكان مريعة و لم تتوازن بعدها إلا بصعوبة.

في بـــدايات حـــياتها الزوجية وقبل أن تتجاوز التاسعة عشرة أو العـــشرين، ذهبت مع صديقة لها إلى تلك الجبال. ولكثرة ما أُخذ منها على مر العصور نُحتَ في قاعدة أحدها مغارات عديدة متداخلة ينفتح بعـــضها علـــى بعض من كل جهاته في عمق الجبل، تدخل من أرادت أخـــذ المـــادة المسماة "قصّة" إلى تلك المغارات لتنحت من داخله وتملأ مكتلها.

انتهت رحمة من جمع كمية كافية من القصة. وخرجت من بطن الجبل تحمل ما جمعت وتنادي بأعلى صوتها على رفيقتها التي لا تزال في

إحدى المغارات. اتجهت المرأة الأخرى إلى الخارج وبدا لها نور الشمس ساطعاً وقوياً قبل أن تصل إلى نهاية الممر. رأتها رحمة مقبلة عليها ولكن.. وقبل أن تخرج من فم الغار تهاوى فوقها الجبل بكامله. ابتلعها في أعماقه أمام عيني صديقتها رحمة التي ظلت تصرخ دون توقف إلى أن أغمي عليها.

سمع صراخها الناس القريبين من ذلك المكان. وأدركوا من خلال هلعها وكلماتها غير المترابطة أن تحت الجبل المتهاوي فوق مغاراته القديمة امرأة مدفونة.

لا مجال لفعل شيء، فضخامة الجبل تجعل من المستحيل إخراج المرأة لتغسيلها ودفنها في "إم مجَنَّة". ظلت تلك الحادثة رعباً يهز أعماق رحمة لسنوات إلى أن خفت وطأته بتقادم الزمن. وظل الأثر البادي للجميع وهو أنها تخاف من الاقتراب من تلك الأماكن. لكنها تستعين ببعض نساء القرية ليجلبن لها معهن ما يكفيها من الـ "قصَّة" لتعتني بمنزلها. وها هي الآن وقبل أن يأتي شاكر وربيع قد جددت "صهر" الحجرة.

لم يخبر الشابان أحداً بالإحباط الذي أصابهما فور وصولهما. إذ تصورا أن العقد الذي وقعاه للعمل في السعودية يعني أن يعملا في مدينة أو بالقرب منها على أسوأ الأحوال. لكن ها هما الآن في قرية حطت على قمم شاهقة تغفو بعد غياب الشمس بقليل وتخلو تماماً من كل الضجيج الذي اعتادا عليه. ثم تستيقظ كلها عند الفجر.

ومهما كانت الحياة مبهجة عند آل وادح بالنسبة لأهلها، فإنها تبقى قرية صغيرة لا تروق لشابين اعتادا التسوق ودخول دور السينما والمسرح ومتابعة التلفزيون وقراءة الصحف وغيرها من الأمور التي تشكل بالنسبة لهما معنى الحياة.

كانـــا مـــدركين أهما سيستغنيان عن بعض الترفيه طالما رغبا في التعاقد للعمل في السعودية. لكن لم يتصورا أن يصل الأمر بهما إلى حد الاســتغناء عـــن كل شيء والبقاء في حجرة صغيرة إلى أن يحين موعد الـــذهاب إلى المدرسة في يوم جديد والتي ليست سوى خمس حجرات صغيرة في بناء قديم.

في ذات الـــساعة التي وصلا فيها سرت في القرية همسات سريعة بين الفتيات عن بدرين هبطا من السماء للتو، يرتديان السراويل الضيقة السوداء النظيفة، والقمصان الجميلة البيضاء. يلمع وجهاهما نقاءً وبهاءً. وبالغــت فــتاة حــين ادعت بأنها تشم رائحة عطر أحدهما وهما في حجرتهما وهي في حقل مجاور.

أخـــبرا رحمـــة أنهما متعبان ويودان النوم فتركتهما وخرجت إلى حيث كانت. على أنها تنوي أن تعود لتصنع طعامهما بعد أن يستيقظا. لكن النوم استعصى عليهما حين أحسا بأنهما يتضوران جوعاً. لذا قررا البحث أولاً عن طعام.

خـــرج ربيع منـــزل رحمة إلى الطريق يبحث عن متجرٍ ليشتري الطعام. ثم اضطر إلى سؤال إحدى المارات به أثناء عودتها إلى منـــزلها قبل الغروب. و لم تكن سوى سعدى:

- أختي.. أين يباع الطعام...؟
- إم طعام لا يباع.
- كيف!!.. ألا يوجد قصّاب يبيع اللحم مثلاً؟
- لا أحد يبيع إم لحم.

ذُهل ربيع من إجاباتها ولكنه عاد يسأل:

- أختي أين أجد أفران الخبز.
- وما هي أفران إم خبز؟

- ألا يوجد فرّان هنا؟!

لم تفهم المرأة كلماته فسألته:

- عماذا تبحث؟
- أريد خبزاً.. من أين تشترون الخبز؟
- نحن لا نشتريه.. نحن نخبزه بأيدينا.

شكرها واستدار عائداً وهو يقول لنفسه:

- مصيبة.. وكيف أخبز أنا...؟!

لكنه سمعها تناديه من خلفه بقولها:

- أنت.. أنت.. تعال.

استدار من جديد فقالت له:

- أنت جائع وتريد أن تأكل أنت وصاحبك.. أليس كذلك؟
- نعم.
- إذاً تعال معي.

سـار الرجل إلى جوارها ظاناً أنها ستدله على متجرٍ أو ما شابه لكـنها قادته إلى بيتها وقالت له تفضل. وبعد أن أدخلته نادت ابنتها فاطمة لتقول لها:

- اذهبـي بسرعة إلى بيت أمي رحمة واطلبـي من...

وقبل أن تكمل التفتت إلى ربيع وسألته:

- ما اسم صاحبك؟
- اسمه شاكر.

عادت سعدى إلى الحديث مع ابنتها:

- اذهبـي إلى حجرة أبوش شاكر في بيت ومِّش رحمة وقولي له أن يأتي حالاً.

هـرولت الطفلة ثم عادت وهي تمسك بيد شاكر الذي استحسن

نداءها له بـــ "أبـــي شاكر". استقبلته سعدى في منـــزلها وقدمت لهما الكثير من الطعام.

مشكلتهما لم تحل بعد إذ لا يزالان في حيرة من كيفية تأمين قوت يومهما والقرية تخلو من الباعة والدكاكين.

أخـــبرتهما سعدى أن هناك أسواقا وأشهرها هو سوق الثلاثاء في أبهـــا. وكل سوق يسمّى باليوم الذي يجتمع فيه الناس. فسوق الأحد مثلاً في قرية قريبة يجتمع فيه الناس يوم الأحد. يأتي الناس في اليوم المحدد ليبيعوا ما زاد عن حاجتهم وليشتروا ما يحتاجون إليه.

قـــبل أن يغـــادر شـــاكر وربيع ملأت لهما سعدى آنيةً بالسمن والعسل واللبن وأعطتهما الكثير من الخبز وبعض الأطعمة الشعبية.

وافقا على الحل الذي وجدا أنهما مضطران إليه وهو أن تقدم لهما العجـــوز رحمـــة الوجبات الثلاث كل يوم مقابل مبلغٍ زهيدٍ من المال يـــضاف إلى أجرة الحجرة. فصارت تطهو طعامها كالمعتاد وتضاعف الكمية ثم تدعوهما ليأكلا معها على ذات "إم مطرح وإم مهجان"[1].

لم تمـــضِ أســـابيع إلا وقـــد صارت لا تجد لذة للطعام بدونهما. يعـــودان كـــل يوم من المدرسة ليجداها في انتظارهما فيأكل الثلاثة معاً ويثرثـــرون عـــن أشـــياء مختلفة. تحدثهم هي عن أغنامها كم توالدت وكثـــرت. ويحـــدثانها عن الطلاب والمدرسة. شيئاً فشيئاً صارت تعتني أكثر بما سيأكلانه. وتسألهما عن ما يحبان وما لا يحبان.

استساغا لحم القديد و لم يكونا من قبل قد تذوقاه. و لم يكن أمام رحمـــة وكـــل أهـــل القـــرى قبل الكهرباء إلا حفظ اللحم بإحدى طـــريقتين.إما أن يصبح قديداً وذلك بنشر اللحم ليجف بعد أن يقطع

(1) إم مطـــرح وإم مهجـــان: كلاهما من الخصف أو ما يسمى بـــ (إم طفي) والمطرح يوضع عليه الخبز على سفرة الطعام والمهجان توضع عليه أصناف الأطعمة.

شـــرائح رقيقة غُمرت في كميات كبيرة من الملح أو يُقطع إلى أوصالٍ صـــغيرة جـــداً مع كمية وافرة من الشحم ويوضع على نارٍ هادئة مدة طويلة ليذوب الشحم ويستوي فيه اللحم بعدها يحفظ في إناء من فخار في مكـــانٍ بـــارد لـــيؤخذ منه عند الحاجة وقد تجمدت فوقه الدهون لتحميه. وتصلح هذه الطريقة في البرد الذي يستمر طوال ثلاثة فصول من السنة.

تقبل الشابان الطعم الجديد لبعض الأطعمة. وتأقلما مع الحياة التي لم يعتادا عليها.

ذات يـــوم شعر شاكر ببعض التوعك و لم يذهب إلى عمله. ظل نائمـــا حتى الضحى. تركته رحمة وخرجت إلى شأنها. وحين استيقظ وجـــد طعامـــه وشرابه إلى جوار الصلل، فأكل ثم خرج ليسلي نفسه بالنظـــر إلى الـــناس والحقول، دار حول البيت ليكتشف الباب الخلفي الذي تدخل منه الأغنام ورأى رحمة هناك.

كانـــت في إم سفلي الذي تنام فيه أغنامها تكنس الروث وتجمعه في "مكـــتلٍ" كـــبير ثم تحمـــل "إم مكتل" وتتجه به إلى حيث تجففه الشمس.

صُعق شاكر من منظر يديها المتسختين بالروث. وتذكر أنه يأكل الخبز الذي تعجنه بذات اليدين. نظر باشمئزاز إلى ما تحت أظافرها فرأى القذارة على شكل خطوط سوداء.

عاد ربيع من عمله متلهفاً إلى الطعام وكانت رحمة قد أعدت ما ســـيأكلونه سوياً. لكن شاكر فاجأهما برفضه التام للأكل مدعيا ألما في معدته.

يـــدرك شـــاكر أن رحمـــة تغسل يديها جيدا قبل أن تطهو لهما طعامهمـــا. وأنهـــا تتوضأ للصلاة أربع أو خمس مرات في اليوم. وأنها

تـــستحم كل أسبوع مرة أو مرتين. ومع هذا ظل منـــزعجاً يفكر في مشكلته، وإلى متى سيواصل الصوم. ومن أين سيأتي بطعامه بعد الآن. أســـرّ بالأمـــر إلى صاحبه. وأرقتهما فكرة أن يجرحاها برفض طعامها والاعـــتماد علـــى نفسيهما في إعداد ما يأكلان. لكنهما لن يستطيعا الأكل مما تطهوه رحمة أو أي امرأة أخرى في القرية.

المـــشكلة ســـتُحل لـــو اســـتبدلت رحمة السدر المطحون الذي تـــستخدمه دائماً لتغسل يديها بالصابون، لذا أسرعا بإعطائها صابونة يستخدمانها أثناء الاستحمام. وطلبا منها أن تغسل كفيها بها باستمرار. ثم ذهـــبا إلى أبها وعادا محملين بالكثير من المعلبات والأطعمة المحفوظة وقوالب عديدة من الصابون.

تعلمت منهما كيف تستخدم المكواة التي تسخن بالجمر وصارت تغسل ثيابهما وتكويها وتدخل كل صباح لتوقظهما من أجل العمل ثم ترتب حجرتهما بعناية وحب بعد أن يخرجا.

اندلق عليهما كل ذلك المخزون الأمومي الذي جمعته في داخلها مـــنذ أن كانت طفلة تلعب بالعرائس وإلى أن يئست من الإنجاب حين غدت عجوزا ذات كفين معروقين ووجه مجعد وجلد متهدل حول عنقٍ كان قبل عقودٍ من السنوات بهيا.

فاض قلبها حبا وارتد عليها منهما احتراما وامتنانا لما تقوم به من أجلهما.

— 11 —

ماذا على اللواتي مثلها أن يفعلن إذا كانت الحياة موصدةً أمامهن؟

مـــن يـــراقب آمنة لن يتردد في أن يقر بأن تلك الطفلة خَاسرة بالْفطـــرة، أو أنها ممن فاضوا عن الحاجة ولكنهم ظلوا على قيد الحياة. أغلق العالم أبوابه فلم تستطع ولوجه و لم تتقبل الأرض جسدها لتواريه تحت الثرى. ظلت في برزخ لا يمر به إلا من يماثلها من الأحياء. برزخ بين الحياة والموت.

لا تعـــرف آمنة لحظة ود واحدة بينها وبين زوجها صالح منذ أن أخـــذها طفلـــةً ظهر يوم عرسها الصامت. لم يلاطفها في أي يوم.. لم يـــشكرها على شيء تقوم به.. لم يثنِ عليها في أي موقف.. لم يمتدح الطعام الذي تعده. لم يقل شيئاً فيما عدا الزجر إذا خالفت ما يشاء أو قالـــت مـــا لا يحب، كذلك اليوم الذي تمنت فيه أن يشتري تلفزيون. عنفها كثيراً حتى بكت.

مـــرت بها الأيام متشابهات لا فرق بين سبت وجمعة إلا في كون صـــالح سينام بعد الفجر إلى الثامنة صباحاً في نهاية الأسبوع ثم يخرج لا تـــدري إلى أين أو يستقبل في منـــزله بعض من يتدارس معهم أمورا لا تفهمها حتى وإن سمعت ما يقولون. ثم يخرجون إلى الصلاة.

أكثـــر الأيـــام كآبة هو اليوم الذي ترى فيه صالح لوقت أطول، فـــبقاؤها بدونـــه يعطـــيها فرصة العيش مع أشخاصٍ ابتدعهم عقلها. تخيلـــتهم حولها وصاروا أصدقاءها الذين تنـــزعج إن فرق بينها وبينهم

وجود صالح. تتحدث إليهم.. تحتد أحيانا معهم وتظهر غضبها الشديد علـــيهم. تـــتوعدهم تصرخ بهم. وتهددهم إن لم يفعلوا ما تأمرهم به فسوف يرون منها ما لا يسرهم.

تبقى في خيالاتها تلك إلى أن يعود صالح. فتكون في خدمته. أو في زاويتها مع إذاعة القرآن الكريم إلى أن يغادر.

طلبت منه يوماً أن يشتري لها ثيابا جديدة لأن القديمة التي جاء بها حين تزوجها صارت أقصر. هز رأسه و لم يعقب فتابعت:

- ثيابـــي تقصر لأني صرت طويلة.

احـــضر في اليوم التالي عدة أمتار من أقمشة نسائية. وضعها على طرف السرير وقال: في الكيس ثياب تصلح للنساء.. البسيها.

ترددت آمنة كثيراً قبل أن تقول له:

- هذه تحتاج إلى من يحيكها لتصبح ثياباً أرتديها. إئذن لي بالذهاب مع جارتنا هيلة إلى الخياطة أم يوسف.
- ولماذا لا تحيكين ثيابك بنفسك؟

لم تقـــل شـــيئاً لكنها لا تدري كيف تحيك ثوباً. صحيح إنها كانت ترى أمها تصلح بعض الثياب إذا تمزقت. وتعلم إن في قريتها رجـــلاً يحيك الثياب العسيرية المطرزة بيده لكل نساء القرية وقرىً مجاورة. إذ إن الحياكة عمل كان يقوم به الرجال في الجنوب. لكنها لم تجلس مع ذلك الرجل و لم تتعلم منه شيئاً. بل لم تمسك بيدها إبرةً في حياتها.

في الـــيوم الـــتالي عاد صالح إلى بيته ومعه شيء لا تدري ما هو. وضعه أمامها ثم قال لها:

- من هنا يمر الخيط ويدخل في هذه الإبرة وإذا حركتِ هذه العجلة بشكل دائري تتحرك الإبرة على القماش وتحيكه.

كـــان تحت الإبرة قطعة قماشٍ صغيرة وضعها البائع للتجربة أمام صالح قبل أن يشتري ماكينة الخياطة. ثم قدم البائع مقصاً كبيرا كهدية للمشتري.

كالهواء الذي يحيط بآمنة من كل مكان أحاطها الارتباك. كيف تحـــول هذه الأمتار من القماش إلى ثوب ترتديه. جربت تحريك الإبرة علـــى القماش عدة مرات، وأخرجت الخيط وأدخلته في الإبرة كثيراً. وظلت حائرة.

في اللـــيل حين تنام طفلتها هناء تقضي آمنة سهرتها مع مذياعها الـــصغير. إذ لـــيس لها رفيق غيره تحترف معه الأرق. اعتادت شرب الشاي في حوش منـــزلها بين الغرف كل ليلة من ليالي الصيف. تتأمل الـــنجوم وتنصت إلى مسلسلاتها، ولا تنام قبل الواحدة. أحياناً تتذكر أهلها الذين لا تعرف أخبارهم إلا عن طريق الرسائل النادرة.

بكت كثيراً مع أبطال مسلسلاتها الإذاعية.

حـــدثت آمنة مذياعها بصوت خافت وبكثير من الدموع مقلدةً بطلة المسلسل، ومضيفةً ما يختلج في أعماقها: "أريد أمي وأبـــي.. أريد أختي وأخي.. أريد هدباء.. أريد غنمي.. أريد أحمد".

تجلـــس في الحـــوش بجوار باب الحجرة التي ينامون فيها لتسمع طفلـــتها إن بكـــت ومذياعها إلى جوارها، ودائماً تخفض صوته لكيلا يوقظ صالح إذ من المبهج لها أن ينام. أوليس نوم الظالم عبادة؟!

اســـتيقظت ذات فجـــر وقد لمعت في رأسها فكرة وما عليها ســـوى أن تنتظر خروج صالح إلى عمله لتنفذها. وبمجرد أن غادر البيت أخذت كرتها القديمة وقلبتها ثم بدأت تتأمل مسارات الخيوط فـــيها وتحـــاول أن تفهـــم كيف تم قص القماش ليكون على هذه الصورة.

طـــال الـــوقت وهي تقلب الكرته وتفكر ثم بدأت تنقض بعض الخيوط لتتأكد من شكل القصة قبل الحياكة إلى أن صارت الكرته كلها قطعـــاً مفككة ومتجاورة على الأرض. أحضرت القماش وقصت الكم الأيمـــن أولاً ثم الأيسر وحاولت أن يكون شبيها ومساوياً لكم كرتتها القديمـــة. ثم قصت الصدر. ثم الجزء السفلي الذي من المفترض أن يحاك مزموماً من عند الخصر.

بـــذلت جهدا كبيراً لتجعل الأجزاء التي قصتها ثوبا صالحا للبس وجهـــدا مضاعفا لتعيد الكرته القديمة إلى سابق عهدها لكنها فشلت. وبعد مرور عدة أيام أضنتها فيها المحاولات. قررت تهريب القماش إلى أم يوسف بواسطة هيلة لتحيكه لها. استأذنت قبل أن ينام صالح لتذهب غداً إلى هيلة. وفي الصباح كانت عندها ومعها أقمشتها.

قالت آمنة:

- أعطـــيها لأم يوســـف لتعيد هذه كما كانت وتحيك هذه لتصبح كرته.

فأجابتها العجوز الطيبة:

- وما رأيك أن تأتي معي لزيارتها الآن.

ارتبكت آمنة ورفضت بهلع خوفا من صالح. فقالت لها هيلة.

- وكيف سيعرف صالح؟ تعالي وسنعود قبل صلاة الظهر وستطبخين طعامه قبل أن يأتي بوقت كاف.

لم تـــنوِ هيلة أن تعلم جارتها الصغيرة كيف تحتال لكي تحصل علـــى بعـــض أساسيات الحياة لكنها ولطول الأيام التي عاشتها مع رجل، صارت تجيد تلك الطرق التي من خلالها تحصل على بعض ما تريد ثم تجعل رجلها مزهواً لاعتقاده أنها لا تتنفس إلا لأنه يسمح لها بـــذلك. ليست مسرورة لأنها تحتال لكن تلك السبيل الوحيدة لمن

اضـــطرت للمكـــوث في بـــيت رجل آمن بفحولته أكثر من إيمانه بإنسانيته.

سارتا معا، تحمل آمنة طفلتها تارة وتحملها عنها العجوز هيلة تـــارة أخرى. ثم استقبلتهما أم يوسف بحفاوة في مجلسها المتواضع. وصُعقت آمنة عندما رأت المرأة ترتدي ثوباً يظهر ساقيها إلى ما فوق الركبتين ويكشف عن ذراعين سمينتين. لكنها ظلت صامتة. تخيلت أن زوج هـــذه المـــرأة لا يـــشتري لها ما يكفيها من القماش لتستر نفسها.

فهمـــت أم يوســـف مـــن هيلة المطلوب وضحكت عندما رأت القمـــاش مقطعـــا علـــى غير هدى. وجهت حديثها إلى آمنة بعد أن أشفقت على حالها حين علمت أنها طفلة متزوجة وبعيدة عن أهلها.

- أنتِ مثلي في غربة.. أنا أيضا أهلي بعيد. لكن الجيران صاروا أهلاً لـــنا. هـــذا القماش الزائد يكفي لنصنع منه ثوبا جديدا. أما هذه القطع فسنحاول الاستفادة منها قدر الإمكان والباقي سنرميه.

انـــــزعجت آمنة وهي التي كانت تظن أن قصها للقماش كان صحيحا ومماثلاً للكرته القديمة.

- يمكن أن أرسم لك الباترون على ورق وتحتفظي به لاستخدامه عند الحاجة.

وبـــدأت في أخـــذ مقاسات جسدها النامي ثم رسمت على ورق أبيض كبير خطوط لم تفهم آمنة معناها.

علمـــتها كـــيف تـــضع القماش على بعضه إن أرادت أن تقص قطعتين متماثلتين كالأكمام.

قـــصت القمـــاش أمامها بعد أن وضعت عليه الورق ووضعت علامـــاتٍ وخطـــوط بواسطة صابونة صغيرة أوشكت على الانتهاء.

شـــبكت القطـــع مع بعضها بالدبابيس وعلمت آمنة كيف تسرجها بالإبرة أولاً وبعد ذاك يمكن درزها على الماكينة.

اســـتوعبت الـــصغيرة الدرس بسرعة. وفرحت كثيراً بما تعلمته. وعـــادت إلى بيتها مسرعة لإعداد غداء صالح بعد أول مغامرة تقوم بها دون علمه. وصارت كل مساء تسرّج جزءاً من ثوبها الجديد على مهل وحين انتهت قررت أن تزور أم يوسف حتى وإن لم يدرِ صالح.

أبـــدت أم يوسف رضاها عن عمل آمنة وبدأت تعلمها كيف تدرز الـــثوب بعد أن اكتمل تسريجه على الماكينة. ثم كيف ستركب السحاب. وتابعـــت آمنة العمل في بيتها إلى أن صار عندها كرته جديدة. ومن القطع المتبقية استطاعت آمنة أن تصنع ثوبا صغيرا لطفلتها. وصارتا ترتديان ثوبين متـــشابهين. لاحـــظ صـــالح ذلك الإنجاز فلم يعلق لكنه صار بعد مرور الـــشهرين أو الثلاثة يحضر عدد من أمتار القماش لتبدأ في قصها مستخدمةً الـــورق الذي رسمت عليه أم يوسف الباترون المناسب لمقاساتها في تجربتها الأولى قـــبل شـــهور. كمـــا وصارت تحتفظ بما يتبقى من الصابونة التي يستحمان بها قبل أن تنتهي لكي تستخدمها في التخطيط على القماش قبل قصه. وتطلب منه أن يشتري صابونة جديدة.

في الحـــوش تجلس إلى مذياعها تحيك ثيابها أو تنصت فقط إن لم يكـــن لـــديها جديـــد تصنعه. تتقاسم الشجن مع المذيعين والمذيعات والمطربين والمطربات. وترفع رأسها لترى هل لا زالت النجوم منصتات معها إلى ذات الأغنيات.

في ذلك المساء جلست كعادتها. ولم تمض دقائق إلا وقد انتبهت إلى صـــوت حصوات صغيرة تسقط فوقها. كأنها تسقط من السماء.. رفعـــت بـــصرها ونظرت إلى الأعلى فرأت شبح أحدهم فوق سطح مطبخها المقابل لغرفة نومها يقول لها هامساً:

- لا تخافي.

كاد الفزع أن يشل أطرافها.. وبسرعة تركت المذياع وقفزت إلى الغرفة. اتجهت إلى صالح تلتصق به وكان يغط في نوم عميق. احتمت به ولفــت ذراعها حوله فانقلب على جنبه الأيسر وتركها وراءه. ظلت مكانهـا عــدة دقائق، ثم انتبهت إلى أنها لأول مرة تقترب من زوجها، لأول مــرة تلتــصق به، دائما تهرب منه أو تتهرب، تتصنع الانشغال بالبيت أو الطفلة، أما هذا المساء فقد خبأت وجهها تحت لحيته الطويلة، وها هو يبتعد ويبعدها عنه لينقلب إلى الجهة الأخرى.

تــشجعت ومــشت علـى أطراف أصابعها، وصلت إلى الباب ونظــرت إلى الأعلى ولكن لا أحد فوق السطح. مدت يدها وأخذت مذياعها بسرعة ودخلت حجرتها ثم أغلقت الباب.

بقيت في الحجرة إلى أن نامت ثم استيقظت عندما بدأ صالح يتهيأ للخروج لصلاة الفجر.

تذكــرت البارحة وصارت تفكر، هل تخبره بما حدث. لا تدري لمــاذا قررت أن تصمت. لكنها بعد أن خرج إلى العمل شعرت ببعض الخوف ثم صارت طوال ذلك اليوم تنتظر المساء وفي أذنيها يتردد صدى صوت هامسٍ قال لها:

- لا تخافي.

أقبل الليل، وبسرعة قدمت العشاء لزوجها وهدهدت طفلتها إلى أن نامت. شعرت بأن لديها سراً لا أحد يعرفه. هذه الليلة فقط لديها شــيء. بعكس كل الليالي والأيام التي عاشتها في هذا المنــزل حيث مرت بلا خوف ولا بهجة. بلا ترقب ولا انتظار ولا شيء.

نظرت إلى صالح وهو يأكل وحده وكأنه يتسابق مع أحد على ما تبقى في الصحن من الطعام. استغربت طريقته واكتشفت أنها لأول مرة

تنتـــبه إلى ســـرعته في الـــتهام الطعام. تركته يأكل وذهبت إلى المطبخ لإعـــداد الشاي الذي ستشربه بعد أن ينام فهي لا تريد أن تذهب إلى المطبخ بعد ذلك لكي لا تبتعد عن باب الغرفة. وعندما عادت وجدت أن الطعـــام قـــد انتهـــى وأن صالح صار على السرير الحديدي يتمتم بالأدعـــية ليـــنام. حملـــت الصحن إلى المطبخ وعادت تعتني بطفلتها وتمدهدها من جديد حتى نامت ثانيةً.

تـــرددت في الجلوس كما تفعل كل مساء. فضلت أن تجلس على بـــاب الغرفة بالضبط وتنظر إلى أعلى الجدار المقابل لها. لكن الوقت لا زال مبكـــراً جداً بالنسبة للحظة التي رأت فيها البارحة ذلك الشخص. فهـــو لم يظهـــر إلا بعـــد الساعة الثانية عشرة والآن لا زالت التاسعة والنـــصف. ولأول مرة تختبر آمنة هذا الشعور. الترقب والخوف. قالت لنفسها: "لو كان لصا فماذا سيسرق من بيتنا؟ لاشيء".

لقـــد سمعـــت في المـــذياع عن تنفيذ حد القصاص في عدد ممن يـــسرقون فما الذي في هذا المنـــزل البائس ليجعل أحدهم يستغني عن كفه في حال انكشف أمره ماذا يريد يا ترى...؟

حـــدثت نفـــسها من جديد: "لن يستطيع إيذائي. فأنا في البيت ويمكن أن أصرخ لو اقترب"

وفجـــأة ســـقطت حصاةٌ صغيرة في حضنها تماما. شهقت آمنة ووضعت يدها على فمها لتكتم صرخة كادت تخرج من بين شفتيها ثم تراجعت إلى الوراء. تدحرجت الحصاة من حجرها على الأرض عندما وقفت.

أســـرعت خلف باب الحجرة وظلت تنظر إلى الأعلى مرة وإلى الحـــصاة مـــرة أخرى. لقد كانت ملفوفة بورقة صغيرة. ولا أحد على الـــسطح. مـــدت يدها بسرعة وأخذت ما على الأرض ثم عادت إلى

الـــداخل. شـــدت قبـــضتها ممسكة بما رمى به ذلك الشبح. لم تعاود الخروج من الحجرة و لم تتابع المسلسل الإذاعي.

طـــال بهـــا الليـــل.. جربت الأرق.. وظلت تتقلب على جنبيها وتفكر.. يرسم لها خيالها صوراً مفزعة عن هذا الشبح الذي طلب منها أن لا تخاف. تؤكد لنفسها بأنه لص لن يتوانى عن إيذائها وما تلبث أن تنفي ما أكدته وتقول بأن اللصوص لا يهمسون لمن في البيوت قائلين: "لا تخـــافي". ثم تتلاشـــى الصور المفزعة ليحل محلها حلم يقظة ساذج يـــصور لها ملاكاً جميلا بأجنحة شفافة جاء ليطير بها بعيدا عن صالح. تغمـــض عينيها وتتذكر صلواتها الكثيرة التي رجت فيها الله بأن ينقذها ويعيدها إلى قريتها.. تتساءل: "هل استجاب الله وأرسل لي ملاكاً من الـــسماء ليطير بـــي بعيدا.. يقول صالح أن الملائكة تنـــزل من السماء وتـــأتي إلى حجرتي لتلعنني إن أغضبته..وأنا لم أغضبه.. ويمكن أن تأتي الملائكـــة لـــتطير بـــــي إلى أهلي.. لكن.. ربما هو من الجن!" وفور تـــصورها هـــذا ذكرت اسم الله بسرعة وتتالي، إذ إنها قد تعلمت في قريتها أنه لا سلطة للجن على من يذكرون الله. لذا استطاعت أن تبدد خوفها تماماً بعد ذكر الله إذ حتى لو أن فوق سطح بيتها أشد العفاريت قوة فلن يستطيع شيئاً لمجرد أنها ذكرت اسم الله.

لم تعـــرف آمـــنة لـــيلة أطول من تلك الليلة وكلما نامت قليلاً استيقظت فزعة حتى أتى الفجر. وقبل أن يستيقظ صالح خبأت الورقة تحـــت وسادتها وظلت مكانها إلى أن خرج إلى الصلاة. حينها شعرت برعب جعلها تعزم على إخباره بمجرد عودته من المسجد لأنها لا تريد مـــن هـــذا الشبح الذي كان في الليل على سطح دارها أن يأتي إليها وصالح في عمله فيقتلها.. أو يقتل طفلتها.. أو يؤذيهما بأي شكل. ولما عاد صالح ظلت صامتة تفكر.. "لقد قال لي: "لا تخافي" حين رمى بهذه

الـــورقة.. وقال: "لا تخافي" في اليوم السابق.. لن يؤذيني.. من سيؤذيني هو صالح لو علم بالأمر".

تعرف آمنة أن في جاراتها من تجيد القراءة إذ إنهن دخلن المدارس حين كن صغيرات ثم تركنها وتزوجن بعد أن صرن كبيرات. لكن ماذا تقـــول لهـــن عن هذه الورقة..؟ وماذا إذا وصل خبرها إلى صالح بأي شكل. الأحسن ألا تريها لأحد أبداً. جلست بينهن شاردة الذهن على غير عادتها وفي حجرها طفلتها تهدهدها سواء نامت الطفلة أو لم تنم.

مـــشت في طريق عودتها هي وهيلة معاً كعادتهما. وحين فتحت آمـــنة الباب رجت هيلة أن تدخل معها لكن هيلة اعتذرت لأن عليها هـــي أيـــضا أن تعد طعام الغداء. واضطرت آمنة بهدوء المتوجسين إلى دخـــول البـــيت. وبعد أن أغلقت الباب أسرعت إلى حجرتها وظلت ترهف سمعها لتكتشف إن كان أحد في المنـــزل أم لا.

تأكدت حين لم تسمع أصواتاً في البيت أن لا أحد فيه فخرجت إلى مطبخها تسرع في إعداد الكبسة قبل أن يأتي زوجها.

في المساء وبعد أن نام صالح وطفلتها هناء خرجت آمنة والفضول يـــدفعها لتعرف ماذا سيحدث هذه الليلة وإذا بالشبح في انتظارها وهو يهمس بما كتبه و لم تُجد قراءته.. وبما قاله لها من قبل:

- لا تخافي.

تشجعت وقالت بصوت خافت:

- من أنت؟

أجابها بهمس بالكاد تسمعه:

- أنا أراقبك منذ أول الشهر وقررت مع اكتمال البدر أن أظهر لك نفسي لتريني جيدا.
- تراقبني منذ أول الشهر؟ لماذا؟ ماذا تريد مني؟

- لا شيء.. لا أريد شيئاً.
- لا تريد شيئاً..!! فلماذا تراقبني إذاً؟
- لا أقصد المراقبة.. أقصد كنت أستمع معك إلى المذياع وأراك وأنت تشربين الشاي.. و... و... فقط. هذا كل شيء.

بدا لآمنة أنه لا يخيفها. على العكس، في صوته شيء من الارتباك يقول لها أنه طيب.. كأولئك الصبيان الذين عرفتهم في قريتها. وفي صوته خوف يجعله يتردد قبل أن ينطق الكلمات.

- اسمع.. لا يجوز أن تراقبني هكذا.. لا يجوز.

صمت قليلا لأنه لا يدري بماذا يرد ثم قال:

- لم أقصد الإساءة.

استدار يريد أن يذهب فقالت باندفاع:

- لحظة.. لا تذهب.

لم تدر آمنة ما عساها أن تقول له بعد أن استوقفته. لكن فضولها شديد لتعرف من هو وتعلم أن ما يتوجب عليها هو أن تصده بحزم قبل أن يكتشف صالح بأنها تحدثت إلى رجل فيقتلها. لكنها طلبت منه البقاء فماذا ستقول له الآن؟

ظل صامتا مكانه وهي صامتة. رافعة رأسها إلى الأعلى تنظر إليه وتحاول استكشاف ملامحه تحت نور القمر.

سألها بتردد:

- تحبين الشاي؟
- ... قليلاً ...
- اسمي أحمد.. وأنت ما اسمك؟

تناثر قلب آمنة وكانت تظن أنه قد تحجَّر.. انعقد لسانها بعد أن نفذ اسم الفتى إلى مهجتها.. نظرت إلى الأرض عند قدميها.. هل

أصـــابها الدوار عندما انحنى رأسها لطول ما كانت تنظر إلى الأعلى أم لأن الاسم الذي ذكره هذا الشخص عاد بها إلى قرية آل وادح التي لم ترها منذ خمس سنوات. قريتها التي تركتها طفلة في التاسعة يعيدها اسم هـــذا الفتى إليها وهي الآن في الرابعة عشرة. وها هي تشتاق إلى الفتى الذي وصلها خبر حبه لها و لم يخبرها هو.

هل انتهت الأسماء من الكون لكي لا يجد هذا الشخص اسما آخر غير أحمد.

همست بحزن:

- أحمد..؟!!

- نعم.

- اسمك أحمد..؟!

- نعم.

ســـاد صـــمت ذكّرها بذاك الصمت الذي كان بينها وبين أحمد عندما تمر بقربه ويبتسم فتبتسم وتتابع سيرها.

جلس أحمد على السطح بعد أن كان واقفاً وقد اطمأن إلى رغبتها في بقائه وظل صامتا يترقب ما ستقوله آمنة. لكن آمنة لا تريد الكلام، تـــريد أن تحتفظ بهذا الشعور الحزين على أحمد.. تريد أن تبكي.. تريد أن تطلـــب من هذا الشبح أن يعيدها إلى القرية. وكررت السؤال بعد صمت دام دقائق.

- اسمك أحمد!

- نعم...

- كيف تصعد على سطح بيتنا؟

- في بداية الأمر صعدت على سطح بيتنا نحن الملاصق لسطح بيتكم لأثـــبّت هوائي التلفزيون وعندما سمعت مذياعك اقتربت وصرت

كل ليلة أنصت وأنظر إليك... فقط.

عـــاد شعور بالفضول يخالط الشعور بالحزن في داخل آمنة فقالت له:

- في أول الأمر ظننتك لصاً.

وضـــع الفتى كفيه على فمه وضحك ضحكةً خافته وأخبرها أنه ليس بلص ولكنه ابن جيرانها الذين يلتصق بيتهم ببيتها من الخلف. وأن مـــا جعله يستمر في صعوده كل ليلة إلى السطح هو أنها كانت تبكي عندما رآها أول مرة. ثم أكتشف أنها تبكي في كثير من الليالي.

— 12 —

(وللمساكينِ أيضاً بالندى ولعُ)

صارت الأحاديث بين آمنة وأحمد في أي شأن تجعل الليل قصيرا كما وتجعل نصف النهار ينقضي قبل أن تستيقظ من نومها. و لم يعد من الضروري أن يبقى أحمد في الأعلى. لقد ثبّت حبالا طويلة على السطح لكي ينزل ثم يصعد بها ثانيةً. ولا ينسى أن يجر حباله إليه ثم يتركها مكانها في الأعلى إلى الليلة التالية لينزل بها من جديد.

كلما نزل أحمد إلى الحوش جلس إلى جوار آمنة دون أن يلمسها، فهو على يقين من وجود أحدٍ في الداخل قد يقتله إن استيقظ على صرخة منها. ثم إنه لم يلمس امرأةً من قبل ولا يعلم كيف يبدأ إن قرر تنفيذ ما يتمناه. لذا ظل الأمر دون أحلامه. يتحدثان ساعة أو أقل ثم يتعلق بحباله من جديد ليعود إلى الأعلى متى ما أمرتْ بذلك.

كانت تطلب من ذلك الشاب الصغير أن يرحل بعد وقت قصير لمجرد شعورها بالقلق من احتمال استيقاظ صالح. وتشعر بروحها معلقة من أطرافها بين رغبتها في بقائه معها وخوفها من ذلك النائم على بعد أمتار قليلة منهما.. تتنازعها الغواية والخوف من أن يعلم زوجها بسرها الجديد. لا تفكر كيف ستسير أمورها مع أحمد. تفضل أن تحذر فقط وأن تسرق من لقائها به لحظات تحيا بها وهي في موتها الحالي.

لم تكن تعلم قبل تلك الزيارات المسائية أن شيئاً في داخلها يغط في سبات عميق منتظراً من يوقظه. هناك في أعماق أعماقها أنثى لا زال بإمكانها أن تبتهج.

لا يشبه هذا الفتى أحمدها القديم إلا في اسمه. كان نحيلا وكأن ثـوبه يغطـي عصا طويلة. يذكّرها بفزاعة الطيور التي طالما رأتْ أمهـا تصنعها من بعض الحطب وتلبسها ثيابا بالية وطفشة مهترئة لتتوهم الطيور وجود إنسان بين السنابل فلا تأكلها. كان حديثهما همـساً.. لـيس كهمـس امرأة في أذني رجل ولا كهمس عاشقين اسـتبدتْ بهمـا الأشواق. بل كما يهمس الخائف مما سيحل به إن انكشف أمره.

أحمد لا يكبر آمنة إلا بسنة أو اثنتين، للتو صار في السادسة عشرة وهذه تجربته الأولى في اللقاء بأنثى.. إذ لم يعرف من النساء إلا حضن أمـه قـبل أن تموت وهو في الخامسة من العمر. عاش بعدها مع والده وزوجته الجديدة ثم تعرف على أطفال الحي وأولاد المدرسة التي تركها بعـد أن رسـب مرتين في الصف السادس ليصبح معاوناً لوالده الذي يعمـل بمـزرعة أحد الأثرياء الذين تكاثرت النقود في أيديهم مع بدء الطفـرة واسـتمر ثراؤهم في التزايد إلى أن صاروا يملكون العديد من القصور.

يـذهب أحمد مع والده إلى العمل دائماً، إلا بعد أن صار يلتقي بآمـنة. الجلوس بقربها والحديث معها أنساه وعوده لأبيه بأن يستيقظ باكراً ليكون معه في عمله.

في بـداياتهما كـان أحمد متردداً، يخاف أن يلمس آمنة، مكتفياً ببهجـته لجلوسه معها وأحاديثهما التي لا يدريان كيف تبدأ ولا كيف تنتهـي. شـعر بالخـوف في أول الأمر من أن تفعل به أي شيء. أن تـصرخ.. أن تخبر عنه الناس أو الشرطة. ولكنه ليلة بعد أخرى اطمأن إلـيها ثم قـرر النـزول و لم تمانـع، فقط طلبت منه أن يعدها بأنه سينصرف بمجرد أن تأمره بذلك فهز رأسه موافقاً على الفور.

عادت آمنة مراهقة من جديد بعد أن كادت تقفز إلى الشيخوخة مـــن طفولـــتها. جعلها أحمد فتاة لها ثغر يبتسم ويثرثر.. وقلب يخفق ويشتاق.. وأنامل تتحسس بها جسد شاب صغير.

كان في أول الأمر هو من يرتجف هلعاً. ثم صار ينتظر اللحظة التي تشير فيها إليه لينـــزل بحباله من فوق السطح.

لم تـــبخل بالبـــسكويت والمكسرات التي يشتريها صالح من أجل أصدقائه، يأكل أحمد منها ما يأكل ثم تضع آمنة ما تبقى في جيوبه قبل صـــعوده بالحـــبال. سرها أن يشاركها ليلها ومذياعها والشاي الذي اعتادت شربه وحيدةً كل مساء. لكن الخوف يجعلها تسارع إلى طلب مغادرته فيوافق دون تردد، إذ إن الخوف يسيطر عليه هو أيضاً.

اقتـــرحت أن يزورها في الصباح فالوقت أكثر أمناً بالنسبة لها من اللـــيل. أخـــبرها بأن عليه أن يلحق بوالده في حدود التاسعة صباحاً. فقالت له:

- لا بأس نجلس معاً كل صباح من السادسة والنصف إلى التاسعة ثم تذهب.

لم يسألها كيف يكون البيت آمناً في الصباح أكثر من المساء، ولم تخبره بأنها متزوجه وأن زوجها يغادر المنـــزل إلى عمله في هذا الوقت.

جاء أحمد على الموعد.. ونظر من الأعلى، فأشارت إليه بالنـــزول.. أمـــسك بحباله وتدلى بها ثم قفز مطمئناً وترك الحبل من يده. اختل توازنه حين وصل واقفاً إلى الأرض فأمسكت به لكي لا يقع، لكن شيئاً كصعقة البرق اجتاح جسدها كله لمجرد أن كفيها أحاطتا بصدره.

لم يخطر في بال صالح وقد أغلق الأبواب دون زوجته أن هناك من سيتـــساقط عليها من فوقها. وكانت هذه هي المرة الرابعة التي يلتقيان فيها. والمرة الأولى التي يراها أحمد في ضوء الصباح.

لا يمشي هذا الفتى على الأرض بل يدور حول آمنة قافزاً كالقرد في بعـــض خطواته دون أن يشعر. و لم تنتبه هي إلى طريقته. سارا معاً وجلـــسا على الأرض داخل الحجرة حيث كانت طفلتها هناء نائمة. لـــيس خوفاً هذا الذي يبدو على أحمد بل مشاعر مختلطة. لقد عكست آمنة اطمئنانها عليه.. لكنه متوتر ومغتبط. ليس مهماً أن يكون مع آمنة أو مـــع ســـواها.. المهم أنه يجلس بجوار واحدة كاللواتي يراقبهن أثناء خروجهن من المدرسة وتدافعهن في الحافلات الكبيرة أو سيارات أولياء أمورهن. وما أكثر ما جرَّته مشاهدتهن إلى أحلام وتخيلات يستسلم لها كلما انفرد بذاته.

نظـــر إلى آمنة ثم إلى الطفلة وهو يبتسم. حملها دون أن تستيقظ وسأل آمنة:

- ابنتك؟

قالت دون مواربة:

- نعم.

قال صادقاً:

- يا حظك.. يا ليت عندي "عيال".

قبّل الطفلة بهدوء ثم أخذتها آمنة منه وأعادتها إلى فراشها و لم تدرِ بماذا تجيبه. قالت ما تبادر إلى ذهنها فوراً:

- تزوج ويصبح عندك عيال.

لم يفكر أحمد بعد في تحويل أحلام اللقاء بامرأة إلى حلمٍ بالزواج لكن ها هي آمنة تحولها له. تنهد وقال مظهراً رغباته العارمة:

- يا ليت.

نظر إليها وقال دون مقدمات:

- أنت حلوة.

وضع يده على فمه وكأنه يستبقي كلاماً آخر لا يريد أن ينفلت من لسانه. وضع يده على فمه كمن ندم على كلمة قالها لأول مرة في حـــياته ولا يـــدري هل نطقها صحيحة أم أخطأ فيها. وشعرت آمنة بصعود الدماء إلى وجهها.. أربكتها كلمته الغريبة عليها. لم تسمع من قبل أي إطراءٍ من أي نوع. أسعدها قوله ربما، أو فاجأها. جعل رأسها ثقيلاً. قالت له وهي تكاد تبكي لشدة التأثر:

- احلف.. قل والله.

قـــال جاداً وقد استعاد ثقته في قدرته على الكلام حين رأى تأثير كلمته عليها:

- أقسم بالله أنتِ حلوة.

ظلت صامتة لثوانٍ ثم بكت. نظر إليها دون أن يجرؤ على ما هو أكثـــر. فمـــسحت دموعها القليلة بيديها وظلت تتأمله. وشيئاً فشيئاً أدركت معنى نظراته.

لم تجرب آمنة زهو الأنثى بمقدرتها على الغواية إلا هذه المرة. ولم يجد جسدها الغض فرصة من قبل للإفصاح عن مطالبه.

تزينت قبل أن يأتي أحمد. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تدفعها فطـــرتها لتتـــزين من أجل رجل. رَشَّتْ الكثيرَ من كلونيا الليمون "أبو طـــير" على ثيابها ودهنت شعرها بالقليل من زيت زيتون أحضره صالح مع الفول ذات مساء. وكان هذا كل ما لديها استعداداً لإغواء رجل. هـــي تذكر جيدا كيف تتزين بنات قريتها وماذا يستخدمن من أدوات لكي يصبحن أنيقات وفاتنات. تعرف أن بعضهن تصنع حتى عطورها من بعض أنواع الشجر وبعض أنواع الزهور، لكنها لا تملك الآن شيئاً.

أحمد يبذل كثيراً من الجهد ليخفي شبقه الطافح. يكاد لا يصدق أنـــه معها. كان يحلم أن ترضى به أية فتاة ليبدأ أولى تجاربه ويكتشف

كيف هو مذاق الأنثى وها هو يحقق حلمه.. اقترب منها فتشبثتْ به.. وقادهما غريزتاهما إلى ما بعد ذلك. وكم كانت دهشتهما عظيمة حين أطفأت النارُ ناراً.. فهدأ وهدأت لبعض الوقت.. ثم اشتعلا من جديد.

أدركت آمنة من خلال تجربتها الأولى تلك أن بإمكانها أن تنتشي وهـــي التي تئن ألماً تحت صالح. ثم شعرت بالرضا الذي يشعر به المانح، إذ ولأول مرة يكون لإرادتها دور ولم تكن مجرد مطية. كانت تهبه بقدر ما تشاء وتأخذ ما تشاء. ولم يقترب ذلك الشاب الصغير إلا حين أيقن قبولها ولم يلمسها إلا لأنها أمسكت به وتشبثت بصدره.

ســاعات الــصباح تلــك تكفـــي للكثير من القُبل والكثير من الكلمــات، لــذا بــدأت آمنة بالثرثرة معه. قالت له إنها من الجنوب فأخبرها أنه من اليمن وأن والده يعمل مزارعاً في مزرعة كبيرة بداخلها قصر لا يزوره صاحبه إلا عدة أيام في السنة.

- وما هو القصر يا أحمد؟
- القـــصور بـــيوت كبيرة جداً.. حولها أشجار كثيرة. وفيها أناس قليلون.
- تقصد كتلك التي في قريتي؟

سألها مستغرباً:

- في قريتك قصور؟
- فيها بيوت كبيرة وأخرى صغيرة وفيها أشجار كثيرة.

ألفتْ آمنة في غربتها ملازمة أحمد لها وألف هو بقاءه إلى جانبها كـــل يـــوم منذ أن يخرج زوجها إلى أن تقترب الساعة من العاشرة. وأحـــياناً يرفض الذهاب مع والده ليبقى معها. كانت مبهورة بأحاديثه عـــن المدرســـة الـــتي كان يذهب إليها في الماضي، والمدرسين والمدير والطلاب وكل ما يجري في ذلك العالم المجهول بالنسبة لها. شعرت بأن

هـــذا الفتى واسع الخبرة غزير الاطلاع. ولذا ورد ببالها سؤال ظنت أنه الأعلم بإجابته

- أحمد ما هو البحر؟

ليست لدى هذا المراهق إجابة حقيقية لأنه هو أيضاً لم ير البحر، لذا سألها:

- ألم تري البحر في حياتك؟
- لا والله ما رأيته.
- البحر ماء.

قالت له باستغراب شديد:

- ماء كالذي نشربه...؟! فكيف يسافر الناس في الماء؟
- ليس كالذي نشربه.. ماء مختلف.
- متى رأيت البحر يا أحمد؟
- أنا لم أره. لكن درسنا عنه في المدرسة.
- وأنـــا سمعتهم يتحدثون عن السفر بالبحر في المذياع و لم أدرِ كيف يكون ذلك.

اســـتمرت اللقاءات بين المراهقَين وفي قلبيهما شيء يشبه الحب، والرغبات تذرع جسديهما جيئة وذهابا. أطلقا ذئبين جائعين يعويان في دمائهمـــا بشكل متكرر. وكطفلين تذوقا الحلوى لأول مرة ابتهجت آمنة وأحمد باكتشافاتهما الجديدة.

كانـــت المقارنة تحضر في ذهن آمنة بين ما هي عليه مع هذا الفتى الـــيافع وبـــين كونها مجرد مطيه تحت صالح في المساء. مقارنة جعلت الوقـــوع في فـــخ الخطايا أحب إلى تلك المراهقة من الانصياع إلى كل دروس الأخلاق التي يتعلمها الناس في مجتمعاتهم.

مع أحمد كانت تضحك وتلعب وتستلقي وتستدير وتقف وتقفز

وتكـــاد تطير. ومع صالح كانت تكتم أنينها وتحبس أنفاسها وتبقى بلا حراك إلى أن ينتهي.

لم يساورها إحساس بالذنب تجاه ما تقوم به سراً.. لم تشعر بوخز الضمير. كل ما فكرت به هو أن لا يكتشف أحد ما تفعله. وأن تعيش الحياة قدر استطاعتها من الزاوية التي سمح بها القدر.

منذ أن جاءت إلى الرياض في نهايات العام 1393هـــ مرت أربع ســـنوات أو أكثر من عزلة شبه تامة على آمنة عاشتها لكي يستعملها صــالح من ضمن ما يستعمل من الأدوات. لخدمته ومتعته. ثم انفتحت كـــوّة صـــغيرة تسلل منها نور أحمد إلى أن غمر روحها فتحولت إلى إنـــسان آخر. إنسان يمكنه أن يبدي سعادته وحزنه. فيضحك ويبكي، وهـــي التي كادت أن تجف فيها كل منابع الشعور قبل أن تعرفه. أحمد لـــيس حبيبها أو زوجها.. وليس صديقها.. وليس أهلها.. أحمد ليس أحداً من هؤلاء.. إنه كل هؤلاء.

مـــر العامـــان 1397 و1398 على تلك اللقاءات اليومية أو شبه اليومية بسلام وكانت آمنة في ذلك الوقت كل صباح شيئاً آخر يختلف عـــن تلك التي في المساء. أما إذا سافر صالح فإن فتاها يقيم معها داخل البيت لعدة أيام متواصلة بعد أن صارت لديه الجرأة على رفض الذهاب مع والده ليعاونه في عمله.

أدركت آمنة في النصف الثاني من العام 1399هـــ. من خلال ما تلاحظـــه من تغيرات على جسدها بأنها حبلى. ولا تعلم أي الرجلين والـــد هـــذا الجنين. لكن من سيكترث للأمر؟ لا فرق عند آمنة فيمن يكون والد طفلها القادم. ما يهمها هو أن أحمد يحبها كما تحبه وأكثر، ويـــود أن يهبها روحه. تبهجها لقاءاتهما المستمرة. لقاءات جعلت هذا الفتى هو كل الناس الذين يملأون حياة آمنة.

فرح صالح كثيراً بخبر حمل زوجته، ودعا الله كثيراً في صلواته أن يهبه ولدا ليكون عونه في حياته ويحمل اسمه بعد مماته. ثم عاهد الله وهو ساجد لله – إن جاء المولود ذكراً – أن يربيه أحسن تربيه فينشأ صالحاً تقياً مقتدياً به وبشيخه جهيمان.

— 13 —

إن البُغاثَ بأرضنا يستنسرُ

يواصـــل جهيمان تحركاته ليتفقد (بيوت الإخوان) ويتابع ما يستجد فيها. يلقي دروسه على مستمعيه المنصتين بشغف. يسألونه بعـــدها كمرجعٍ لهم وأميرٍ لجماعتهم. ثم يختمون حديثَهم بترديد ما يحفظون وما يكتبون من أشعارٍ عامية لينتهي لقاؤهم بسماع بعض قصائدهم المحملة بقيم الصحراء بعد تغليفها بالدين. لأن الدين فيما يظـــنون جاء بتلك القيم أو جاء من أجلها وأجلهم. وكل الذين لا تـــسير حـــياتهم وفـــق ما ينظّرون ويفتون ويأمرون به، هم ضالون كإضـــلال الـــشيطان ذاته. يجب هدايتهم أو قتلهم. وعلى من في الأرض قاطبةً أن يدركوا بأن ما يقولون به منقول عن اللوح المحفوظ في سمائه السابعة بجوار عرش الله تعالى. وسيغضب سبحانه على كل من يتهاون في الاقتداء بهم والسير على منهاجهم. كان هذا معتقدهم الـــذي يجاهـــدون لتثبيـــته. ونجحوا مع الأيام في إقناع الكثيرين بما يؤمنون به. ولا زال لتلامذة جهيمان شأن عند العوام تماماً كما كان له شأن بينهم.

في أحد البيوت التي التف فيها عدد من المحبين له ومن موقعه الذي يتوسطهم رفع جهيمان صوته ليسمعهم آخر ما كتب من الشعر العامي فقال:

(يــا رب تنــصرنا على حزب الأشرار

اللـــي تحــزبهم مـــن أجـــل المعاشـــي

لا بـــد لـــنا مـــن بعـــدها نشعل النار

مـــا تظهـــر الـــسنة طـــيور الخشاشي

إلا الـــذي دايم علـــى الـــدين صـــبّار

وإذا غـــضب يغـــدي لـــوجهه تواشي

ثم بعـــدها عـــودوا علـــى حـــيَّة الدار

وراس النفاق يداس من بعد طاشي

ثم بعـــدها ســـيروا علـــى دولـــة الجار

بجـــيل علـــى الـــسنة لمـــولاه ناشـــي)

تابع جهيمان نعيقه بقصيدته الطويلة وانتشى بها مع من حوله من أتـــباعه الـــــ "جهيمانيين". هدد من خلال أبياته بقتل (حية الدار) ثم مواصلة الجهاد ليصل إلى الدول المجاورة. وبرغم كل هذا ظل ما يجري في نظـــر المـــسؤولين مجـــرد طارئ شاذ، مجرد أمر عابر. ولأن الشاذ والاستثنائي دائما هو ما يخالف القاعدة فهم يظنون أن القاعدة هي من مؤيديهم وليست من مؤيدي جهيمان. لكن الأمور سارت على غير ما يُظن حيث أن القليل إذا غُضَّ الطرف عنه يتنامى ويتضاعف حتى يصير هو الأساس وما عداه نادر لا يقاس عليه ولا يعتد به.

حـــين تحول الشاذ إلى قاعدة صارت المعارك الأقوى فيما بعد مع المعـــتقدات التي أنتجتها "الدعوة المحتسبة وبيوت الإخوان"، وما يتبعها مـــن مدارس وجامعات أُنشئت وفق متطلباتهم وأُسست حسب رؤاهم ولـــيس بـــناءً علـــى احتياجات الوطن والمواطنين. حتى المستشفيات والأمـــاكن العامة صممت وفق أنظمتهم وامتلأت بكتيباتهم وملصقاتهم

وأوامـــرهم. لكـــن في ذلك الحين.. وقبل أن يستفحل الأمر.. ولأن جهـــيمان يـــنطلق من أرضية صلبة، بدأ عمله الجاد ليس فقط بالتنظير لفكره.. بل أيضاً بجمع السلاح وتدريب كل من استُدرج للجهاد معه في معسكرات خاصة تقام وسط الصحراء بعيداً عن الأعين. و لم يبدأ في الـــتفكير بحمل سلاحه في وجه الحكومة ووجه كل من يقف في طريقه - حـــتى ولو كان الله بذاته - إلا بعد أن أدرك أنه لن يجد آذاناً صاغية لما يقول.

كانـــت قد توالت الرسائل التي يكتبها ثم ينشرها سراً بين الناس بعـــد أن تطـــبع في الكويت ثم تُهرب عن طريق تلامذته وأعوانه إلى الداخل. وكان من بين ما كتب رسالة طويلة عنْوَنَها بــ النصيحة. قال في بدايتها:

(من جهيمان بن محمد سيف العتيبي إلى **ولاة** المسلمين وعامتهم، جعلـــهم الله من **أهل العقول** الذين تنفعهم التذكرة، لقول الله تعالى: ﴿... إِنَّمَـا يَتَذَكَّـرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾، وجعلهم الله ممن علم أنهم من أهل الخير فاسمعهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ...﴾ ، وأرجـــو الله أن يحفظهم بالإسلام قائمين وقاعدين وراقدين، وأن لا يـــشمت بهم عدوا للدين ولا حاسداً وأن يمنحهم من كل خير خزائنه وأن يمـــنعهم مـــن كل شر خزائنه بيده، **وأسأل الله أن يجعلهم ممن إذا ذكـــروا تذكروا وإذا نصحوا انتصحوا. لأن من رد النصيحة فكأنما رد الـــدين** لقول النبـــي ﷺ: "الدين النصيحة ثلاثاً قيل لمن يا رسول الله قال لله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم" رواه مسلم...).

لا حـــدود لإصـــراره على وجوب سماع نصيحته ثم الأخذ بها، فكلامـــه الحق. وهو أهل للنصح، وأهل لأن يكون متّبعا لا تابعا. أما ولاة أمـــر المـــسلمين وعامتهم فهم الملزمون بالإنصات له والانصياع

لأمـــره. إنه الأعلم والأفضل من الجميع ولذا وجب أن ينفذوا ما يقوله لهـــم من النصائح. ثم يصل به الأمر إلى حيث يدعو لهم بأن يكونوا من أهل العقول، لكي يستفيدوا مما سيقوله لهم في رسالته تلك.

لكـــن تبددتْ جهوده في الدعوة، بعد أن أدرك أن التابعين له هم العوام - بعضهم أو جلهم -. أما ولاة الأمر فلم يتغيروا من أجله، ولا حـــتى أقامـــوا له وزناً.. لم ينظروا إلى كلماته بالجدية التي تمناها. بل صارت سبباً في مطاردته ومصادرة ما يكتب ومنع تداوله بين الناس.

واصل كتابة رسائله لأنها إن لم ترد ولاة الأمر إلى الحق فإنها تجمع حـــوله مـــزيدا من الأتباع. لذا كتب في رسالة بعنوان: الأمارة والبيعة والطاعة نقلاً عن ابن تيمية.

(قـــال ابن تيمية رحمه الله: وهاتان السبيلان الفاسدتان؛ سبيل من انتسب إلى الدين ولم يكمله بما يحتاج إليه من السلطان والجهاد والمال، وســـبيل من أقبل على السلطان والمال والحرب ولم يقصد بذلك إقامة الـــدين همـــا سبيل المغضوب عليهم والضالين، الأولى الضالون؛ وهم النصارى، والثانية المغضوب عليهم؛ وهم اليهود، وإنما الصراط المستقيم صـــراط الـــذين أنعـــم الله علـــيهم من النبيين والصديقين والشهداء والـــصالحين؛ هي سبيل نبينا محمد ﷺ وسبيل خلفائه وأصحابه ومن ســـلك سبيلهم وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتـــبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم)

حـــين تصل تلك الرسائل إلى الرياض فصالح مسؤول مع آخرين عـــن استلامها وتوزيعها بعد أن تأتي على شاحنة مهربة تحت أرتال من أعـــلاف الغنم. ولم يتردد صالح في المرور على عددٍ كبير من المساجد لـــيملأ مكتباتها بتلك الرسائل مستعيناً بأئمتها ما أمكنه ذلك. ثم حمّل

بعـــض معاونيه ممن سيتجهون إلى عدد من مدن المملكة وقراها بالكثير مـــن النسخ حتى وصلت إلى يد عدد كبير من خطباء المساجد في أنحاء المملكة. كانت تلك التحركات الأخطبوطية لأعوان جهيمان، تعني أن يصبح المجتمع كله مجرد رخويات ضعيفة تحت أذرع أخطبوط مجهول، بعدما صلت تلك الرسائل إلى أماكن كثيرة، وأيادٍ كثيرة، ومن بين من وصلت إليهم إمام مسجد آل وادح الشيخ راشد.

راشد الذي يختزنه في لا شعوره مقدمات جاهزة، يتعامل مع هذه البيـــئة الجديـــدة بالنـــسبة لـــه بكل أحوالها الطبيعية وعادات أهلها وأخلاقـــياتهم وفقاً لتلك المقدمات التي لديه. وقف على المنبر يخطب في الـــناس وكأنه يقرأ مما أعده جهيمان بعد أن حفظه ووعاه وبدأ يفرضه على أهل القرية بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

قال نقلاً عن رسالة جهيمان:

(واعلمـــوا أن الذي أفسد حياة الناس، هو أنهم لا يزنونها بميزان الحلال والحرام الذي جاء به الدين الحنيف، فمجتمعنا الذي نعيش فيه الـــيوم حينما تتأمل في أهله تجد أن أكثرهم ممن آثر الدنيا واقترب من السلطان، وهم بين رجلين: مدافع عن الباطل وساكت عنه إلا ما شاء الله... إلخ).

تابـــع راشد خطبته إلى أن انتهى وتفرق الناس قافلين إلى أعمالهم إلا محـــسن. ظل جالساً كالغارق في حيرته. أجفانه متكسرة تنبئ عن حزن عميق، وأنامله صفراء تماماً كأوراق الخريف.

ولاحـــظ راشد ذلك الشرود والحزن في ملامح محسن. فوعده خيراً وأبلغه بأنه يعتزم إرساله هو وأحمد إبر موسى إلى حيث التقى والصلاح.

- أين نذهب؟ وماذا سنفعل هناك؟

هكذا تساءل محسن، فقال له راشد:

- تلتقيان بأهل العلم وهم يخبرونكما بما يراد منكما. ستكونان عوناً لهم على أعداء الله ورسوله؟
- ومن هم أعداء الله ورسوله؟ أين سنراهم؟
- أهل العلم سيعلمونكما ويدربونكما. هل جمعت الكثير من المال يا محسن؟
- كـــل رواتبـــي التي آخذها أجراً على الآذان في هذا المسجد منذ ثلاث سنوات جمعتها وأكاد لم أصرف منها شيئاً.
- هذا رائع. ولا تبخل بها في نصرة الله ورسوله.

سافر الفتيان محسن وأحمد فجأةً إلى مكة مع من تجمعوا في أبها من ســكان القرى للسفر من أجل العمرة. ركبا سيارة مزدحمة لا يعرفان ممن فيها أحد. ولم يطلعا أحداً على سرهما كما وعدا راشد.

بكت أم أحمد وبكت معها مزيغة، وظن من في القرية أن الشابين الــصغيرين ســافرا بحــثاً عن وظائف إذ إن هذه هي المرة الأولى التي يغادران فيها قريتهما.

وصلا مكة.. فكانت رهبتهما عند دخول البيت الحرام أعنف ما مر به قلب كل واحد منهما منذ أن عرفا الحياة. وسيكون دخولهما إلى ذات المكان في مرة قادمة سببا في انتهاء تلك الحياة.

تلــك هــي المــرة الأولى التي يريان فيها الكعبة ويصليان أمامها مباشرةً، غشاهما خشوع بالغ ألزمهما إطالة السجود. محسن أكثر تأثراً بمــا يرى، فكان انفعاله يصل به حد ذرف الدموع، وكلما رفع رأسه ورأى المكان خرَّ ساجداً من جديد. حين رأى المآذن وسمع التكبير قبل أن يدخل البيت الحرام صار صوتُ أنفاسه يعلو، وتَزايدت ضربات قلبه وشعرت روحه بظمأ للدخول. عندما فرِغ الفتيان من صلاتهما تحدرت دموع محسن شلال رهبة وحزن. رهبة المكان وحزن اليتم والضياع.

أحمـــد لـــيس ببعيد فيما يعتمل بداخله عن ما يشاهده على وجه رفيقه. لكنه أكثر هدوءاً. أو أنه قد ذرف دموعه من قبل تحت الشجر، أمـــا محـــسن فقد استبقى البكاء طوال عمره لينخرط فيه تحت أستار الكعبة. أحبا مكة وتمنيا البقاء فيها لكنهما على موعد آخر مع أناس لا يعرفان عنهم شيئاً لذا تركا مكة واتجها إلى المدينة المنورة ليجدا فيها من ينتظرهما كما وعدهما راشد فأحسن استقبالهما ثم انطلق بهما إلى عمق الصحراء شرق المدينة.

لم يعـــرف محسن معنى البهجة من قبل، أما الآن فهو مأخوذ بكل شـــيء. إذ بعد أن تسامت روحه حتى كاد أن يطير كحمام الحرم وهو في مكة، أذهله أن يُستقبل كشخص له أهميته. لم يجرب متعة أن يصغي إلـــيه أحـــد إلا حـــين تَلقّـــف هؤلاء الإخوة الجديد أحزانه بهدوء. واســـتبدلوها له بوعد أكيد أن يكون من المنتصرين، وأن يغدو ذا شأن في القريب العاجل. وعود كادت تطير بعقله.

كـــان الحـــديث لهما معاً لكن أحمد يظل صامتاً، لا يدري هل سيصغي إلى ما يقال أم يخطط لموعد رجوعه إلى قريته. أما محسن فكان يطـــرح الأسئلة حول القادم وتأتي الإجابات مقتضبة وهادئة ومشوقة. أكلا كثيرا وناما جيداً وأنصتا إلى دروس عديدة وخطب كثيرة يسعى من يلقيها عليهما إلى إعدادهما لما هو آت، وبعد أيام قليلة بعد كل تلك الـــدروس وجدا نفسيهما قد بدا التدريب مع العشرات من المتدربين، وكلـــهم تتقارب أعمارهم وكأن معظمهم وُلِدَ في ذات السنة التي ولد فيها أحمد ومحسن. لذا شعرا ببعض الألفة واستمرا في التدريب كل يوم وأحلام ضبابية تلاحقهما.

— 14 —

حين لم يبقَ في حياتها إلا الضجر، لم تعد صالحةً إلا للفراش

تقاوم كل المجتمعات بشدة ما يراد فرضه عليها بالقوة. دأبت على ذلك منذ أن تكونت الحضارات قبل آلاف السنين. وما أكثر الحروب التي اشتعلت لصد غازٍ يريد الاحتلال وفرض ثقافته خارج حدوده. يظل الجديد مرفوضاً حتى ولو كان ديناً يجزم المبشرون به أنهم أتوا به من السماء.

لكن وبعد أن ينهزم المقاوم ويضعف أمام غُزاته.. ثم يُحْكِم الغازي سيطرته على مجتمعٍ ما، يخنع الناس، وبمرور الوقت لا ينتبه أحد إلى أنهم صاروا يتبنون ذلك الجديد الذي أتى به عدوهم السابق، وشيئاً فشيئاً يجدون أنفسهم لا يدافعون عن ذاك الجديد أكثر منه هو شخصياً وحسب، بل يستميتون في الدفاع عما أتى به، ويتحولون إلى جنود لخدمة الغزاة. فيصبح ما كانوا يرفضونه عقيدة لهم. ويذوبون ضمنه ثم يدّعون بعد حين أن تلك الثقافة الغازية "والتي هي ثقافة المنتصر" ثقافتهم الخاصة منذ آلاف السنين.

قاومت كل المجتمعات كل دخيل.. حتى الأديان في بداياتها حُوربتْ.. ثم حاربت الناسُ بعد ذلك للدفاع عنها ونشرها. وهذا بالضبط ما جعل وطن آل وادح يتبع هواجسه ويخاف الغرباء. إذ رفضت القريةُ أفكارهم وتشبثت بما لديها. لكنها مع الأيام وهنت ثم بدأت تذوب فيهم.

وذلــك الــرجل الــذي جاء إماماً لمسجدهم، لن يبقى وحيدا باختلافه. لقد عقد العزم على أن يدمغهم بختمه الخاص إلى أن يصبحوا نــسخةً عنه. هو واثق مما سيحقق، لأنه لم يكن فرداً، بل كان قطرة في طــوفانٍ عظــيم يجتاح كل شيء ولا عاصمَ اليومَ من أمرِ اللَّهِ إلا مَن رحم.

تــزايدت الخُطَبُ والدروس التي حثَّ فيها راشد رجال قرية آل وادح علــى ضــبط نسائهم مستدلا على ما يقول بما يريد اجتزاءه من نــصوص وشروح للنصوص وفتاوى عديدة. ثم أخذت تثمر أقواله بعد حين. أوَ لا يثمر الزقوم؟!.

ذات خطــبة قال لهم ضمن ما قال: "خيركم خيركم لأهله.. ولا خير فيمن يرضى لأهله المهانة والذل والسير في طريق الرذيلة.. وهل في الدنيا مهانة كالتي تصيب النساء إن كشفن وجوههن... إما الذين قالوا إنهم يثقون في نسائهم فأنا أسألهم: وهل مات الشيطان؟ أم أن الشيطان أهل للثقة هو أيضاً..؟ سيسعى الشيطان إلى إغوائهن وليس أمام الرجل الحريص على تطبيق دين الله كما نــزل وعلى كرامته ثانياً إلا أن يمنع النساء من الخروج ومخالطة غير المحارم".

عاد الرجال من المسجد إلى بيوتهم متجهمين. كان غازي مقتنعاً كــل الاقتناع بما قاله راشد فثرثر طوال الطريق مع أخويه علي ويحيى والد آمنة يؤكد لهما ضرورة إلزام النساء بما قال الإمام.

هــل بــدأ اغتيال آل وادح حين بدأ تحويل نسائها إلى شيء من أمتعة البيت؟

مــن المهــم للمجتمع بشكل عام وللنساء بشكل خاص أن تبقى المرأة إنساناً يدرك ذاته ويملك قراره، فالمرأة كالرجل، ليست كائناً حياً وحــسب، بل هي كائن عاقل. والإقرار بأهليتها إقرار بإنسانيتها. أما

اللــواتي فاتهن ذلك، وتعاظم لديهن الشعور بدونيتهن مقارنة بالرجل، مــدركات بــأن الحياة جعلتهن في مرتبة أقل فإنهن يندفعن إلى لذات الجسد بنهمٍ غريب، غير معنيات بما للعقل من لذات بها يكون الإنسان إنساناً.

تلك هي الكارثة التي حلت بآل وادح وبنساء آل وادح على وجه الخصوص. فكيف ستُبعث القرية من جديد؟ وهل ستعود كما كانت؟ أم ســتأتي مسخاً لا يشبه القرى العتيقة ولا ينتمي إلى مدن متطورة في بلادٍ بعيدة للإنسان فيها قيم وقيمة مختلفة عما يعرفون؟

لقد حاولت القرية طرد راشد من داخلها كبلغم قذر تكور بعد نــوبة سعال شديدة. لكنه لم يكن وحدة لذا كان قوياً، وقوته أصابتها بالوهن فكانت أضعف من أن تتغلب على سقمها.

وكــان من آثار راشد وتأثيره أن دخل يحيى إلى البيت وفي رأسه حــديث الــشيخ وتأكــيدات أخويه. زوجته سعدى لا تزال خارج المنــزل تسابق الوقت لعلها تنجز ما عليها قبل أن يحل الظلام. وبمجرد أن عادت قال لها زوجها:

- اسمعــي يــا سعدى، لقد أخبرنا الإمام اليوم بأن خروجكن حرام وعليكن أن تلزمن البيوت.

ردت بتلقائية:

- ومن سيحضر الماء كل يوم؟
- أنا وابني إبراهيم.
- ومن يعاونك في إم حرث وإم بذر وإم سقاية وإم صريم وإم دوس وطحــن إم حــب ونقل إم حثى إلى إم صفة؟ من سيرعى إم غنم ويطعــم إم بقــر وإم ثور؟ من سيقطف إم ثمار من إم حبل؟ من سيحــضر إم نورة وإم قضب لنصهر ونخضر بيتنا؟ من سينظف إم

ســفالي ويحمــل "إم دمن" ليجف في إم خلاء ثم يحمله لتسميد إم بلاد...؟ من...

وقبل أن تكمل تساؤلاتها قال لها:

- إم معــين الله يــا سعدى، سأقوم بكل هذا. لا تخرجي. ولا تخرج ابنتنا فاطمة إلا لقضاء إم حاجة فقط.
- والله إني أتمنى إم راحة. وها أنت تطلب ما أحلم به.

خــرج يحــيى من بيته إلى عمله الذي لا ينتهي وعندما عاد بعد المغرب وجد البيت بارداً على غير العادة.

لم يكن الجلوس في المنازل والاستسلام للنوم والكسل من عادات ســكان القرى. إذ إن نساء القرية كلما تكاثرت أعمالهن صرن أكثر اغتباطاً لشعورهن بالقوة.. بالإنجاز.. بالإنتاج.. لشعورهن بالحياة ذاتها. أما حين تزايدت الراحة زاد شعورهن بالوهن والتعاسة.

في ذلك المساء أمسكت سعدى بثوبٍ لها قديم لم تجد وقتا من قبل لترقيعه. جاء يحيى وابنه الصغير إبراهيم وهي تخيط ثوبها وتدندن بأبيات قديمــة ليــنام طفلــها الأصغر سعيد في حجرها. وفاطمة إلى جوارها تتشاغل بعرائسها. سألها:

- أين إم قهوة يا سعدى؟
- لم أصنع قهوة.
- وأين إم نار، إم بيت بارد، أوقدي إم نار وهاتي إم جمر في إم صلل بسرعة.
- اجلب لنا إم حطب من خلف إم بيت.

خــرج برغم أنه للتو قد عاد واحضر حطبا مما قد جمعته ورتبته بجــوار بيتها.. ناولها إياه ثم جلس ينتظر النار لتشتعل ويتحول الحطب إلى جمر. قال بعد دقائق:

- سأتجمد من إم برد وسأقع من إم جوع.. أريد أكلاً يا سعدى.

ناولته زوجته إناءً وقالت له:

- احلب لنا إم بقرة فأنا لم أخرج لحلبها. و لم أحلب أياً من إم غنم. و لم أجمع خضاراً و لم أقطف فاكهة.

خـــرج يحيى وعاد والإناء المملوء باللبن في يده. شرب منه القليل وقـــرر أن يكتفي بهذا اللبن كعشاء ونام قبل أن يصلي العشاء من شدة التعب.

استيقظ فجراً، وتذكر في الحال أن عليه أن يقضي صلاة العشاء.. حـــوقل مستاءً من نوم البارحة وترك الصلاة. وقفز ليتوضأ لكنه وجد مـــاء الوضوء بارد حد الصقيع، إذ إن سعدى لم تخلطه هذه المرة بالماء المغلـــي كعادتهـــا كل فجر. كتم غضبه.. وكسر طبقة الجليد الشفافة الـــرقيقة الـــتي علت الإناء الكبير المخصص لماء الوضوء ثم اغترف منه ودخل إلى المغتسل.

لم يـــستطع إسباغ الوضوء كما يفعل دائما واكتفى بتبليل كفيه ومسح وجهه ورأسه وقدميه ثم خرج إلى الصلاة وهو يرتجف. ولما عاد لم يجد طعاماً ينتظره. ووجد أن لبن البارحة قد انتهى بعد أن شرب منه الصغيران فاطمة وإبراهيم ثم شربت الأم ما تبقى.

ســـألها بعـــد أن انـــتهت من صلاتها وقد توضأت بماء بارد كما توضأ:

- ألم تُعدِّي قهوةً يا سعدى؟
- لا.. لم أصنع شيئاً. إم ماء انتهى.. هاك إم قربة..اجلب ماءً من إم بئـــر لأصـــنع قهوتك. لم أخرج أمس لجلب إم ماء وأنت لم تعد للبيت إلا مساءً.
- وإم خبز.. هل خبزتِ..؟

- لم أعجـــن البارحة.. احضر لي ماءً لأعجن أولاً.. ثم حطباً كثيراً لأشـــعل نـــاراً تكفـــي لـــ إم قهوة وإم خبز وإم تدفئة. هل تريد عريكة..؟ هات كثيراً من إم حطب.

خـــرج يحيى ليجلب الحطب والماء. ثم اتجه إلى الأغنام يخرجها مع ابـــنه إبـــراهيم ويوصي به بعض الراعيات اللواتي خرجن بأغنامهن إلى السفوح الخلفية التي تحيط بجبال القرية من جهاتها الأربعة

انطلـــق بعـــد هذا إلى حقوله وقد تأخر كثيرا عن موعد خروجه اليومي. اعتمد على إبراهيم الذي لم يتجاوز السادسة من العمر ليخرج بقطـــيع يـــزيد على التسعين رأسا من الماشية.أما فاطمة ذات الثماني سنوات فقد بقيت إلى جوار والدتها في البيت.

في أيام عديدة لا يجد يحيى الوقت الكافي لإكمال كل شيء ويعود إلى بيته مساء فلا يجد ما يكفي من الطعام له ولأسرته. بيته خالٍ برغم امتلاء الأرض بالأشجار والثمار.

أكلـــت الطـــير كثيرا من الحبوب في حقوله ولا أحد يعاونه في حمايتها.. تساقطت الثمار من فوق الشجر و لم يجد الوقت ليحملها إلى بيـــته فيشبع أولاده بدلاً من المبيت وبطونهم خاوية. يعود من المسجد فجرا في كثير من الأيام فلا يجد زاده وقهوته. لأنه لا يستطيع أن يجلب ما يكفي من الماء والحطب كل يوم.

أمـــا حرث الأرض وبذرها وري الحقول ورعايتها ثم صرم الزرع في موعد "إم صريم" وأخذها إلى "إم جرين" لدوسها وتذريتها وتعبئتها ثم طحن الحبوب وتخزين التبن إضافة إلى المواشي ورعايتها وجلب الماء والبرســـيم وبقايـــا الأطعمة للبقرة والثور وإخراج الأغنام إلى المراعي وكـــنس حظائرها وحمل روثها في سلالٍ خاصة بالروث وتكويمه على شكل تلالٍ بالقرب من الحقول ليجفف في الشمس والهواء ثم ينقل إلى

المـــزارع ليخلط بالتراب بعد ذلك لتسميد الأرض. فكلها أعمال تمتد على طول المواسم ولا تكون إلا بالمشاركة بين الجميع. نساء ورجال. لكـــنها تراكمت على يحيى وعلى صغيره إبراهيم الذي يترك كل شيء ويجلس على الأرض يبكي أمام والده.

كـــل ذلك العمل كان يُنجز دون شعور بالتعب حين كانت يد المـــرأة في يـــد رجلها. بل ويجدون فائضا من الوقت للمرح والضحك والغناء. أما حين قرر أن يكون وحده. فقد تضاعف الجهد عليه. وبقي من العمل كثير مما لم يتمكن من إنجازه.

قـــام بمـــا يمكـــنه القيام به وأهدر وقته في تجهيز مؤونة المنـــزل مستقطعا الوقت المقرر للعمل في الحقول. وعندما أدرك أنه الخاسر تنهد وسأل زوجته:

- والحل يا سعدى؟ ماذا ترين؟
- الرأي ما تراه. أنا هكذا مرتاحة. أجلس في إم ظل وإم دفء بدلا من عناء إم خروج منذ إم فجر وإلى ما بعد غروب إم شمس. لكن الله لا يرضى أن ينام أطفالي وبطونهم خاوية ليرضى إمامكم راشد. هذا ليس ديناً فلا تدعهم يكذبون عليك.
- هذا إم رجل راشد شككنا في أهلنا وأوغل صدورنا على بعضنا.
- صـــدقتَه لأنـــك نسيت إم مثل ذا يقول "إذا جاءك من إم مشرق قرص فتلقه بفهر".
- والله لـــولا أنه يذكر في خطبه أن ما يقوله ورد عن رسول الله ما صدقناه.

قالت سعدى بدهشة:

- وهل تصدق بأن رسول الله يرضى بما نحن فيه من جوع وما أنت فيه من تعب. نحن لا نعرف إم رجل فكيف وثقتم به...!؟.. أم أنكم

ستصدقون إم شيطان نفسه لو جاءكم ملتحيا وصعد على إم منبر.

صمت يحي قليلا ثم قال لزوجته:

- اخرجي يا سعدى فأنت خير سند لي منذ أن عرفتك و لم أرَ منك ما يريب لأمنعك من إم خروج.

احتدت سعدى في كلامها بعد أن أغضبها ما سمعته وقالت:

- ويلـــك يـــا رجل.. أوَكنت ستبقيني مستريحةً في بيتك لو أن في سلوكي ما يريبك؟ أو كنت سترضى بـــي زوجة وأنت تعتقد أن مـــا مـــنعني عن إم حرام هو إغلاق إم باب دوني..؟ لم ترَ مني ما يريبك يا يحيى؟؟! أو كنت ستبقيني مستريحةً في بيتك لا يراني أحدا لكي لا يكون في خروجي ما يريب. كيف تقول عني هذا يا يحيى؟ كيف انقلبت هكذا...؟ كيف صرت تعتقد أني لولا حرصك علي لكنت فاجرة؟ أوَهكذا قال لكم إمامكم راشد؟ من أين أتى بهذا إم دين إم جديد ليغيّر شيمكم ورجولتكم؟ أي رجولة هذه تا ترضى بـــإغلاق إم أبواب دون امرأة يخاف زوجها عليها؟ من يخاف على امـــرأة يا يحيى عليه ألا يبقيها في داره. من لا تحفظ نفسها بنفسها فعلى زوجها أن يطلقها. هذا ما تعارف عليه أهلنا عن إم رجولة. لا تذكـــر هـــذا أمام أحد من إخوتي لكي لا يظنوا أنك ناقص في مـــروءتك ورجولـــتك، وأنك ترضى بزوجة تخونك لو وجدت فرصتها لكنها لم تفعل لأنك تغلق دونها أبواب إم بيت. يا رب... كـــيف تغـــير حال زوجي وصار يقول كلاماً لو سمعه منه إخوتي لقتلوه... ألا تدرك أنك تتهمني دون أن تنطقها يا يحيى؟

- ســـامحيني... والله ما قصدت هذا... وإم إمام إم جديد لم يقل هذا تماماً يا سعدى لكنه يقول إن إم شيطان فينا كما تجري إم دماء في إم عروق وعلينا أن نحذره.

- لا نـــرى أثر إم شيطان على أفعال إم ناس ونكاد لا نذكره إلا إذا ذكّرنا أحد به. أظن أن إم شيطان لا يتحرك إلا إذا تحدث إم ناس عنه. ولهذا أظن أنه قد حلّ في وطننا بدخول راشد علينا.

صمتت سعدى مستاءة فقال لها يحيى:

- معش حق.. ألا يحاول إم شيطان منعنا من أداء إم صلوات؟ لكننا نـــصلي.. ألا يحـــاول أن يجعلنا كفرة.. لكننا مسلمون.. ألا يريد إغـــواءنا بأي طريقة؟ لكننا نعرف إم حق من إم باطل ولن تقدر علينا شياطين إم أرض مادمنا نتوكل على الله ونرجو رضاه.
- لا تقـــل لي أنـــا كلامـــك هذا.. قله لشيخك ذا شكك في أهل بيتك.

قال بشيء من تطييب الخاطر.

- لا يـــا ســـعدى. ومن ذا شك؟ هذا لم يحدث.. وأنا ورب الكعبة أعلم أنك أطهر من ماء إم كوثر. كل ما في إم أمر أني تبعت إماماً وفق ما يقول أنه دين الله. وعرفت ذالحين أني مخطئ.
- قلت لك أن الله لا يرضى أن يجوع عوالي.

قـــرر يحـــيى أن تظل امرأته إلى جواره، يدها بيده في كل مناحي حـــياتهما كمـــا في الـــسابق لتبقى حياتهما مشتركة فيستشعران معنى وجودهما سوياً.

بعـــد أيامٍ لا يذكر يحيى عددها ذهب إلى بيت أخيه غازي ليسلم علـــيه. فلـــه الحـــق دوما في الزيارة لأنه الأكبر. لم يكن غازي وقتها موجـــوداً.. وحين هم يحيى بدخول البيت فاجَأَهُ أن زوجة أخيه أرخت غطاءً على وجهها لتستتر منه وتراجعت إلى الخلف بدلاً من أن تقترب منه ليقبِّل رأسها. وبرغم استغرابه قال لها:

- السلام عليكم يا شُهرة. كيف حالش.

ظـــل الغطـــاء الأســـود الكثيف على وجهها حين ردت السلام بـــصوت منخفض.. صعقه الأمر.. ثم فكر أنها تمزح معه.. فاقترب مرةً أخـــرى ليقبِّلَ رأسها لكنها تراجعت إلى الوراء أكثر وقالت له وذات الغطاء على وجهها:

- أخوك ليس هنا.. عد لزيارته بعد إم مغرب.

"ومنذ متى لا أدخل بيت أخي إلا إذا كان أخي موجوداً..؟ أليس بـــيت أخـــي هو بيتي.. أولاده كأولادي.. وأنا مسؤول عن رعايتهم أيضا؟.. ما هذا.. ما بها".

هكـــذا حدث نفسه واستدار متجها إلى بيته وفي قلبه مشاعر لن يستطيع شرحها لأحد.

دخل المنـــزل ولم ينتبه إلى زوجته التي كانت تكنس الدار، لم يلقِ السلام كعادته. جلس وأمال رأسه إلى الوراء ليسنده على الحائط.

- ما بك يا يحيى؟

ولم يجـــبها يحيى بشيء لكن دموعاً انحدرت على وجنتيه واتجهت تبلل لحيته التي يخالط سوادها بياض. ارتبكت سعدى.. فزوجها لم يبكِ منذ سنين.. ولن يبكي الآن إلا لحدوث مصيبةٍ عظيمة.

قالت بهلع:

- ما يبكيك يا رجل.. من مات؟
- زوجـــة أخي يا سعدى تظن أني قذر.. تظن بـــي إم سوء. زوجة أخي تشك في سلوكي يا سعدى؟
- زوجة مَنْ مِن أخويك؟ وماذا قالت لك؟
- شُـــهرة غطتْ وجهها عني وطلبتْ مني أن أعود بعد إم مغرب إن أردتُ رؤية أخي.

اندهشت سعدى للموقف كثيراً.. فتابع يحيى كلامه وهو يبكي.

- لــو أني قــذر ومــنحط وبلا مروءة ولا رجولة وسأتشهى زوجات الرجال فسأبحث عن قذرة مثلي تقبل بذلك خارج أهلي. زوجة أخي من أهلي. إنها وختي. كيف ظنت بــي هذا الظن؟ كيف آخذ حقي الآن مــنها وقد اتهمتني ضمناً بإم حقارة وإم نذالة وإم فسالة وإم دناءة وقلة إم دين وقلة إم مروة. وأي اعتذار أقبله بعد ما فعلته بــي؟

قالت سعدى وقد أذهلها ما يقول زوجها:

- إم خبلة.. زوجة أخيك غطت وجهها الآن وقد اقترب عمرها من ستين أو تجاوزتها. بينما فيما مضى حين كانت شابة، كانت تجلس معك وتستقبلك في بيتها حضر أخوك أو غاب. هل جُنَتْ شُهرة؟

بقــي يحيى متألماً كمن حلّت على رأسه طامةٌ كبرى. أما سعدى فقــد ثرثرت مع أخواتها ومع زوجة علي ومع بعض جاراتها عما فعلته شُــهرة زوجــة غازي. وتناقل كل من في القرية الخبر. وانقسم الناس أيضاً. بعضهم يرى أن ما قامت به يعد إهانة ليحيى. وتساءلوا:

- مــاذا رأت مــن يحيى لتغطي وجهها. ثم لنفرض أن امرأة رأت في ســلوك رجلٍ من رجال قريتها ما لا يجب أن يُرى.هل تغطى هي وجههــا.. أم يجــب أن يؤدب هو ولو بإم نفي أو إم قتل. كيف تتغطى. وهل غطاؤها ذاك سيجعله صالحاً بعد أن فسق؟

لكن بعضهم قال بما أفتى به راشد لهم حين سألوه:

- إنهــا تطــبق شــرع الله حباً في الله وبحثاً عن رضاه ولا يعنيها أن يغضب يحيى أو يرضى.

وتساءل آخرون:

- ولمــاذا سيغضب الله من رؤية بعضنا وجوه بعض؟ كان الأولى أن ننفي إم خائن من قريتنا. ويحيى لن يخون أهله. زوجة أخيه هي من أهله. نشهد كلنا أن يحيى رجل طاهر لكن شُهرة خَبْلَتْ.

- يا جماعة شُهرة لم تغط وجهها عن يحيى فقط. لقد غطته عنا كلنا. رأيتها تخرج تريد أن تذهب لـــ إم خلاء فلا ترى طريقها وتعثرت أمـــام بـــاب بيـــتها وكادت تسقط عدة مرات. ركضت لأعينها فنهرتني.
- نَهَـــرَتْكِ؟! شـــهرة تنهرك حين تعينها؟! سبحان من غيرها.. الآن آمنت أنها خبلة.

ظلـــت قرية آل وادح تتساءل حول ذات الموضوع أشهر عديدة. وخـــلال تلك الأشهر قلدت بعض النسوة شهرة فيما فعلت، وأتين ما أتت به فجلسن في البيوت، وفاجأن رجال القرية بتغطية وجوههن إن جـــاء أحدهم إلى ديارهن لأي سبب. وإذا خرجن لقضاء حاجتهن في الخلاء مشين محنيات الرؤوس بالكاد يرين الطريق.

الأخـــريات واصـــلن حياتهن بذات الكيفية التي عهدنها في قرى الجـــنوب، فلم يختبئن ولم يسدلن شيئاً على وجوههن لكن الأيام الآتية ستكون لهن بالمرصاد مهما كانت قوتهن ومهما كان تمسكهن بحقهن في الحياة.

— 15 —

يحتفظ بآدميته من كان لديه

(حب ورغيف وحرية)

في قـــرى الجـــنوب كان الناس في ذلك الوقت يجيدون استخدام حواســـهم حتى أقصاها. يحبون النظر إلى الآفاق. يتتبعون سير النجوم. يبهجهم شروق الشمس ويريحهم غيابها. يتلذذون بالدفء حول الجمر في ليالي الشتاء الطويلة.. ويستمر سمرهم لساعات بعد صلاة العشاء.. يخترعون "حنادي"[1] جديدة يسهرون مفكرين في حلها. أو يلعبون "إم مقطار"[2] وألعاب أخرى عديدة. ينصتون إلى الشعراء والشاعرات في الليالي المقمرات ويرقصون مبتهجين بحياتهم الهادئة.

تجمعـــت النساء ذات مساء للرقص، فبدأن الغناء ولعب الخطوة، وكـــان بينهن عاشقة اسمها "زلفة"[3] لم يدر أحد قبل تلك الليلة، غير بعـــض صـــويحباتها، بأن لها حبيباً وأن ذلك الحبيب تركها وسافر عن طـــريق مطـــار أبها الذي افتُتح حديثاً في تلك الأيام. الشاعرة العاشقة أحزنها أن يكون في أبها مطار لأن حبيبها غادر من خلاله إلى حيث لا

---

(1) حـــنادي: ألغـــاز. وقد يكون اللغز في بيت شعر أو بيتين. وقد يكون نثراً في كلمات مسجوعة أو غير مسجوعة.

(2) إم مقطـــار: المقطار. يُرسم مربع طول ضلعه من 30 إلى 50سم وفي داخله خطوط عديـــدة ويكـــون لكـــل لاعب عدد محدد من الحصى يحركها فوق تلك الخطوط مع حرص اللاعب الآخر على قطع الخطوط عليه.

(3) زُلْفـــةٌ وزُلْفَـــى: القُـــربة والدَرَجة والمنـــزلة. وفي القرآن الكريم:{...تُقَرِّبكم عندنا زُلْفَى...} سبأ: 37.

تعلـــم. أو أنه أذهلها أن يكون في أبها مطار وطائرات تحمل البشر إلى أمـــاكن بعيدة. بدأت تلك الحزينة تتغنى بأبيات نظمتها في ساعتها ثم أجابتْ على أبياتها تلك بعض صديقاتها بأبياتٍ أخرى، أما باقي النساء فعليهن أن يرددن الأبيات أثناء الرقص الجماعي.

قالت زلفة:

مـــن ســـنة واشـــكل يا وما　　صـــاحبـــي ســـافر مـــن أبها
أخـــذ روحـــي تـــا في قلبي　　ضــــامني يـــوم اسْـــتَحَبْهَا

أجابت إحدى صديقاتها وقالت:

مـــن ســـنة وإنحـــن نِـــدَوَّر　　مـــن يَـــرُدِ الْهـــا صـــاحبْهَا
كـــم بكـــتْ زلفة يا خْواتي　　ضــــامها يـــومَ بـــار أبْهـــا

قالت زلفة رداً على صديقتها:

أنـــشدوه أشـــبه خـــلاّني　　وأخـــذ طـــيارة يـــركبْها
وأنـــشدوا خالـــد الفيـــصل　　كـــيف ســـوّى مطار أبها[1]

تلـــك هـــي ليالي الشتاء، رقص وغناء، يصوغون مشاعرهم شعراً، ويكشفون به عن بعض ما في قلوبهم من العشق والحزن على حبيبٍ رحل.

أما الصيف فإنهم يستمتعون بنسماته البارد. ويستمرون في الرقص والغـــناء.. يعـــزف بعـــضهم على المزامير.. وينشد آخرون القصائد.

---

(1) مـــن ســـنة واشكل: أي منذ سنة وأكثر – ضامني يوم استحبها: أوجعني حينما استل روحـــي مـــن قلبـــي – من سنة وانحن ندور من يرد لها صاحبها: أي منذ سنة ونحن نـــبحث عمن يُرجع لها حبيبها – ضامها يوم بار بها: بار أساء. ومعنى شطر البيت أوجعها لأنه أساء إليها بهجره لها.
أنشدوه أشبه خلاني وأخذ طيارة يركبها: اسألوه لماذا تركني وركب الطائرة. وأخيراً اســـألوا الأمير خالد الفيصل (وكان حينها أميراً للمنطقة الجنوبية) كيف بنى المطار في أبها.

يضحكون ملء قلوبهم.. يأكلون ملء بطونهم.. وينساقون خلف الحب بكل إيمان.

يأتي الحب في القرية سخياً ومتغلغلاً في الأعماق. وتتواطأ الأرض كلها من أجل عاشقين فتصبح زواياها ملاذا لهما في أي لحظة. وما أكثر الأماكن التي لاذ إليها مهدي وتركية. وهذا ما يجعل الحب في قريتهم سراً لكن يعرفه الكثيرون.

يغيب مهدي ويأتي بالهدايا المتنوعة بحسب القرى التي يزورها من أجل بيع السمن والعسل وشراء ما يحتاج إليه أبواه وأهل قريته. جاء من جيزان ذات ليلة ومعه عقود كثيرة من الفل والياسمين. تجلس تركية منتظرةً حيث يتفقان مسبقاً.. لأن الطفلة آمنة صارت في الرياض و لم يعد هناك من ينقل لها الأخبار عنه. أو يبقى هو منتظراً يرهف السمع لتلتقط أذنه وقع خطوها وصوت حركة الأغصان التي تلامس كتفيها ورأسها أثناء مرورها من بين الشجر. ثم تصل أخيراً إليه.. وجهها المتورد يبهجه. ينتزعه من ظلمة الليل.. يطل عليه من بين الأشجار كنجمة وَلْهَى تدلت بهدوء.

ألبسها عقدين من الياسمين ثم لفَّ لها الثالث فوق رأسها تحت المنديل الأصفر. و لم تنس قبل أن تعود إلى المنزل إخفاء عقدي الياسمين تحت ثيابها لكي لا يتساءل أهلها عن مصدر تلك الزهور الصغيرة.

قال لها حبيبها متغزلاً:

- لست مثلنا من طين يا تركية، لا شك أن الله خلقك من شيءٍ آخر.

وغرد قلبه لتبسمها حبوراً وهي تسأله بدلال:

- ومم أنا..؟

أغمـــض مهدي عينيه ليحكي وهو يتخيل ما يقول.. أخبرها بأن الله إن لم يكـــن قد نسجها من شروق الشمس. فقد مزج سبحانه الماء بالنار ثم أنشأ محبوبته من ذلك المستحيل. وأطربها ما يقول لكنها تحب أن تستزيد من كلماته العذبة لذا تذكره ببعض أقواله عنها:

- أنـــا من ماء ونار..؟ أو لم تقل من قبل إني من زهرةِ تفاح بللها إم غَفير[1]؟

لـــيس في تلك الأرض وتحت تلك السماء من تطرب مثلها لأن مهـــدي مـــن أكثر الرجال قدرة على التغزل والإطراء، عذوبته فائقة وشـــاعريته نضَّاحة. يواصل بث أشواقه ويؤكد لحبيبته أنه لا يستطيع عنها بعدا لأنها في قلبه كوشمٍ على كف بدوية. فسألته تركية:

- وما إم وشم..؟ وأين رأيت إم بدوية؟
- إم وشـــم شـــيء تصبغ به إم بدويات نقوشاً على أيديهن وأحيانا يصنعن منه خطوطاً صغيرة وجميلة على وجوههن.. لونه أخضر.. ألم تري بدويةً في حياتش؟
- لا.. لم يـــأتِ إم بـــدو إلى وطننا منذ أن عرفت نفسي.. مرة جاء رجل بدوي على جمله ثم رحل.. أما إم نسوة إم بدويات فلم أرهن أبداً.
- لـــديهن وشم. للزينة.. إنه مثل إم حناء لكنه يظل كما هو مهما مرت إم سنين.
- وهل سأبقى منقوشة في قلبك مهما مرت إم سنين.
- بل أنتِ قلبـــي ذاته يا تركية.

مـــا أكثـــر المرات التي أرسل فيها مهدي كلماته في قلبها كمطر غزير لتستمتع بهذا الغرق. ثم يُسلّم لها قلبه لتتسيدَ على مشاعره.

---

(1) الغفير الضباب.

عـــاد يـــوماً من مكان ما في تهامة، جاء محملاً بالموز الذي لم تره تركية في حياتها من قبل لكنها سمعت عن الموز من والدتها ذات الأصول التهامية. تذوقتْ تركية الموز من يدي حبيبها ورجته بأن لا يذهب إلى تهامة إلا ويعود إليها بالكثير من هذه الفاكهة اللذيذة.

كـــرر مهـــدي الهدية ولكن بكميات كبيرة مما أضطر تركية إلى حملـــها إلى البيت بعد أن اقترح عليها أن تقول لأهلها: "الموز هدية من عند ومي رحمة". فقالت له:

- وماذا إذا سألوا ومي رحمة؟
- لا تقلقي سأتفق معها على أن تقول إن إم موز من عندها وخافت أن يفسد قبل أن يؤكل لأنه كثير. سأجعلها تقول إنه جاءها هدية من تهامي كان صديقا لزوجها.
- وإن رفضت؟
- لـــن ترفض. خذي إم موز إلى إم بيت واطعمي أهلش وسيفرحون بـــه. ثم إنهـــم لـــن يلـــتقوا برحمة ليسألوها إلا وقد زرت أهلش و"حاكيت[1] فيش"

كـــادت الفرحة أن تُسقط تركية أرضاً بدلاً من أن تطير بها إلى السماء حينما أخبرها حبيبها بأنه سيخطبها. وانتهى حديثهما على أن يكون غداً هو يوم اللقاء بوالدها.

لم يكثـــر أهلها الأسئلة حول هذا العذق الكبير من الموز. والذي لولا إنها معتادة على حمل الحطب وقربة الماء على ظهرها لما استطاعت حملـــه وإيصاله إلى البيت لثقله. صدق الأبوان أن رحمة هي التي أهدتهم إياه لأن بيتهم يمتلئ بالصغار وسيأكلونه قبل أن يفسد.

---

(1) حاكى في فلانة: أي خطبها.

فــتَّتْ أم تــركية بعض الخبز بيديها ثم استخدمت سكيناً كبيرة وبــدأت تهرس الموز إلى أن غدا كالزبدة ووضعته على الخبز ثم وضعت الجمــيع على النار لدقائق. أضافت شيئاً من العسل على وجه الطبق ثم سخنت السمن وصبته فوقه وقدمت الطعام لزوجها وأطفالها.

منذ سنين عديدة لم تزر أم تركية أهلها في تِهامة ولم تتذوق الموز. لأن أهلــها صــاروا يكثــرون الصعود إلى السراة في فصل الصيف ثم هجروا تهامة تماماً وسكنوا مدينة أبها منذ سنوات.

التقت أم تركية قبل عقدين من الزمان حين كانت صبية يافعة في تِهامــة بالرجل الذي صار زوجها ووالد تركية "محمد إبر علي" عندما وصل إليهم هارباً من رجل ظن أن محمد إبر علي هذا هو من تغزَّل في زوجته وشاع بين الناس أن الزوج أقسم بأن يقتله ساعة يراه.

لم يكــن محمد إبر علي والد تركية هو قائل البيت في امرأة تُدعى "مِلْهِــية" وتناقلته الألسن. بل رجل آخر اسمه أيضا "محمد بر علي" من قرية أخرى بعيدة جاء على جمله ذات يوم ورأى امرأة في الحقول أبهره جمالها فسألها عن اسمها. قالت له بذات البساطة التي يتعاطاها الناس في القرى:

- اسمي مِلهية.

ربمــا لم يكــن يعلم ذلك الشاعر أن ملهية متزوجة. أو علم ولم يكترث للأمر فهو عابر سبيل سيواصل طريقه على جمله. لكنه قبل أن يفعل أنشد أمامها وأمام من معها من النساء والرجال في الحقول وقال:

وإبر علي يقل إيلا راق ملهية[1]

نسي ما هي فروض إم صلاة

---

(1) إيلا: عندما - راق: رأى.

لم يكتف الناس بترديد هذا البيت بل رددوا عدداً آخر من الأبيات يقولون إنها لذات الشاعر. وهناك من قال بل هي من عند آخرين أضافوها على البيت لأنه أعجبهم. تلك الملهية الجميلة قيلتْ عنها أبيات كثيرة ومنها:

وإبر علي ينسى من اسمه أوله
ويلتهم جَدّه وينسى ما تلاه
وإن راقها بن علي مقبلة
قال ماب إم شمس تمشي هم فلاه[1].

سمع محمد بن علي آخر، صار فيما بعد والداً لتركية بالأبيات وأخبروه بأن زوج ملهية يبحث عنه ليقتله. كان حينها شاباً صغيراً لا يقول الشعر ولا حتى يحفظه لكن ليس من الحكمة أن يشرح للزوج الغاضب أي شيء.. عليه أن يهرب ويختبئ إلى أن يكتشف الزوج غريمه الحقيقي.

هرب "محمد بن علي صياد إم نمارة" من لحظته إلى تهامة وظل مختفيا عن الأنظار لا أحد يعلم أين هو إلى أن جاءته الأخبار بأن زوج ملهية وجد الشاعر الحقيقي الذي تغزل في زوجته وقتله ثم ذهب الزوج القاتل بنفسه على ناقته إلى أبها وسلم نفسه لرجال الشرطة.

كان محمد بن علي قد ورث عن أجداده عادة صيد النمور لاستخراج مواد دهنية منها بعد قتلها تستخدم في صنع بعض الأدوية

---

(1) يلتهم: يتذكر – ماب: ما سبب أو لماذا – هم: في.
ومعنى الأبيات هو أن الشاعر الذي سمى نفسه بن علي نسي فروض الصلاة حين رأى ملهية وأذهله جمالها.
وأنه نسي اسمه الأول واسمه الأخير وتذكر فقط اسم جده. هو أيضاً حين يراها مقبلة عليه يتساءل لماذا تمشي الشمس على الأرض وليست في السماء. وعادة للنساء أسماؤهن فإن كن شديدات الجمال يُنسى الاسم ويشيع عنها لقب مثل (ملهية – مشغلة – مزيغة. وغيرها من الأسماء التي تعني أن جمال تلك المرأة أشغل الناس أو ألهاهم.. إلخ.

وكــذلك يُـستفاد مــن جلــودها بعد أن تدبغ لصناعة الكثير من احتــياجاتهم. وبرغم أنه ماهر في صيد النمور فضل الهرب وعدم قتل ذلك الزوج أو تعريض نفسه للموت.

اختــبأ في تهامة ما يزيد على السنة. ثم عاد محمد بن علي والد تركية ومعــه عروس تهامية لم تألف السراة وبردها وثلوجها إلا بعد حين لكنها الآن غدت من آل وادح بعد أن عاشت بينهم كل تلك السنوات.

استمعت تركية إلى هذه الحكاية من والدها أثناء أكل الموز والخبز المخلــوطين بالسمن والعسل. وأكد لها والدها أن عليه رد الهدية لأمي رحمــة فلولاها لما تذوقوا الموز وهم الذين لم يتذوقوه منذ أن عادوا من تهامــة إلا إذا جــاءهم هدية من أحد. لم تقلق تركية بل نامت وهي مطمئنة لأن حبيبها سيتدبر أمر الكذبة.

في الــيوم التالي كانت فرحة والديها بمهدي تكاد تعادل فرحتها. فهما يعرفان آل إبر سُربة ويعلمان أن من تتزوج عندهم ستكون سعيدة لأنهــم رجال اشتهروا بتوددهم لزوجاتهم وطيبتهم معهن. ثم إن قريتهم ليست بعيدة وسوف يريان ابنتهما وتراهما كلما شاءت ذلك. كما وأن زهراء بنت من بنات آل وادح تزوجت أحد أخوة مهدي وتعيش معه حياة رغيدة في جدة.

عــندما أخبر مهدي والديه برغبته في الزواج من تركية قالت أمه عــبارتها الشهيرة والتي استخدمت فيما بعد من قبل العجائز إن أردن تزويج أبنائهن:

- امنعوني من امرأةٍ تطق بين أخوين.

كــل مــا تريده هذه المرأة لابنها مهدي زوجة صالحة لا تغطي وجهها لكي لا ترفض دخول أخيه إلى داره بعد أن طارت أخبار شُهرة وما فعلته بيحيى إلى قريتهم.

- شـــهرة طقّت بين أخوين. فرَّقتْ بين زوجها وأخوه.أخبث من إم شيطان من تفرق الإخوة عن بعضهم وتحرم الأخ من أخيه.

هكـــذا تابعـــت أم مهدي كلامها لابنها الذي يصر على الزواج بتركية. ويواصل حديثه ليقنع والدته بها. وليس لدى والدته أي سبب للاعتراض سوى خوفها من نساء قرية آل وادح لأن إحداهن طقّت أي فرَّقت بين أخوين. وهذا أسوأ ما قد تفعله امرأة.

أمـــا الأخوان اللذان تفرقا لأن شهرة "طقتْ" بينهما" فهما يحي وغـــازي. إذ إن يحي صار لا يدخل بيت أخيه ولا يرى أبناء أخيه وقد كانـــوا في قلبه كأبنائه بالضبط. وقد كان مسؤولاً عنهم في حال غاب أبـــوهم. كمـــا أنـــه لن يرى زوجة أخيه والتي كانت في مقام أخته بالضبط.

تخـــاف أم مهدي من أن تقتدي بنات آل وادح بشُهرة فيسدلن الأغطـــية على وجوههن وبهذا يبتعد الأخ عن أخيه طالما أن الزوجات يـــرين هذا الأخ غريباً لا يحق له القدوم متى شاء والإشراف على تربية أبناء أخيه في غيابه.

- لا يا "ومَّا" تركية عاقلة ولن تغطي وجهها عن أحد. ثقي بـــي يا ومـــي.. لستُ خبلاً.. ولن أختار زوجةً خبلة تشك في أخي وفي نفـــسها. لن أختار إلا زوجة عاقلة. أنا لا أقبلها ولا أريدها زوجة لي لـــو أنهـــا تـــشك في أخلاق أخي ومروءته. لا أريد خائنةً ولا خوَّانة. أنا سأتزوج فتاةً عاقلة طيبة طاهرة.

هذا ما قاله مهدي ليطمئن والدته. وكله ثقة من أن الأمور ستسير على خير ما يرام.

لم يـــستمر قلـــق أم مهدي بعد أن أقنعها ابنها برزانة تركية واتزانها وثقتها بنفسها.. وثقته هو بأنها لن تهين إخوته أبداً بأن تبدي

ريـــبةً نحـــوهم. لن تغطي وجهها عنهم. بل ستكون أختاً لهم كما يتوقعون.

وافـــق محمد بر علي وزوّج ابنته دون تردد. وعاشت تركية أولى ســـنوات حياتها مع حبيبها الذي غدا زوجها سعيدة لا تكاد تتصور أن في الحـــياة حياةً أهنأ مما هي فيه ولا أن في الدنيا كلها امرأة أسعد منها، إلى أن مد مهدي يده ذات يومٍ وصفعها على وجهها.

— 16 —

الماء لا يشتعل..
لكنه يقتل كالنار حين يغلي

لم يـــستجب الناس إلى ما أمرهم به راشد بسرعة كما تمنى. لكن خطبه توالت على أهل القرية سنوات عديدة أكد فيها لكل من يصلي خلفـــه بأنـــه لم يحصل في التاريخ كله أن أجمع أهل الباطل لمحاربة أهل الحق كما حصل في هذا الزمان.

ترافقت خطبه تلك مع أحداث عديدة توالت على القرية جعلت تعليماته تُنفذ شيئاً فشيئاً. وذلك حينما فر الفتية من العمل في الحقول، ورعي المواشي في الجبال إلى التجمع تحت سقف واحد بعيداً عن البرد والمطر في الخلاء. لقد فضلوا المدرسة ليس حبا في العلم، ولكن كرها في العمـــل الذي يناط بهم كل يوم في الصيف والشتاء. فالمواشي لا تشبع والحشائش لا تنتهي ولا تتوقف عن النمو في السفوح. كما أن الأرض تنتظر دائما مضاعفة الجهود لتضاعف إنتاج الحبوب والثمار بأنواعها. أما المدرسة فليست سوى الجلوس أمام رجل أكبر منهم يرتدي قميصا وبـــنطلون ويتحدث بلهجة مختلفة. للجلوس بهذا الكسل لذة لم يعتادوا عليها.

ضـــج كـــثير من أهل القرية معترضين على افتتاح المدرسة التي ســـحبت البساط من تحت أقدامهم. فلم يعودوا الآمرين الناهين لهؤلاء الصغار. وصار حديث الرجل للرجل في تلك القرية لا يخرج عن أحد أمـــرين. أما التذمر من عدم قدرتهم على تربية أولادهم وخوفهم على

هؤلاء الصغار الذين لا يتعلمون شيئاً يفيدهم في رعاية الأرض. أو شتم المدرسة والصبية الذين يفرون كل صباح إليها. ولما تساءلوا عما سيتعلمه أولادهم في المدرسة وعرفوا أن القرآن الكريم من ضمن ما يُدَّرس لهم اطمأنت قلوبهم واستسلموا لواقعٍ جديد بدأ في التشكل أمامهم ليغير مع الوقت كل ما كانوا عليه.

من الضروري أن يكون للمدرسة مراسل يذهب بالأوراق الرسمية إلى إدارة التعليم في أبها ويعود بما يحمِّلونه من كتب وأوراق وسجلات. وبعد أن عاب أهل القرية على أحد رجالها تركه لأرضه وجلوسه أمام باب المدرسة ليتلقى الأوامر من مديرها، اكتشفوا أن عمله هذا يدر عليه مثل ما يجنونه من مزارعهم وأكثر، وهو مستريح لا يفعل شيئاً سوى الذهاب إلى أبها مرةً في الأسبوع على الأكثر والجلوس في الظل والدفء حتى ينتصف النهار أمام المدرسة.

انقلبت الموازين.. وأصبحت الأرض التي كان إهمالها كإهمال العرض مهملةً شيئاً فشيئاً وبحث كل رجل عن وظيفة تجعل النقود في يديه أسرع وأسهل.

زاد عدد السيارات في القرية مع الوقت وصار كثير من الرجال ينطلقون بها إلى أبها بعد الفجر ويعودون بها إلى منازلهم عصراً ومن ليس معه سيارة يُقلُّه الآخرون بسياراتهم.

لم يروا بأساً في هذا بعد أن تواصلت الأعمال على الطرق لتعبيدها. ثم إن الرجل الذي كان يعمل بجهود مضنية حتى المساء صار يعمل بأقل جهدٍ ممكن ثم يستريح في بيته قبل أن تغيب الشمس بساعات. أما النساء فقد استمر خروجهن لجلب الحطب والماء عدة مرات في اليوم.

اشترى أحد رجال القرية مضخة لرفع الماء من البئر وتمريره في أنابيب إلى منزله كما رأى في أبها. وبعد مدة وجيزة قلده

الآخـــرون، فبنوا خزانات في البيوت واشتروا المضخات التي تعمل بالبنـــزين

هذا يعني أن ترتاح النساء من حمل المياه بـــ "إم قربة وإم شنق"[1] علـــى ظهـــورهن عدة مرات في اليوم من الآبار إلى البيوت. ويعني أن يـــتقلص عـــدد مـــرات خروجهن. ثم انتشرت مواقد صغيرة تشتعل بالكيروســـين بعد ظهور المضخات بوقت قصير.. وبقي الحطب مهما للتدفئة.

هـــذا التغيير الذي طال آل وادح اجتاح كل القرى المتناثرة على جبال السروات. فنسي الناس كيف يزرعون أرضهم وصاروا يتلذذون بالكسل بدلاً من ملذّات النشاط.

لم تكـــن تركية بعيدة عما يجري برغم أن الأيام مضت بها هادئة حانـــية. إلا أنهـــا بدأت ترى ما يطرأ على زوجها من تبدل في التعامل معهـــا شـــيئاً فشيئاً.. ذلك الود المتنامي والحب الفياض كيف غيضت مياهه ونضبت ينابيعه مع الوقت؟! ممن تعلم مهدي القسوة في الألفاظ والـــشح في العواطف؟! وأول ملاحظاتها على زوجها أنه صار يتجنب الالتقاء بأخواتها أو أي امرأة من نساء قريتها أو نساء قريته. ثم أعلن لها عن استيائه من تقبيل أقاربها لرأسها وتقبيلها لرؤوسهم أثناء الزيارات. كما وقد طلب من إخوته عدم الدخول إلى بيته إلا في وجوده.

قال لزوجته محذراً من طريقتها في السلام على أقربائها:

- هذا لا يجوز يا تركية.

---

(1) تمـــلأ المـــرأة قربتها بالماء من البئر ثم تربط فم القربة وترفعها لتضعها على حائط قـــصير يُبنـــى دائما بالقرب من الآبار. ولكل قربة سَيرين دائريين يسميان (شنق أو شـــناق). تـــدخل القـــربة في الشنقين. كل شنق من طرف. ثم تستدير المرأة ليكون ظهرها للحائط القصير وتُدخِل كل يد في شنق وتمشي والقربة على ظهرها والشنقان معلقان على كتفيها، تماماً كما تُحمل بعض الحقائب على الظهر.

- مالذي لا يجوز؟!!.. إنهم إخوتي يا مهدي.
- ليسوا إخوتش إنهم أبناء عمش وخالش.
- نعم.. أوليسوا إخوة لي كذلك.
- لا.. لا "تسلمي" على رؤوسهم.
- أنا أستحي منهم.. لا يمكن أن أراهم ولا أقبّل رؤوسهم. سيظنون أني غاضبة منهم.
- ألا تفهمين.. هذا حرام.. سأدخل إم نار بسببش.
- لا تُقبِّلهم أنت ما دام تقبيل أبناء عمي يدخلك إم نار. مع أني لا أدري كيف ولماذا يدخل الناس ناراً لأنهم يسلمون على بعضهم.
- ألا تفهمين؟ سلامي أنا عليهم لا يدخلني إم نار.. بل سلامش أنتِ عليهم يدخلني أنا إم نار.
- ومنذ متى كان إم سلام سببا في دخول إم نار يا مهدي؟ ثم كل شاة معلقة بعرقوبها. إن كان ما أفعله أنا حرام فلماذا تدخل أنت إم نارٍ بدلاً عني؟ كيف؟ ومن سيدخل إم نار بدلاً عنك إذا فعلت أنت حراماً؟ من؟.. أبوك.. أم ومك.. أم أنا..؟ لا تقل لي إن دخول الناس إم نار نيابةً عن بعضهم مكتوب هِم[1] مصحف. من قال هذا؟ من علمك هذا؟ أين عقلك حين صدقتهم؟
- صدق من قال إنش ناقصة عقل ودين. قلت لش لا تسلمي على أحد. ويكفي أن أقول أنا هذا لكي تمتثلي لما أقول. لا تناقشيني.

قالت مفجوعة:

- أنا ناقصة عقل ودين؟! كيف عرفت هذا؟ هل أخبرك الله عن أي عقل من عقلينا أرجح؟ وهل قال لك الله أيضاً إنه يقبل صلاتك ولا يقبل صلاتي؟

---

(1) هِم: في. هِم مصحف: في المصحف.

- قلت لا تناقشيني.

تغـــير مهدي.. تعلم أشياء جديدة لم تعهدها تركية فيه. مهدي الذي لم يكن في الدنيا شيء يسعده قدر ابتهاج تركية حينما كان يهفو إلـــيها يـــسابقه قلبه، صار يقسو في تعامله معها ولا يتوانى عن زريها وزري النـــساء جمـــيعاً لما يسمعه عنهن من تمرد ورفض للمكوث في البيوت طوال الوقت. صار يحذرها من الخروج ولا يكترث لتذمرها من مكوثها هذا بلا مبرر من وجهة نظرها.

لم تطـــق تـــركية فردوسها بعد أن صار سجناً يجب ألا تغادره وظلت تخرج كلما أرادت الخروج.

عـــاد زوجها ذات يوم ليجدها تسقي أغصاناً غرستها حول باب بيـــتها في أوانٍ فخارية قديمة، وتثرثر ضاحكةً مع جاراتها المتجمعات في بَرَحَة صغيرة بين البيوت تمتلئ بالشجيرات حول الأبواب. نهرها بغضب أمـــامهن فتعجـــبتْ منه وتعجبت الأخريات أيضاً. صعد درجات بيته فلحقت به بعد قليل، لتجده في انتظارها، ثم بدأ صراخاً لم تعهده منه.

مهـــدي ذلـــك الحبيب الذي لا تناديه تركية بعد زواجهما إلا بقـــولها: "يـــا قمري" تغير شيئاً فشيئاً.. تعلم أشياء جديدة غيرته مع الأيـــام.. وهـــناك يبدأ الرجل بتعلم القسوة عندما ينسى أنه من تلك القـــرى الجميلة. أما تركية فقد رأت من قمرها وجهَهُ المظلم لأول مرة في حياتها.

احـــتدا معـــاً وفاجأها بصفعة مترددة. صفعة خطط لها ونوى أن يجـــرب كيف يؤديها. أولم يؤكد له كثير ممن يلقون الدروس بضرورة ضرب النساء لكي لا يكن ناشزات. أوليس عصيانها لأمره هو النشوز ذاتـــه، سواء أمرَها بحق أو أمرها بباطل، عليها أن تمتثل لما قال فهو - وفـــق ما تعَلّمَ حديثاً - سيدها وليستْ نداً له، بل لقد اكتشف أيضاً

حسبما أخبروه في دروس يتلقاها مع كثيرين، أن الله كاد أن يأمر المرأة بالسجود لزوجها، لكنه لم يفعل ذلك لأسباب لا يعلمها الرجال. وأن الزوج لو ابتُلي بمرض جعل جسده يفرز الصديد والدم ثم لعقت زوجته كل ذلك لما أوفته حقه.

هـذا وأكثـر تلقاه مهدي إبر آل سربة، كما تلقته كل عقول الـشباب الصغار. حينها.. وبسبب كل هذه التعليمات الجديدة، تذكر الناس أحداثاً كانت قد جرت قبل عقود عديدة من الزمان، حينما وفد إليهم جماعة فيما مضى تعارف أهل القرى في الجنوب على تسميتهم: "إم مدَيِّنَة"[1] وهم جماعة وفدتْ إليهم بتعاليم لا يعرفونها جعلتْ كثيراً مـن كـبار السن يقسمون أن لدى هؤلاء المتدينين قرآناً آخر افتروه وخطوه بأيديهم، وليس هو ذاته ما نـزل على محمد بن عبد الله ﷺ، إذ إن القرآن الذي نـزل على رسول الله يعرفه أهل الجنوب ويقرؤون آياتـه كـل يوم. أما تلك التعاليم الجديدة في تلك السنين فقد كانت كالعجائـب. ولأن القادمين بها لم يكن لديهم وسائل نشر عديدة غير خطـبهم، ظل تأثيرهم محدوداً إلى أن جاء الجهيمانيون فتغير الناس على أيديهم، حتى مهدي، امتلأ غضباً وصفع زوجته.

جمعت تركية ثيابها وهرولتْ إلى قرية آل وادح حيث بيت أبويها. سلكت ذات الطريق الذي كان يسلكه حين كان عاشقاً نقياً كأن قلبه ينـبوع حب فياض. تغير مهدي وتغير قلبه، وتحول نبع الحب إلى نبع حماقات تدفع مهدي ومن مثله إلى ما لا يليق بالنبلاء.

تعالم الناس في قرية مهدي بخروج تركية من بيتها غاضبة. وتعالم الـناس في قرية آل وادح بعودة تركية إلى أهلها، واستمعت صويحباتها القديمات إلى ما جرى بهلع. تساءلن بدهشة:

(1) إم مدَيِّنَة: المتدينون.

- منذ متى يضرب إم رجل امرأته؟

ردت تركية باستياء:

- منذ أن تعلموا إم دين إم جديد.

صارت عبارة "إم دين إم جديد" منتشرة بين الناس في القرى. أما المنادين بهذا الدين فهم ذاهم "إم مدَيِّنة".

ربَّتتْ أمها على كتفها وهي تقول عن زوجها الذي تغير:

- يا ابنتي "مَنْ دليلته إم ديك دَلَّهُ على إم جثوه".

والدة تركية تعني أن من يتخذ ديكاً ليدله على الطريق فلا بد أن يــصل بـــه إلى روث الحيوانات. وما دام مهدي قد جعل أولئك "إم مديِّنة" قدوته فسيكون قاسياً وعنيفاً وسيضرب زوجته.

اجتمع والدها في حضورها وحضور والدها بعدد من كبار القرية وبعـــد تـــداول الأمر أرسلوا في طلب مهدي. وجاء في الموعد الذي حددوه.

كـــان والدها مترددا في مد يده للسلام على مهدي لكن نظرات الحث التي تلقاها من كبار السن جعلته يكتم حنقه ويمد يده ليد مهدي الممـــدودة. اقترب مهدي ليقبل رأس والد زوجته لكن محمد إبر علي تراجع إلى الخلف لكي لا تلمس شفاه مهدي رأسه. وذات الفعل الذي قام به والد تركية قامت به زوجته، إذ تراجعت إلى الخلف خطوة لكي لا يقـــبل مهدي زوج ابنتها رأسها عندما اقترب منها. فأدرك مهدي مدى الغضب الذي يملأ الجميع. وجلس ينصت إلى ما يقولون:

- لقد بدر منك يا مهدي ما علمناه. وقمت بضرب ابنتي وهي تا لم تُـــضرب منذ أن خلقها الله. و"إنحن"[1] يوم زوجناك اشترطنا أن تعاملها بإم حسنى. وإن لم تستقم إم حياة بينكما فالله يغنيها عنك

(1) إنحن: نحن.

ويغنـــيك عـــنها. ردها لنا ولا تمنها بحرف. لكن إم إهانة ذالحين ليـــست بإم كلام يا مهدي.. لقد صارت بإم ضرب. اشترطنا ألا تمينها بحرف فتجاوزت كل ذلك ووصلتَ إلى مد يدك.

ظل مهدي صامتاً لا يجد ما يقول. فتابع الرجل كلامه.

- إن كـــنت تريدها وهي تريدك فلن تعود إليك إلا بشروط أذكرها لـــك ذا الحـــين. أو فطلقها إن كنت ترى أن إم حياة بينكما لن تستقيم.

أجاب مهدي وعيناه تنظران إلى الأرض:

- أحب زوجتي وأريدها معي يا عمي.
- أنـــت تعلم أننا لا نـــزوج بناتنا لنحميهن من إم عوز وإم فاقة. في بيوتـــنا مـــا يكفـــيهن وفي أرضنا خير يكفينا ويكفيهن ويزيد بما نتصدق به ونـــزكيه. نحن نـــزوج بناتنا لأن هذا شرع الله وتلك ســـنته في خلقه. أما إن كانت إحداهن لا تجد في بيت زوجها ما يـــسرها فمـــا حاجتها لِـــ إم زواج؟؟ ولماذا ستبقى معه؟ لكن ما دمـــت تقول إنك لا تزال تريدها فعليك أولاً أن تحضر لها رضوة، تطـــيِّب بها خاطرها. حزام ذهب بـــ خمسة آلاف ريال. وتذبح خروفاً من خير ما لديك من إم غنم إكراماً لها ولأهلها كلهم.

ارتاح مهدي إلى ما جرى إقراره برغم الكلفة التي ستلحق به فقد كـــان خائفاً من أن تصر زوجته التي طالما أحبها وأحبته على تركه بعد أن أتى أمراً لم يسبقه إليه أحد في عسير كلها.

— 17 —

ياله من تقي!
أراد أن ينتصر لكي يبني مسجداً
فوق الجماجم والرفات

ظل جهيمان ابناً للصحراء، باراً بها. لم يشأ مفارقتها، ولم يعرف غيرها. عاشرها ولم يتعلم من سواها. آمن بأن كل ما ليس فيها ومنها حرام بالضرورة. اجتهد في أن يستدل على ما اعتاده فيها من كتاب الله وسنَّة نبيه. وكتب آراءه شعراً ونثراً.. ثم وجد الكثير من الأتباع.. وصدّق أتباعُهُ ما يقول.

الصحراء تعني الرحيل المستمر المتواصل.. والرحيل يعني ألا يكون لدى الناس إلا القليل من المتاع. حتى البيوت تُطوى وتوضع فوق الجمال ثم تنصب من جديد في مكان آخر. حياة التنقل تلك جعلت كل ما لديهم من تراث ينحصر في لغتهم وتعاملهم مع بعضهم. أما على الأرض فلا مجال للبناء أو الإنتاج.

اعتادوا تلك الحياة الخالية إلا من أقل القليل منذ آلاف السنين. ثم أضافوا لذلك الاعتياد اشمئزازهم ممن ينعم بما لا يعرفون من النعم.. اشمئزاز يعني أن يروا بأنهم الأفضل والأصلح والأقدر على تحمل مشقة الحياة. كانوا شديدي الاعتداد بأنفسهم.. مستغنين عن كل شيء، لأن الصحراء تكاد أن تخلوا من كل شيء. ذلك كله جعل البيئة صالحة لاستنبات التحريم لكل ما ليس من أدواتهم

والتكفير لكل من استخدم ما لم يعتادوا استخدامه، أو استمتع بما لم يألفوا الاستمتاع به. وهذا ما تحقق لجهيمان حين أتاهم مُولْولاً يقول لهم بأن التصوير حرام.

أنـــاسٌ بعـــضهم لم يـــرَ صُوَرته حتى في الماء الذي يشربون لعدم غـــزارته.. يقـــرأ لهم جهيمان ما كتب وينشر بينهم ما يظنه حق، فلا يقـــدرون على شيء حيال ما يقول سوى التصديق. ويتبعونه بقلوبهم الشغوفة إلى رضا الله والمملوءة بالخوف مما لا يعرفون.

إذا كـــان جهـــيمان قـــد حرّم الصور التي على أوراق العملة وأوجـــب طمـــسها، وتبعه في ذلك جمهور من تلامذته وعدد من الـــشيوخ المعـــتد برأيهم في البلاد، بل وتم الإقرار بتحريم الصور في كـــتب الفقه التي تُدرس للطلبة والطالبات وفقاً لما قال به جهيمان وبعـــض مـــن سبقوه. إذا كان هذا هو موقفه من أمر بهذه البساطة فماذا سيكون رأيه في مباهج الحياة التي لم يجربها؟ بل و لم يسمع حتى عن بعضها.

مـــن طمـــس صورةً على ورقة نقدية لن يقبل بوجود صور أكبر مـــنها فكـــيف إذا رآها تتحرك على شاشات التلفزيون أو السينما؟.. أولـــيس كل ما لم يعتد عليه فسق وفجور! لذا ظل يتنقل في الصحراء مبـــتعداً عمـــا لا يألف ولا يعرف. ومبتعدا أيضاً عن قوات الأمن التي ظلـــت تلاحقه شهوراً ليست بالقليلة. وإذا كان جهيمان عند تلامذته وأتـــباعه نجماً ذا ألق، قائداً ذا حنكة وشيخاً ذا وقار، وعالماً ذا حكمة وداعـــيةً ذا فضل، فما ذاك إلا لأن "الديك ينفش ريش صدره ليعجب الدجاجات".

شارف المشروع الكبير على البدء، وتوالت الأيام لتأتيه بيومه الموعـــود. لذا فهو في همة ونشاط يواصل السير الحثيث عاقداً العزم

على بذل الجهد لينتهي مما قرر. توقف قبيل المغرب وسط الصحراء وقـــد كـــان في طريقه من المدينة المنورة إلى عدد من الهجر، قاصدا بعض أصدقائه.

يـــسير دائمـــاً وحده بعيدا عن طرق السيارات، سالكاً طرق القوافل القديمة أو طرقاً استحدثها البدو بعد أن استقروا في هجرهم. كان هارباً طوال وقته في سيارته "الوانيت" يشق طريقه شرقي المدينة المنورة.

بـــرر هـــروبه لاحقاً في رسالته الأخيرة مستشهداً بفرار النبـــي موســـى، وفرار النبـــي إبراهيم عليهما السلام من قومهما، وباختفاء الرسول ﷺ وصاحبه أبـــي بكر في الغار.

لم يـــرَ جهيمان من هو أشد جهلاً من الذين وصفوه بالجبن وهو يقتدي بالأنبياء. صحيح أنه قائد هارب، وأصحابه يقبعون في السجون. قائـــد طليق وله أتباع معتقلون بسبب ما يقوله لهم!! إذ إن أفكاره هو حـــول مـــا تسمح به الحكومة وما تفعله والبيعة وشروط الإمامة هي الـــتهمة الـــتي تم بها إيقاف الكثير من رجاله، بينما استطاع هو الفرار وظل حراً يجوب القفار.. لكنه سيجمعهم من جديد ليحدث أمراً لولاه ما كان.

في صحراء كان يرى الجن ترتع وترعى جمالها. فيسمي الله ويسبح كثيراً. وبينما هو مستغرق في ذكر الله سمع أحدهم يحييه ثم يعرض عليه اســـتعداده بـــأن يسخِّر كل أفراد قبيلته التي بعدد الرمال لنصرته. ولا يـــدري جهـــيمان هـــل كان في حال يقظة أم نوم عندما سمع ورأى استعداد جن الصحراء لمد يد العون له.

تـــناول من سيارته كتاب (صحيح مسلم) من بين مجموعة كتبه الـــتي لا تفارقـــه أينما رحل. أمسك الكتاب وكوّم عظامه المتيبسة في

فروته المتسخة والمليئة بالغبار بالقرب من شجرة ليس فيها سوى أشواك تقف وحدها في بيداء كأنها بلا نهاية. وقبل أن يفتح كتابه حدث نفسه: "لن أموت في هذه القفار بإذن الله. سأكون كما أراد الله ناصراً لدينه معلياً لكلمته". ثم بدأ يقرأ طلباً للراحة من عناء الطريق إلى أن حال ظلام الليل بينه وبين السطور.

صلى المغرب والعشاء جمعا وقصرا ثم عاد إلى سيارته وتابع السير إلى أن غلبه النعاس فأوقفها ونام فيها حتى الصباح.

استيقظ قُبيل الشروق وقد رأى رؤياه التي تأكد من خلالها بأن الله معه وسيعينه على التغيير. لقد رأى رجلاً بهي الوجه جميل الملامح يهبط من السماء ويقول له:

- أنا نبي الله عيسى أتيتك لأقول لك بأنك سترى رجلاً من ولد فاطمة رضي الله عنها أجلى الجبهة، أقنى الأنف اسمه محمد بن عبد الله عليك أن تبايعه وأن تعين على مبايعته فهو المهدي المنتظر.

كبَّر وهلَّل وصلَّى على النبي عدة مرات وهو لا يكاد يفيق مما رآه ثم تيمم وصلى الفجر. تذكر وهو يصلي أنه رأى أثناء النوم وجه الرجل الذي يصفه النبي عيسى عليه السلام. لقد كان في المنام كما هو في الحقيقة. أجلى الجبهة، أقنى الأنف اسمه محمد بن عبد الله. أنهى صلاته وظل يقود سيارته إلى أن وصل بيت صديق قديم في هجرة لا تبعد كثيراً عن المدينة. صديق يحب أن يختبئ عنده إلى حين.

استقبله الرجل مرحباً:

- حياك الله يا أبا محمد تفضل.

يحب جهيمان أن يكنّيه أصحابه المقربون بأبي محمد ويعلم بعض أصحابه ذلك فيرددون كنيته كلما نادوه.

تـناول جهيمان بعض التمر مع القهوة وهو شارد الذهن يتفكر فيما رأى. ويتذكر صورة الشاب التي ظهرت له في رؤياه أثناء حديث النبـي عيسى معه. قاطع المضيف شروده حين قال له:

- والله كنت هذا الفجر أود رؤياك دعوت الله أن تأتي لزيارتنا أو أن أعلـم أين أنت فأزورك فعندي ما أود أخبارك به؟ وسبحان من استجاب لدعائي.

أنصت جهيمان إلى صديقه وهو يقول:

- رأيت البارحة رؤيا عجيبة بعض الشيء. كنت أقرأ في كتاب الله ثم نمت في مكاني والمصحف إلى جواري. ورأيت في المنام كأني أسمع صوت فاطمة ابنة رسول الله ﷺ. كانت رضي الله عنها تقول: "إنه من ولدي فانصروه. بايعوه ولا تخذلوه" ثم استيقظت لا أدري ما معنى هذه الرؤيا.

كبَّـر جهيمان عدة مرات وسبح الله و لم يزد على التسبيح شيء. فظل صديقه يستنطقه:

- ما تفسير هذه الرؤيا يا أبا محمد؟
- خير.. كله خير من عند الله.
- إن شـاء الله خير لكن من هو هذا الذي من أحفاد الرسول ﷺ وعلينا نصرته؟
- ربمـا يظهـر لنا بعد أيام..أو شهور.. الله وحده يعلم متى وكيف وأين؟

آلاف من البشر إن لم يكونوا ملايين يترقبون انقضاء القرن الذي هـم فـيه وبـدء قرنٍ جديد، آملين أن تأتي السنوات القادمة بالخير والرخاء. وكلهم موعودون بظهور إمامٍ لهم كل مئة عام. فلمَ لا تمتلئ أحاديـثهم به وترتسم صورته في أحلامهم. وكثر الحالمون والواهمون

والمفسرون والمنتظرون.. وتزايدت الأخبار عن رؤىً هنا وهناك. كلها ذات معنىً واحد لدى الجميع (المهدي المنتظر شارف على الظهور).

ظـــل جهيمان حتى انتصف العام 1399هـــ وهو يسمع رؤيا هنا وحـــديث هناك عن المهدي الذي سيظهر. وكل الرؤى تُحكى له ممن يثق بتقواهم واستقامتهم.

اشـــتاق إلى الصلاة في المسجد النبوي فترك الصحراء وراءه واتجه إلى المدينة. وظل في المسجد حتى صلى العشاء.

اتجه بعدها إلى منـــزل أخته، وهناك سلم بحرارة أكثر مما اعتادها منه أهل الدار ثم وقف مشدوها أمام زوج أخته "محمد بن عبد الله" بعد أن ســـلم علـــيه. إن وجهـــه تماماً كالوجه الذي ظهر له في نومه قبل شـــهور. وصـــفاته تتطابق والأحاديث التي بلغت حدّ التواتر وجاءت تصفه بأنه(أجلى الجبهة أقنى الأنف).

لم يطـــل الـــوقت حتى انفرد جهيمان بزوج أخته الذي كان قد التقى به لأول مرة قبل سنوات في الحرم النبوي في المدينة المنورة حيث جمعـــتهما مجـــالس العلماء بالمسجد النبوي ثم تطورت العلاقة لتكون بيـــنهما مـــصاهرة. أطلعه جهيمان على رؤياه، فجفل الرجل وانتفض كالملـــدوغ. ولولا الحياء لفر من مجلسه هرباً مما يقول نسيبه. لم يتقبل الأمر. ولم يرَ في نفسه ما يقنعه بأنه هو المهدي المنتظر.

- هناك علامات يا محمد لظهور المهدي وكلها اجتمعت وظهرت في هذا الوقت بالتحديد.. أما العلامات التي أراها فيك فوالله لن يخطئ في ملاحظتها حتى الأعمى.
- وماذا أفعل؟ هذه أمور لا قِبَلَ لي بها.
- لست وحدك.. الله معك.. الله سيدلُّك على ما ستفعله. وسيلتف الناس حولك لأن ظهورك حق.

قال مصعوقاً:

- ظهوري أنا حق؟!
- نعم.. رسول الله ﷺ قال: "المهدي منّي أجلى الجبهة أقنى الأنف. يملأ الأرض قسطا وعدلا كما مُلئت جورا وظلما يُبايع بين الركن والمقـــام، يملـــك سبع سنين". هذا الحديث رواه الإمام أحمد وأبو داود. وقـــال أيـــضاً أن اسم المهدي يوافق اسمه ﷺ وأنت اسمك محمد بن عبد الله. كما وأنك يا محمد متمسك بالدين حميد الخلق. تخاف الله وترجو رضاه. ولم يعرف عنك ما يجعل عاقلاً يشك في أنك أنت المهدي المنتظر.

ظل محمد بن عبد الله القحطاني مبهوتاً مما سمع. لا يصدق ولا يـــريد أن يصدق فهو أضعف من أن يناط به أي أمر. فكيف بأمر يتعلق بإمامة الناس وهدايتهم والملك سبع سنين. لكن جهيمان ظل يـــسمعه خـــبر رؤياه ورؤيا صديقه ويسوق له الأدلة من أحاديث يعرف محمد أنها صحيحة السند. وشيئاً فشيئاً دخل في أعماقه شيء من التصديق.

- ســـننام الآن وقـــبل الفجر نذهب إلى الحرم النبوي لنصلي الفجر هناك.

هكذا ختم محمد كلامه مع جهيمان.

في الفجـــر كانا في المسجد النبوي، وبعد أدائهما لصلاة الفجر، نظـــر إلى محمد رجل ربما قارب الثمانين ذا بشرة شديدة البياض ولحية كـــالقطن. أدرك محمد أنه ليس بعربـــي من لونه وشكل ثيابه ومخارج حـــروفه، ظل الرجل يتأمله لثوانٍ ثم قال: "سبحان الله" ومضى لشأنه. كاد محمد أن يلحق به ويسأله عمّا دفعه ليقول له هذا. ما الذي رآه في وجهه ليتأمله ثم يسبِّح الله. لكن الرجل سار في طريقه إلى أن اختفى.

ظـــل الرجلان لأيام لا يجدان أمراً آخر للحديث عنه سوى بعثة محمـــد المهدي. جهيمان لا يتوقف عن سوق الأدلة والبراهين التي يريد محمد مزيدا منها ليتأكد من أنه هو المهدي المنتظر أو فلينس الأمر كله. لكـــن كيف ينساه وكلما مرت الأيام واقترب انقضاء القرن وبدء قرن جديد تصاعدت بالناس هستيريا الخلاص وتزايدت رؤاهم وكلها تُفسَّرُ لتخدم ذات المعنى.

قـــرر محمـــد القحطاني الذهاب إلى مكة ليطوف بالبيت العتيق ويصلي هناك لعل الله يؤيده بعلامة تؤكد الأمر أو يصرف عنه هذا الهم كلـــه. ودون أن يخـــبر أحداً ركب سيارته واتجه إلى بيت الله. اعتمر وصـــلى ثم اتجـــه إلى بيتٍ من بيوت الـــ "إخوان" فيه رجال يعرفهم ويعرفونه.

هـــناك حـــيث الجميع يتحدثون عن قرب نهاية قرنٍ من الزمان وبداية آخر سمع محمد أحدَهم يقول:

- أخـــبرني صـــديقٌ لي أتى لزيارة بيت الله قبل أسابيع فقال: "حين كنت في طريقي إلى مكة قادماً من الشمال وقفتُ أتزود بالماء من بئـــرٍ أعرفها واستقي منها كلما سافرت. لكني هذه المرة وجدت عجوزاً على البئر في وجهها نور الإيمان ووضاءة الصادقين، قالت لي إني ســـألتقي في حج هذا العام بالمهدي المنتظر الذي اختاره الله لكي يؤدي مهمةً عظيمة".

قال محمد بانتباه:

- وأين هو صديقك هذا؟
- عاد إلى دياره لكنه سيحج هذا العام وسنلتقي به. إن شئت أن تراه فكن معنا في حجنا الذي بنهايته سنودع قرناً ونستقبل آخر.
- ومن كانت تلك العجوز التي التقى بها صديقك عند البئر؟

- صـــديقي قال إنه لا يعرفها. ولا يدري من أين أتت فالمكان خالٍ مـــن البيوت ولا أحد معها. صديقي كان مندهشاً من وجودها في ذلك القفر.

عـــاد محمـــد إلى بيته وقد أصبح يقينه أقوى بأنه هو المهدي المنتظَر. لكنه لا يزال هو المنتظِر. يريد أن يتلقى من الله ما يتوجب عليه أن يقوم به.

— 18 —

تسربت الحياة من أرواحهن..
قطرةً.. قطرة

بــرغم كثـــرة طلبات النقل التي تقدم بها صالح إلى قيادته في مقر عملـــه ظل أمله بالانتقال إلى المدينة المنورة حلماً لا يتحقق. ولذا فقد كان مضطرا للسفر كلما وجد وقتا لذلك إلى المدينة المنورة. يصلي في المـــسجد النبوي أولاً ثم يلتقي بشيوخه الذين يجلّهم إجلال تقديس. وكـــان لا يسافر إلى المدينة إلا إذا تثبت من أن جهيمان مقيما في تلك النواحي.

التقـــى الصديقان فكان السلام حاراً بعد غياب دام عدة أشهر ثم صـــلى صـــالح المغـــرب مع الجماعة. واستمع إلى درس قصير قال فيه جهـــيمان بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد أن أكد على عدم موالاة الأنظمة التي لا تحكم بشرع الله، ولا تنتهي بنواهيه:

(ونحن على يقين بأن الله تعالى سيبعث من يرد الناس إلى دينه بعد أن غـــووا وانتشر الفسق والفجور بينهم. وسيكون ذلك بقدوم مجدد للـــدين كـــل مائة عام ليس بخاف عنكم أمره. مستندين في ذلك إلى حديث الرسول ﷺ الذي قال فيه: "يبعث الله على رأس كل مائة عام مـــن يجـــدد لأمتي دينها" وأكاد أستبشر وأبشر المؤمنين بقدوم المهدي المنتظر في أول يوم من الشهر المحرم للعام أربع مئة وألف للهجرة فترقبوا الفـــرج لأن الله لـــن يترك عباده الصالحين تحت حكم طغاة يبتعدون ويبعدون الناس عما جاء به الدين ويرغمون العباد على اتباع الضلال.

إن انتـــشار الفـــساد واقتـــراب نهاية القرن الهجري الذي نحن فيه أدلة واضـــحة على أن المهدي المنتظر قادم بإذن الله. وتعلمون أن له صفات محددة لا تخفى على كل منتظر يقرأ ويبحث فيما تركه لنا الرسول ﷺ من أحاديث تبشر بقدومه...).

أنصت صالح ومن معه بإجلال، ثم أدلى بمداخلةٍ قال فيها بعد ذكر الله والصلاة على رسوله:

- نحن عندما رأينا سطوة السلطان على كلمة الحق انصرفنا إلى الجهاد في سبيل الله طلبا للنصر أو للشهادة التي بشر الله بها من اصطفاهم لها بقوله تبارك وتعالى ﴿... وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ...﴾. إذاً.. الموت هـــو انـــتقال من دار إلى دار ومن حياة ضيقة إلى حياة أخرى مطلقة، من حياة البؤس والشقاء والنكد والغش والنهب إلى حياة الجنان والرضوان. أما الذين بيدهم السلطان فهم كفار لقوله تعالى: ﴿... وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. الله هو الذي وصمهم بالكفر ولستُ أنا. وما بقائي في عملي إلا لحرصي على إظهار الحق لمن هم معي في ذات العمل.

أثـــنى جهيمان على صالح وأشاد بما قال. ولم يطل الدرس الذي أنصت إليه الرجال المجتمعين حول جهيمان بخشوعٍ كخشوع التائبين إذ كان لزاما أن ينتهي استعدادا لصلاة العشاء.

كُلِّفَ صالح في تلك الليلة باستقبال مطبوعات جديدة ليوزعها في الرياض بين أعضاء الجماعة والموالين لهم أما باقي مناطقٍ المملكة فهناك كـــثيرون غـــيره يتولون التوزيع فيها. تباحث أيضاً مع شيخه في أمر الـــدروس والمحاضرات الدينية التي يلقيها صالح في المعسكرات فحدد له جهـــيمان من جديد عدداً من الموضوعات وأعطاه الكثير من الأوراق لتكون مرجعه.

اعـــتاد صالح أن تكون دروسه وفق ما يأمره به جهيمان مستعيناً بمـــا يكتبه من رسائل تُطبع في الكويت، يقوم بإلقائها دون الإشارة إلى مـــن كتبها. أو يقتبس منها ويحاكي ما بها. لذا ظل ما يطرقه دائماً لا يخـــرج عـــن ثـــلاث موضوعات رئيسية: الأول بعد الناس عن التدين وانـــشغالهم بالدنيا وما فيها من ملهيات عن عبادة الله والعذاب الذي سينتظرهم. والثاني خروج المرأة من المنـــزل للتعليم وغيره وما يجر إليه من مصائب وكوارث تجعل المجتمع كله غارقاً في الذنوب. والثالث ما يراه في ولاة أمر المسلمين من عدم صلاح وما يجب أن يكونوا عليه من استقامة.

سارت الأمور كما أراد لها جهيمان بالضبط كل تلك السنوات. أما النبأ الأكثر إثارةً والذي ألقاه على مسامعهم أحد جالبـــي الأخبار من أعوان جهيمان فقد كان عن اعتقال العشرات ممن يسمون أنفسهم بالمـــثقفين والتنويريين والقوميين. لا فرق بينهم فـــ "ملة الكفر واحدة" كما علّقَ جهيمان. واعتقالهم هذا يحقق هدفين له ولجماعته: الأول هو أن تخلو لهم الساحة فلا يكون هناك منافس يؤثر على الناس بخلاف ما يـــريد. والثاني أن تنشغل الحكومة بهم ليتمكن أكثر من جمع الأنصار والمؤيدين.

انفرد جهيمان بصديقه القديم صالح وأكد له ضرورة التوقف عن تقديم طلبات النقل لأن من المفيد للجماعة بقاؤه في الرياض وفي القطاع العسكري تحديداً. ثم حدد له مسؤولياته القادمة. أدرك صالح حجم ما يُلقى على عاتقه وسُرَّ بما أوكل إليه برغم التوجس.

أولى المهام التي عليه البدء بتنفيذها سراً إرسال ما جمعه من أسلحة وذخـــيرة أخفاهـــا في بعض المزارع والبيوت خارج الرياض إلى مكة وتجميعها في بناء قريب من الحرم، وليشرف شخصياً على تخبئتها جيداً

في المكان المتفق عليه. أما المهمة الثانية فستتحدد لاحقا وسيشترك معه فـــيها عدد من الرجال لأنها ستكون ذات أثر كبير في جعل الجيش كله ينقلب على الحاكم ويؤدي البيعة لجهيمان.

أخبر صالح زوجته آمنة بأنه سيذهب بها إلى أهلها وستبقى هناك طوال شهري ذي القعدة وذي الحجة من العام 1399هـــ.

أراد صـــالح أن يتفـــرغ تماماً لما كُلف به. وسيستعيدها بعد أن تستتب الأمور لصديقه جهيمان. ومن يعلم..؟ ربما يعيّنه جهيمان وزيراً أو يجعلـــه أميراً.. أو ربما يصبح رئيساً أعلى للقضاء. أوليس ممن درسوا الإسلام في الجامعة!

ظلت الأحلام تراود صالح فينتفخ بها ويحلق عالياً كبالون كبير. ثم يواصـــل عمله بدأب لا ينقطع. وعلى مدى الأشهر الأخيرة من ذلك العـــام كان يدرب نفسه للحظة الحاسمة. اللحظة التي سوف تكون في اللحظات الأولى من فجر أول يوم من أيام العام الهجري الجديد 1400 هـــــ. إذ إنـــه مُكلفٌ بأن يعلن في ذلك اليوم تحديداً انقلاب جهيمان علـــى الحكم وظهور المهدي المنتظر في الحرم المكي ومبايعة الناس له في بيت الله، ثم أخذ البيعة من الجيش لذلك المهدى.

عاد صالح إلى الرياض وترك زوجته الحبلى وطفلته هناء عند أهلها في آل وادح. لكن القرية ليست هي القرية والأهل ليسوا هم الأهل.

كـــيف غدت الحقول جرداء، والمرعي خالية من المواشي والبشر؟ من أزال كل تلك الأحواض المزروعة من أمام البيوت؟ من أغلق النوافذ والأبواب؟ من أرسل بعض الكساح إلى أقدام النساء والريبة والشك إلى قلوب الرجال؟ كيف استطاعوا بهذه السرعة أن يكيفوا أنفسهم ليعيشوا حـــياةً اجتماعيةً لم يعتادوا عليها، حياة تمتلئ بالأنانية والفردية المقيتة. كـــيف تحـــولت المـــرأة إلى عبء على المجتمع في بضع سنين؟ كيف

استجابوا بهذه البساطة للآخرين؟ أو لم يدركون أن العيش وفق ما يريده الآخـــرون يعـــني أن تختفي متعة الحياة، وتصبح أيامهم ولياليهم مجرد انصياع وتصنع.

كل شيء مختلف. حتى الزهور تغيرت ألوانُها.. فلا الروضُ روضٌ ولا الحقولُ حقولُ. كأن آمنة لم تعد إلى قريتها. كأنها فقط انتقلت من حي فقير إلى آخر أكثر انغلاقاً وبؤسا.

أيعقـــل أن يكون هؤلاء هم من غادرتهم في نهايات العام 1393هـــ. وهـــي في التاسعة من عمرها وعادت إليهم في نهايات العام 1399هـــ. وهي في الخامسة عشرة؟

إنـــه زمـــن قـــصير في عمـــر الشعوب. مدة لا تكفي لكل هذا الانقـــلاب في العادات والتقاليد والأفكار والقيم والمفاهيم والمعتقدات. مـــدة لا تكفـــي ليصبح الناس بهذا التزمت.. والتعصب.. والتوجس.. والانغـــلاق، إلا إذا كانت الخطط مرسومة بعناية فائقة والجهود مكثفة والعمـــل دؤوب مـــن أجل تصحير القلوب وتجفيف منابع الخير الحب والجمال.

جـــاءتهم آمنة ترتدي عباءتها السوداء فوجدت عند والدتها عباءة. وعـــند كل امرأة في القرية عباءة. سمعت كلمة "الحريم" وقد حلت محل "إم نـــسوة" و"حـــرمة" صـــارت بدلاً من "امرأة" وأن أولئك النسوة المتحولات إلى حريم في البيوت صرن تماماً كجاراتها في الرياض يكثرن مـــن السؤال حول حِل أو حُرمة كل شيء حتى ضاقت عليهن الدوائر وخنقـــتهن الإجابات بعد أن كانت حياتهن كلها حلالاً إلا ما عُرفت حـــرمته القطعـــية للجميع. ثم اكتشفت آمنة بعد ذلك أن هناك نسخا عديدة من صالح في قريتها. استنسخوا منه إيمانه بتميزه الطاغي لمجرد أنه ذكر، واعتقاده الجازم بسوء الـــ "حرمة" وفسوقها واعوجاج أمرها إن

لم يحـــرص بذاته على إصلاحها. وأن كل استقامة تكون عليها النساء مردها إلى حرص الرجال ومتابعتهم لهن.

لم يعـــد الناس كما كانوا متجاورين متحابين. لقد أغلقوا قلوبهم بمغالـــيق صدئة. وحرّموا الشمس والهواء على النساء. لذا لم تخرج آمنة إلى الحقول.. و لم تخرج إي امرأة أخرى. وليست بحاجة إلى الخلاء ولا إلى جلـــب الحطب أو الماء ففي البيت مطبخ وحمام تماماً كما في بيتها المتواضـــع في الرياض. ليس بيت والدها وحسب. بل كل بيوت القرية أصبحت مجهزة بخزانات المياه وأنابيب الغاز ومصابيح الكهرباء.

الرجال يغدون إلى وظائف عديدة في أبها ويروحون منها محملين بما يشترونه لأسرهم من هناك. والنساء في البيوت لاشيء معهن سوى الـــضجر، تتسرب الحياةُ خارجةً من أرواحهن قطرةً قطرة ويحل محلها التعاســـة والخـــواء. لا يشغلهن سوى الثرثرة والتجمع في البيوت التي يكـــون إرسال التلفزيون واضحاً فيها أكثر، وقد ظنت بعض نسوة آل وادح أن الحـــظ التعس هو ما يجعل الإرسال في بعض البيوت مشوشاً وليـــست الجـــبال العالية في بعض الأماكن والمنخفضة قليلا في بعضها الآخر.

بقـــيت آمنة عند أهلها بعد أن تغيروا. صاروا آخرين غير أولئك الـــذين تـــركتهم. حتى والدتها، سعدى المعتدة بنفسها، تلك التي تبدو دائمـــاً ذات عقل راجح ورأي سديد، انتهى أمرها إلى تنظيف البيت صـــباحاً ثم الجلـــوس في إحدى الزوايا تنتظر جاراتها ليزرنها أو ترتدي عباءتها هي وابنتاها لتزورهن. فاطمة أخت آمنة غدت الآن على أعتاب المـــراهقة، تمـــشط شعرها وترتدي ثيابا ثم تبدلها وتنظر إلى المرآة طوال الـــيوم. ولـــيس لديها ما يشغلها إلا مرآتها. أما إبراهيم فلم يشعر بأنها أختـــه و لم يجلس معها إلا أثناء تناول الطعام. وظل مع أصحابه خارج

الـــدار إلى أن يعود للنوم. إبراهيم الذي ما كان ليبتعد عن فاطمة حين كانـــا صغيرين ولو لدقائق صار الآن لا يراها إلا نادراً. لقد صنعوا منه في مدرســـته إبراهيم آخر غير ذاك الذي يحب أخته. هو الآن إبراهيم الذي يخاف من أخته وعليها. تغير كما تغيروا جميعاً وصار مثل رفاقه، يتلـــصص علـــى الأخريات ويجتهد لاغتنام كل فرصة تمكنه من رؤية أطراف أصابع يد إحداهن، ويحاصر فاطمة ويراقب طريقتها في ارتداء عباءتها إن سمح لها بالخروج.

آمنة الآن بدون أحمد الذي عرفته في الرياض، و لم تخبر عنه أحد. بـــل لم تخـــبره هو إنها ستسافر. سيأتي كالمعتاد وينظر من الأعلى إلى الحـــوش ولن يجدها. وربما يظل منتظراً إلى أن تعود. حين تعود ستبدأ بالاعـــتذار له لأنها لم تكن تعلم عن ذلك السفر إلا حين أخبرها صالح قبل سفرهم بيوم واحد.

أمـــا أحمدها القديم. أحمد إبر أبـــي موسى فلم تجرؤ على السؤال عنه. و لم يخبرها أحد بأنه قد ترك القرية وانتقل إلى حيث لا يعلمون.

بقـــي صـــالح وحده في الرياض يعمل بدأب ويحافظ على السر العظـــيم منتظراً أول فجرٍ في عام 1400هـــ. اجتمع قبل الفجر المنتظر بأيـــامٍ قليلة مع رفاقه الذين لا تتوقف اجتماعاته بهم منذ أعوام إلا لتبدأ من جديد.

حـــدد لكل فرد موقعه ساعة الإعلان عن الاستيلاء على الحكم. وأعطى تعليماته للخطباء بشأن ما سيقال أمام الجموع، وتعليماته لقادة الجـــناح العـــسكري المسؤولين عن تأمين الموقع وحماية البيعة من أي اختراق.

في ذلـــك الوقت كانت الخطب على كل منبر والدروس في كل مـــسجد ومدرســـة وجامعة.. خطب قد توالت طوال أعوام في كل

القطاعات الحكومية تبشر بقرب ظهور المهدي وتدعم ذلك بأحاديث يؤمن مرددوها وسامعوها بأنها الصحيحة. وظهور المهدي المنتظر منتظرٌ مـــن كثيرين لأن القرن الهجري سينتهي وسيبدأ قرنٌ جديد على يدي ذلك المهدي.

كـــان جهـــيمان وصـــالح وغيرهما على يقين من أن الناس على اســـتعداد لتلقي الأمر كما يتلقون البشارة. فقد عملوا بإخلاص وتفانٍ لتحقيق أهدافهم.

— 19 —

خُذُوا حِذْرَكُمْ من دماءٍ عَفِنَة
لا زالت تلوث أرضكم

لم يكن محسن راغباً في الموت للقاء الجميلات في الجنة، برغم كل المـــواعظ والدروس التي تلقاها عن المتع التي ستقدمها له "حور العين" وما سوف يفعله هو بأولئك الحسان حين اللقاء الموعود.

لم يـــرغب في قـــتل أحد حتى ولو كانت مكافأته جسد امرأة أو اثنـــتين أو ثلاث أو سبعين من ذوات الجمال الباهر الأخّاذ. وبرغم أنه تلقى الكثير من التدريبات مع رفاقه الـــ "مجاهدين" في عمق الصحراء، إلا أنه ظل يجهل عدوه الذي سيواجهه. ويجهل أيضاً موقع المعركة التي يستعد لها.

وعود كثيرة تلقاها من قبل الذين درَّبوه بمنحه جنةً فيها كل شيء ممـــا يعرف وما لا يعرف. لكنه لم يتذكر حرفاً مما صبوه في أذنيه طوال مـــدة تدريـــبه حين وجد نفسه ممسكاً بكفي أحمد المرتجفتين وهما بين خليط من الأجناس داخل الحرم المكي، والدنيا حوله ليست كما رآها في زيارته الأولى.

ردد بهلع يفقد كلماته الوضوح والترابط:

- ما بهم.. ما هذا. من ذا؟ لماذا يطلقون النار في بيت الله؟

لم يجـــد محسن إجابةً عند رفيقه أحمد على هذا السؤال التائه، بل وجد هلعاً مماثلاً لهلعه وكلمات لا تُفهم يحاولان بها أن يُذكِّرا بعضهما بما كانا يسمعانه ولا يفهمانه في فترة تدريبهما.

هــا همــا يتذكران معاً بعض الجمل التي في ثنايا تعليمات كثيرة صُـبَّتْ في آذان المتدربين وكان منها قول مدربيهم لهم حينما كانوا في مكان بعيد وسط الصحراء:

- يقــول الله تعالى في كتابة العزيز ﴿... وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَـرَامِ حَتَّـى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِـرِينَ﴾ يأمــرنا الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن لا نقتل من سـيكون معـنا، لا نفعل ذلك أبداً.. أما من يقاتلنا في بيت الله فـيجب أن نقاتلـه ونقتله. الله تعالى أمرنا بقتل كل من يعترض طريقنا حتى وإن كان داخل بيته الحرام. هذا هو نص كتابه الكريم. كـذلك جزاء الكافرين. وعليكم أن تتذكروا قول الله هذا. وأن تتذكروا أيضاً قول ابن تيمية رحمه الله "ما يصنع أعدائي بـي؟ أنا جـنتي في قلبـي، وبستاني في صدري، أينما رحت فهي معي لا تفـارقني، أنـا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة".

إذاً.. الأعــداء هم هنا في بيت الله، يطوفون ويسعون.. يركعون ويـسجدون. أم أن الأعداء خارج البيت الحرام لكن سيأتون معترضين على احتلاله؟

محـسن ورفيقة أحمد إبر موسى الآن في تلك المعركة التي استمعا إلى دروس كثيرة لكي يستعدا لها، لكن كل تلك الدروس خرجت من رأسـيهما وانـسكبت على الرمال حينما غادروا أماكن التدريب إلى البيت العتيق.

- هيا نهرب.. نهرب قبل أن يسخطنا الله قردةً أمام كعبته.

هكـذا قـال أحمد إبر موسى الذي كان تائهاً بين الجموع يرى هروب الناس وتدافعهم وآخرين يحملون سلاحاً يطلقونه هنا وهناك.

اخـــتلط الناس وتدافعوا فضيَّع الرفيقان بعضهما برغم أن المسافة الـــتي تفـــصلهما عدة أمتار فقط. ثم وصل محسن إلى رفيقه من جديد لـــيجده في حالـــة مـــن الـــرعب لم يعرفها من قبل ولا حتى في أكثر الكوابيس بشاعة ورعباً.

- تقول.. نهرب؟

- نعم قبل.. كنت أقول نهرب قبل أن يسخطنا الله قردة!!؟

بـــتلك الكلمات غير المترابطة أجاب أحمد. فقال محسن والارتباك يلعثم لسانه ويهز أوصاله.

- نعم.. صدقت.. يجب أن نهرب.. نهرب.

وقـــرروا الفرار قبل أن يتحوَّلا إلى قردين أو خنـــزيرين.. لكن الله لم يسخط المعتدي ولا المعتدى عليه وظلت المعركة تدور والقنابل تقتل الناس وتُسقطُ بعضاً من أحجار جدران الكعبة فوق جثثهم ودمائهم.

الخـــوف شل أطراف الفتيين وهما ينظران إلى كل شيء بذهول. لقـــد صلَّيا في البيت الحرام في زيارتهما الأولى. ثم وجدا نفسيهما بعد ذلك يتدربان على حمل السلاح دون أن يخبرهما أحد أن الأعداء الذين سيطلقان عليهم النار هم ممن يحجون ويعتمرون. جاءا مع الجميع، نفذا الأمـــر بالـــتوجه إلى بيت الله ولا يدريان كيف ومن الذي وضع تلك البـــنادق في أيديهما. بندقيتان وكثير من الرصاص بحوزتهما، وبحوزتهما أيضا قلبان واجفان وهلع رهيب.

في ذلـــك الفجر كان أحمد غارقاً في ابتهالاته بعد الصلاة مباشرةً حـــين تقدم محسن تاركاً رفيقه خلفه ليزاحم الناس ويقترب من الكعبة أكثر رغبةً في مزيد من الحسنات عند الله... لكنه رآهم فجأة يكشفون الأغطـــية عـــن نعوشٍ موتى أدخلوها قبل آذان الفجر للصلاة عليها، تقدمـــوا بالنعوش المحمولة على الأكتاف ثم وضعوها أمام الكعبة. وقبل

أن يكبِّـــرَ إمـــامُ الحـــرمِ للصلاة على الميتين، كشف جهيمان وأعوانه الأكفان فإذا تحتها أكوام من الأسلحة بدلاً من الأجساد المسجَّاة. وزَّع جهـــيمان السلاح على قواد الفِرَقِ التي انتشرت بين الناس تجبرهم على مـــبايعة المهدي. وخلال دقائق من الفوضى والارتباك وضع أحد القواد ســـلاحاً بـــين يـــدي محسن وأعطاه مع السلاح تعليمات صارمة لم يـــستوعبها الفتى جيداً.. بل لم يسمع من كلمات قائده شيئاً.. ثم رأى الرصاص يتساقط من حوله كالمطر.

مـــن يطلـــق النار على من؟ أناس يبايعون، وآخرون يفرون نحو الأبواب ويسقط بعضهم صريعاً قبل أن يصل.

بعـــد لحظـــات من إطلاق النار وجلبة رافقت اضطراب عظيم يـــسيطر على كل من كان في بيت الله، تكومت امرأةٌ تصرخ بالقرب مـــن الكعـــبة وترفع إحدى يديها لتدعو الله بلغتها غير العربية وباليد الأخـــرى تـــضم رضـــيعاً إليها وقد سالتْ دماؤه على ثوبها الأبيض. تـــساقطت دموعها غزيرةً فاختلطت بدماء طفلها المقتول. وظلت يدها المرفوعة مرفوعةً تستغيثُ برب السماء.

فكـــر محسن في أن يساعدها ولا يدري كيف. ماذا عساه فاعل؟ هـــو لا يعرفها ولا هي تعرفه لكنها ترى السلاح في يديه فيزداد نحيبها وتستمر يدها الممدودة تطلب مدداً من السماء. هل هذا الفتى المذهول مـــن أعدائها؟ من هم أعداؤها؟ ولَمَ صاروا أعداءً لها وهي التي جاءتْ من بلادٍ بعيدة ليس إلا لكي تردد "لبيك اللهم لبيك"؟

اختلطت رائحة البارود في أنفه برائحة دم قتيل ارتمى عند قدميه، قفـــز محـــسن مبتعداً عن الجثة وبحيرة الدماء بعدما غاصت فيها قدماه ولطخـــت جـــزءاً من ثوبه.. بندقيته في يده لكن قلبه ليس في صدره. تـــراجع إلى الخلـــف حيث صلى الفجر قبل قليل ليبحث عن رفيقه.

وبرغم كثافة التدريب الذي تلقاه لم يجرؤ على إطلاق رصاصة واحدة. يطلقهـــا أين؟ وعلى من؟ ولماذا...؟ وأدرك حين جاء الموت ليبتلعه أنه يريد الحياة. فكيف ومن أين سيهرب؟ وإلى أين؟

تكـــشفت الحقيقة أمامه كنورٍ خاطف في تلك اللحظات.. أدرك أن للإنـــسان خـــيارات: "إما براءةٌ يرسمها تقاه الظاهر ويرافقها خبثٌ خفـــي. وإما قلب نظيف ونقاء سريرة خفي يرافقها شقاء ظاهر. ومن يقـــتل الـــناس إن لم يعـــبدوا الله على طريقته خبيث حتى وإن ظننا به خيرا". هكذا تجلت له الصور وكأن الشمس تغمر عتمات روحه لأول مرة.

رأى محسن اندفاع المصلين وهم يتكومون نحو الأبواب، ومن فوق المآذن الشاهقة كان القناصة يطلقون النار على من يريد الفرار أو يحاول فـــتح أبـــواب الحرم. وبجوار الكعبة يقترب آخرون بهلع يمدون أيديهم مبايعين.

تهتز البندقية في يدي محسن وهو يدور بها ولا يدري إلى أين يوجه فوهـــتها. رأى رجلا ممن تدربوا معه يركض هرباً فقرر أن يركض معه نحو الجموع المتكتلة عند الأبواب. وأخيراً وجد رفيقه أحمد وقد غشاه هلـــع مماثـــل. أحمد أيضا لديه بندقية لا يدري ماذا يفعل بها. لذا تركا البندقيتين على الأرض وأمسك كل واحدٍ منهما بكف رفيقه وقد تحدثا بكلمـــات قلـــيلة عن وجوب الفرار من جديد قبل أن يسخطهما الله قردين.

ركـــضا خلف الرجل الهارب ولا يدري ثلاثتهم بمن يستغيثون، هربوا وموج الموت حولهم يتلاطم في كل الاتجاهات. اندفعوا كشياطين فرت من نار جهنم يوم الحساب.. لكن إلى أين المفر؟ قبل أن يصلوا إلى منتصف الطريق تلقتْ أجسادهم رصاصاً جعل ظهورهم مناخل لتصفية

الدماء. ثقوب تنثال منها أرواحهم غير طاهرة.. ولا دَنسَة. أرواح اقتنصها الموت قبل أن يعلم أصحابها أكانوا أشراراً أم خَيِّرين. فماذا كتبت الملائكة عنهم في صحائفها. أهم الآثمون بلا إثم؟ أم الطيبون بلا حسنات؟.. وكان الموت دائماً هو أكثر القناصين مهارة، إذ لا نجاة إذا انطلقت سهامه لاقتطاف الحياة. وها هو يقتطف أرواح الثلاثة في لحظة واحدة.. لحظة هروبهم من الموت.. أم تراه كان هروباً من الإثم؟ هروبا يريدون به الحفاظ على أشكالهم البشرية.. حماية أنفسهم من سخط الله القادر على تحويلهم إلى قردة وخنازير.

تساقطوا قتلى، وتشكلت حولهم بحيرات دم ساخنة على الأرض الرخامية في عز الظهيرة، شرب الذباب من بحيرات الدم المختلطة حتى ارتوى. أما أجسادهم فلم تكن سوى أسمال بالية تحوي حياةً قلقة. أسمال اهترأت بسرعة برغم صغر السن فخرجت أرواحهم تهيم بين السماوات والأرض دون أن يعرف أحد فيما بعد من كان هؤلاء الشبان الثلاثة القتلى. من أي أرضٍ هم، ولماذا أتوا؟ لقد أغاثهم الموت من نفوسهم التائهة ومن مصيرٍ كان سيأخذهم إلى موتٍ ولعنات في ساحات القصاص، وسيرة قذرة يتلطخون بها بعد الإعدام.

انتهت حياتهم القصيرة دون تاريخ يذكرهم أو معنى يوضح لهم لِمَ خُلقوا ولِمَ ماتوا. قبل أن يفهموا سببا لحياتهم وموتهم. ظلت أجسادهم مسجاة تحت الشمس، تنشر العفن يوماً بعد آخر.

استمر وابلٌ من الشر ينهمر من فوهاتالبنادق والرشاشات في المآذن على كل من يقرر الفرار. وكل من قرر الانسحاب سيجد نفس المصير حتى ولو كان المهدي ذاته. فقد أصدر جهيمان أوامره:

- "اقتلوا من يستسلم".

سمـــع من في الشوارع المحيطة بالحرم نداءً في ذلك الصباح بمبايعة المهـــدي عبر مكبرات الصوت ووجدوا أبواب المسجد مغلقة. استغاث أهـــل مكـــةَ بهلـــع طالبين الله أن ينقذ بيته وعباده الصالحين. وتهامس بعـــضهم والرعب يجتاح كل مكان: ماذا سيحل بمكة كلها؟ ويلاه.. كيف لا تسقط الشمس علينا الآن..؟ ما يحدث لا يرده الله بحجارة من سجيل بل بشموس عظيمة تتساقط فوق رؤوس المجرمين. شموس خُلقت من الجحيم لرجم المعتدين.

ارتفعت شمس ذلك اليوم في شروقها أكثر لتتوسط السماء.. ربما اســـتعداداً للسقوط لتحرق المعتدين على بيت الله.. لكنها لم تسقط.. اكـــتفت الشمس بمراقبة سيارات عسكرية كثيرة جاءت تطوق المكان إلى أن غربت.. ثم عادت في اليوم التالي في موعدها بالضبط لتراقب من جديد.

بلـــبلة بـــين الناس، ووكالات أنباء عديدة تتناقل الخبر، وصمت بالمقابل يخنق التلفزيون وإذاعة الرياض.

أما صالح فلا علم له ولا علم لمن معه في الرياض عن بدء المعركة في مكـــة في ذلك الصباح. وكان يتأهب للغد لأن غداً في ظنه هو يوم البيعة للمهدي. حينها كان قد بدأ إجازته السنوية الرسمية ليتفرغ لمهامه القادمة.

لا يعلم لصالح بما جرى في الحرم المكي لأن جهيمان اعتمد على القمـــر لـــيحدد أول أيـــام العام الجديد. فالقمر رفيقه في السفر عبر الصحارى.. وقد اعتاد منذ سنين على تحديد الأيام وفق ظهوره.. بينما اعـــتمد صـــالح وأعوانه على التقويم الرسمي في الدوائر الحكومية. ومن أجـــل الحظ الجيد لبعضهم أو الحظ التعس لآخرين، لم تتطابق الأيام.. فظهر القمر ليعلن بدء العام الجديد قبل التقويم المعتمد عند الدولة بفارق

يوم كامل. وكانت القوات العسكرية خلال ذلك اليوم قد تحركت إلى مكـــة لتـــبدأ معركتها مع جهيمان وجنوده. بينما ظل صالح وأعوانه ينتظرون انقضاء النهار ليأتي الغد بأمرهم العظيم. وكل ما يعتقدونه هو أن المعـــركة ســـتبدأ غداً. وهم أيضاً سيبدأ دورهم وما يرتبون له غداً صـــباحاً. ثم وصلتهم الأخبار من جواسيسهم في وقت متأخر من ذلك المساء عن تحرك فِرَق من القوات المسلحة إلى مكة.

استعجل القمرُ وظهر وليداً ليعلن عن بدء العام الجديد قبل الموعد المسجل له في الدوائر الحكومية بأربع وعشرين ساعة. ولولا ذلك لكان ما سيجري مختلفا عما جرى؟ ولا أحد يدري ماذا كان سيحل بالبلاد والعباد لولا القمر.

ظـــل صالح في الرياض بعد أن انتشر الخبر عن معركة في الحرم. كان يتابع ما يجري بصمت استمر إلى الآن. واستمر طموحه أيضاً بأن يزيل المنكرات وإلا فإنه سيزيل من لم يستجب له.

خلال ساعات قليلة من ذلك النهار كانت القوات العسكرية قد طوقت الحرم وأبعدت الناس عن البوابات. ثم بدأ ضرب المدافع للمآذن كلها لتسقط ويسقط جميع القناصة صرعى. ويضطر عدد كبير من فرقة جهـــيمان إلى الانـــزواء بأسلحتهم في القبو تحت المسجد. حيث مخبأ السلاح وكميات وافرة من التمور وأنواع من الأطعمة والماء.

ظلـــت المعارك تدور بشراسة والناس تتابع ما يجري عبر محطات الراديو المختلفة. ثم نطق التلفزيون المحلي في اليوم الثالث عن وجود فرقة باغية تحارب الله ورسوله، تحتل بيت الله وتقتل الأبرياء الآمنين فيه.

كـــان الـــناس ساعتها ينصتون إلى إذاعات بعيدة تأتي بأنباء الحـــدث لحظة بلحظة. لذا جاءتْ أنباءُ الرياض باهتةً باردة وليست بمستوى الفاجعة.

ظـــل القـــتال دائراً إلى اليوم الخامس عشر من الشهر المحرم للعام الجديـــد 1400هـــ. وفي منتصف نهار ذلك اليوم ظهر على التلفزيون ملـــك الـــبلاد حينها "خالد بن عبد العزيز" يرحمه الله، يطوفُ حول الكعبة ومعه كثيرون ليعلن بدخوله الحرم سيطرة القوات السعودية على الموقع والقبض على جهيمان وأعوانه وانتهاء المعركة.

نعـــم.. انـــتهت في ذلـــك اليوم معركة، لكن الحرب استمرت. فالجهيمانـــيون بعد تلك الأيام صاروا أكثر مما كانوا أضعافاً مضاعفة.. وتعلموا كيف يستدرجون الناس ويحققون مآربهم دون الحاجة إلى هدم الكعبة الشريفة.

ـــ تمتْ ـــ

للتواصل مع المؤلفة

ayshalhashr@gmail.com

ERROR: ioerror
OFFENDING COMMAND: image

STACK: